

رواية

كريستي لَفْتيري

ترجمة: مَهديّ سُليمان

نحّال حلب

نَحَّال حَلَب

كريستي لَفْتِيرِي

Author: Christy Lefteri,

The Beekeeper of Aleppo

ترجمها عن الإنجليزية:
مَهديّ سُليمان

مراجعة:
رفعت فرج

الإخراج الفني:
ستوديو سيماء

Translated from English by:
Mahdi Sulaiman

Edited by:
Refat Faraj

Design by:
Simaa Studio

الطبعة الأولى | سبتمبر 2020
ISBN: 978-9921-712-31-5
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:
2020/0888



+965 99462219 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com

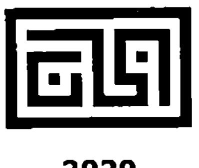
روايـــة

نَحَّــال حَلَــب

كريستي لَفْتِيرِي

ترجمة

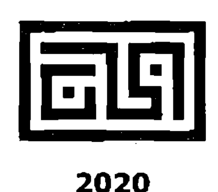
مَهديّ سُليمان



2020

Christy Lefteri,

The Beekeeper of Aleppo



2020

نشَأَتْ كريستي لَفْتِيري في لندن، وهي ابنة مهاجِرَين قبرُصيين، وتعمل مُحَاضِرَةً في الكتابة الإبداعية في جامعة برونَيل. لقد وُلِدَتْ رواية نحَّال حلب من رحم الوقت الذي قضته متطوِّعةً في مركزٍ للاجئين تُشرِفُ عليه منظمّةُ اليونيسِف في العاصمة اليونانية أثينا.

أهدي هذه الرواية إلى بابا، وإلى «س» كذلك.



1

أنا خائفٌ من عيني زوجتي. فهي لا تستطيع أن ترى بهما وما من أحدٍ يستطيع أن يدرك أيَّ مشاعر تخفيها وراءهما. انظروا إليهما، فهما مثل حجرَين؛ حجرَين رماديَّين، حجرَين من حجارةِ البحر. بل انظروا إليها انظروا إليها كيف تجلسُ على حافّة السرير، ومنامَتها ملقاةٌ على الأرض، وهي تدوِّر بين أصابعها بِلْيَةَ[1] محمَّد وتنتظرني حتَّى أُلْبِسَهَا ثيابَهَا. أرتدي على مهل قميصي وبنطالي؛ لأنِّي متعبٌ جدًّا من إلباسها. انظروا إلى انثناءات بطْنها، بطن بلونِ عسل الصحراء، ويصير أشدَّ دُكْنَةً داخل الانثناءات، انظروا إلىَّ الخطوط الفضّيّة الناعمة كلّ النعومةِ على بَشَرَةِ نهدَيها، وأطرافِ أصابعها ذات الجروح الصغيرة، أصابعِها التي لوَّنَتْ ذاتَ يوم ما رسَمَتْهُ من تلال وأوديةٍ بألوانٍ زرقاءَ أو صفراءَ أو حمراء. وكان لضحكتِها في سالف الأيام رنينُ الذهب، وكنتم ستوافقونني الرأيَ على ذلك لو أنَّكُم رأيتم بريقَ ضحكتِها أو سمعتُم رنينَها. انظروا إليها، انظروا إليها فما أحسبُها إلَّا امرأةً يذوي بهاؤها.

تقول لي: «قضَّيتُ ليلةً من الأحلام المشتَّتَة، أحلام ملأَت عليَّ

---

(1) كرة زجاجية صغيرة يلعب بها الأطفال. جميع هوامش هذه الترجمة من إضافة المترجم.

الحجرة». عيناها مثبّتتان قليلًا إلى يساري. تجيشُ نفسي فأسألها:

«ماذا يعني ذلك؟».

«كانت أحلاما منكسرة، وقد تناثر حطامُها في كلّ مكان. لم أدرِ أفي يقظة كنتُ أم في نوم؟ إذ رأيت مقدارا عظيما من الأحلام، أحلامَ كثيرة مثل سرب نحل في حجرة، وكأنَّ الحجرة ماجت بالنحل. لم أستطع التقاط أنفاسي، فاستيقظتُ وأَجَلتُ فكري في الأمر. أرجوك لا تتركني أشعر بالجوع».

أنظر مضطربا إلى وجهها. لا تزال الملامح غائبة عنه. لا أقول لها إن الأحلام التي تأتيني في النوم ليست سوى أحلام عن القتل، وإني أحلم الحُلم ذاته دائما؛ أنا والرجل لا ثالث لنا، وأنا أمسك مضرب البيسبول ويدي تنزف دما؛ ولا يظهر الرجال الآخرون في الحُلم، الرجل طريح الأرض، والأشجار فوقه، ويقول لي كلمات لا أستطيع سماعها.

«كما يوجد ألمٌ» تقول.

«أين؟».

«وراء عينيَّ. ألمٌ شديدٌ بالفعل».

أنحني أمامها وأنظر داخل عينيها. الفراغ الخاوي فيهما يفزعني. أُخرِج هاتفي المحمول من جيبي، وأشغِّلُ مصباحه وأوجِّهه داخلهما، فيتّسع البُؤبؤان.

«أترين أيَّ شيء؟» أقول لها.

«لا».

«ظلًا أم أثرًا أم لونًا؟».

«لا شيء سوى السواد».

أضع الهاتف المحمول في جيبي وأبتعد عنها.

ما انفكَّت حالتُها تزدادُ سوءًا منذ أن وصلنا إلى هنا. وكأن روحَها تتبخَّر.

«أيمكنكَ أن تأخذني إلى الطبيب؛ فالألمُ لا يُحتمَل».

«بالطبع. سآخذكِ قريبًا».

«متى؟».

«حالما نحصل على الوثائق الرسمية».

سعيدٌ؛ لأن عفراء غيرُ قادرة على رؤية هذا المكان. ومع ذلك، لو قُدِّرَ لها أن ترى لعَشِقَتِ النوارس، وأسلوبَ طيرانِها المجنون. في حلب كنَّا بعيدَين عن البحر. أنا على يقين أنّها تودُّ رؤيةَ هذه النوارس وربّما حتى رؤية الشاطئ؛ لأنّها نَشأت بين أحضان البحر، أمّا أنا، فمِن حلبَ الشرقيّةِ حيث تلتقي المدينةُ الصحراءَ.

عندما تزوَّجنا وجاءت لنعيش معًا، اشتاقت عفراء للبحر اشتياقًا

عظيمًا حتى إنها شرعت ترسم الماء حيثما وجَدَته. فعلى امتداد منطقة الهضبة الجافّة في سوريا، ثمَّة واحاتٌ وجداولُ وأنهارٌ تصبُّ في سبخات وبحيرات صغيرة. وقبل أن يولَد سامي، اعتدنا الترحال وراء الماء، واعتادت رَسمَه بألوان زيتية. ثمَّةَ لوحةٌ رسمَتها لنهر قويق أتمنّى لو أستطيع رؤيتها مرة أخرى. فقد جعلت النهر يبدو مثل سيل تجمَّع من مياه أمطار العواصف وهو يجري عبر متنزَّه المدينة. فلعفراء هذا الأسلوب في رؤية الحقيقة في المناظر الطبيعية. وكم تُذكِّرني تلك اللوحة، بنهرها الشحيح الماء، بالصراع للبقاء على قيد الحياة. فبعد ثلاثين كيلومترًا أو نحوها إلى الجنوب من حلب، يستسلم النهر في معركته في السهول السورية القاسية ويضمحلُّ متحوّلًا إلى سبخات.

أنا خائفٌ من عينيها. ولكن ماذا عن هذه الجدران الرطبة، والأسلاك الممتدَّة في السقف، واللوحات الإعلانية، لستُ على يقين كيف ستتعامل مع كلّ هذه الأشياء لو قُدِّر لها رؤيتُها. إذ سيكفيها فحسب أن ترى اللوحة الإعلانية في الخارج وقد ورَدَ فيها أنّ أعدادنا هنا باتت كبيرةً جدًّا، وهذه الجزيرة ستتفجَّرُ بسبب ضغط تلك الأعداد الهائلة. أنا سعيدٌ لأنَّها كفيفة، فأنا أعرف ماذا يعني ذلك! لو تحقَّقَ مرادي في أن أعطيَها مفتاحًا يفتح بابًا يفضي إلى عالم آخر، لتمنَّيتُ عندئذ لها أن تستطيع الرؤيةَ مرَّة أخرى؛ شريطةَ أن يكون عالمًا مختلفًا اختلافًا كبيرًا عن هذا العالم. مكانٌ أشرقت فيه الشمس قبيل لحظات، وهي تلامس بخيوط أشعّتها الأسوار المحيطة بالمدينة العتيقة، أمَّا خارج تلك الأسوار، فأشعّة الشمس تعانق الأحياء التي تشبه خلايا النحل والمنازل والشقق والفنادق والحارات الضيِّقة والسوق

المفتوحة التي تلتَمِعُ فيها ألوف القلائد المعلَّقَة إذ تعانقها طلائع أشعة الشمس، ومن ثَمَّ يمتدُّ ضوء الشمس بعيدًا، مارًّا بالأراضي الصحراوية، شعاعًا ذهبيًا إثر آخر، بريقًا أحمرَ إثر آخر.

سيكون سامي حاضرًا في المشهد، باسمًا وراكضًا في تلك الحارات بحذائه الرياضي الذي أبلاه الاستعمال، وفَكَّةُ النقود في يده، وهو في طريقه إلى الدكَّان ليشتريَ الحليب. أحاول أن أطرد سامي من وِرْدِ أفكاري. ولكن ماذا عن محمَّد؟ فأنا لا أزال أنتظرُه حتى يعثر على الرسالة والمال اللذَين تركتُهما له تحت برطمان النوتيلا. وأظنّ أنّي ذا صباح سأسمع صوتَ طرق على الباب، وما إن أفتحه إلَّا وأجده واقفًا هناك وسأقول له: «ولكن كيف قطَعتَ كلَّ هذه المسافة إلى هنا يا محمَّد؟ كيف اهتديتَ السبيلَ إلى مكاننا؟».

رأيتُ البارحة صبيًا وقد انعكَسَت صورتُه في المرآة وقد غشَّاها البخارُ في الحمَّام المشترك. كان يرتدي قميصًا أسودَ، ولكن عندما التفتُّ ورائي رأيتُ المغربيَّ، جالسًا على كرسيّ المرحاض يتبوَّل. فقال بلهجته المغربية: «خاصك تسدُّ الباب[1]».

لا أستطيع تذكُّر اسمه، ولكنّي أعرف أنّه من قرية تقع قرب تازة، أسفل جبال الريف. لقد قال لي الليلة الفائتة إنَّهم قد يرسلونه إلى مركز الإبعاد في مكان يُقَالُ له يارلز وُدْ[2] -تظنُّ اختصاصية الرعاية

---

(1) «عليكَ أن تغلقَ البابَ». أتوجّه بالشكر هنا إلى الأديب والمترجم المغربيّ سعيد بنعبد الواحد لمساعدته في ضبط اللّهجة المغربية.

(2) مركز يارلز وُدْ لترحيل المهاجرين، وهو واحدٌ من عشرة مراكز في بريطانيا يُحْتَجَزُ فيها المهاجرون الأجانب قبيل ترحيلهم إلى الخارج.

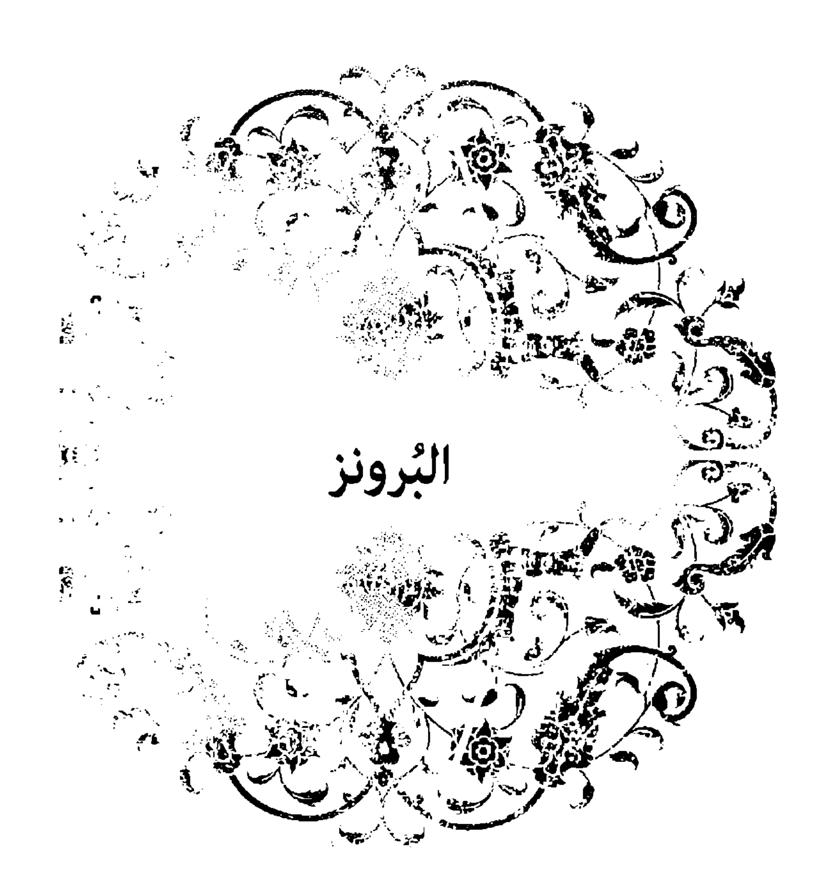
الاجتماعية أنّ هناك فرصةً لأن يلقى هذا المصير. يحين دوري للقائها ظهر اليوم. يقول المغربي إنّها جميلة جدًّا، وإنَّها تبدو مثل راقصة باريسية كان قد ضاجعها ذات مرة في فندق في الرباط، قبل مدة طويلة من ارتباطه بزوجته. سألَنِي عن الحياة في سوريا، فحكيتُ له عن خلايا النحل التي كنتُ أملكُها في حَلَب.

في الأماسي تُحْضِرُ لنا صاحبةُ المنزل الشاي بالحليب. المغربيُّ طاعنٌ في السنِّ، ربّما بلغ الثمانين أو حتّى التسعين. هيئتُه ورائحتُه توحيان وكأنَّه مجبُولٌ من الجِلْد. تراه منهمكًا في قراءة كتاب كيفَ تصيرُ بريطانيًّا، ويبتسمُ أحيانًا ابتسامةً متكلِّفة بينه وبين نفسِه. ها هو يضع هاتفه المحمول في حِضنه، ويتوقَّفُ عند نهاية كلّ صفحة ليلقيَ عليه نظرة خاطفة، ولكن ما من أحد يتَّصل به البتة. فلا أعلم مَنْ ينتظر ولا أعرف كيف وصل إلى هنا ولا أعرف لماذا أقدَم على هذه الرحلة في مرحلة متأخِّرة جدًّا من حياته، لأنَّه يبدو مثل رجل ينتظر يوم موته. زد على ذلك أنَّه يكره الطريقة التي يتبوَّل فيها الرجال غير المسلمين وهُم واقفون.

ثمَّة حوالي عشرة منَّا في هذا المكان؛ وهو منزل إيواء مؤقَّت متهالك مُحاذٍ للبحر، وكلّنا من بلاد مختلفة، وكلّنا ننتظر. ربَّمَا يُبقونَنا هنا، وربّما يُبعدُوننا عن هذي البلاد، ولكن لم يعُد هناك الكثيرُ من القرارات لأتّخذَها بعد الآن. ما من قرارات تتعلّق بأيّ طريق أسلكها، وبمن أثق، وإذا ما كنت سأرفع مضرِب البيسبول مرة أخرى وأقتل به إنسانًا. فكلُّ هذه الذكريات صارت مِن الماضي. وسوف تتبخَّر قريبًا، مثلما اضمحَلَّ النهر.

أسحب عباءة عفراء من العَلَّاقَة التي في الخزانة. تسمع ذلك فتقف رافعة ذراعيها. تبدو أكبر سنًّا الآن، ولكنّها تتصرَّف وكأنّها في سنّ أصغرَ، وكأنها تحوَّلَت إلى طفلة. صار لشَعرها لونُ الرَّمل وملمسُه منذ أن صبغنَاه بغية التقاط الصور، وقد زالت ملَامحُه العربية. أربطُه على شكل عقصة وراء رأسِها وألفُّ حجابَها حول رأسِها، وأثبِّتُه بدبابيس الشَّعر بينما تُسَيِّر هي أصابعي مثلما تفعل دائمًا.

ستصل اختصاصية الرعاية الاجتماعية إلى هنا في الواحدة ظهرًا، وتُعْقَدُ كلُّ اللقاءات معها في المطبخ. تريد أن تعرف كيف وصلنا إلى هنا وسوف تبحث عن سبب لترحيلنا. بَيدَ أنّي أعرف أنّه إذا أقررت لها بالوقائع الصحيحة، وإذا أقنعتُها بأنّي لست قاتلًا، فعندها سننجح في البقاء هنا لأنّنا محظوظون، لأنّنا جئنا من أسوأ مكان في العالم. المغربيُّ ليس بمحظوظ جدًّا؛ فعليه أن يقدِّم إثباتات أكثر. ها هو يجلس الآن في غرفة الجلوس قرب الأبواب الزجاجية، ممسكًا بيديه كلتيهما ساعةَ جيب برونزية، وهو يحتضنها على راحتَيه مثلما تحضن دجاجةٌ بيضَها الموشكَ على التفقيس. يُحملق فيها منتظرًا. لِمَ يفعل ذلك يا تُرَى؟ عندما يراني واقفًا هنا يقول: «إنَّها لا تعمل كما تعلم. فقد توقَّفَت في زمان مختلف». ثم يرفعها صوبَ الضوء ممسكًا بها من سلسلتها ويؤرجحها برفق، يؤرجح هذه الساعة الواقفة عقاربُها، المصنوعة من



البُرونز

ومَا البُرونزيُّ سوى لونِ المدينة الواقعة بعيدًا في الأسفل. عشنا في بيت ذي طابق واحد فيه غرفتان يقع على رابية. ومن هذا المكان المرتفع جدًّا أمكنَنَا رؤية كلّ المباني غير المنتظمة والقباب والمآذن الجميلة، وبعيدًا على مدّ النظر هي ذي القلعة تطلُّ في المشهد.

كم كان الجلوس على الشرفة في الربيع مبهجًا؛ إذ كان بإمكاننا أن نشمَّ رائحةَ ترابِ الصحراءِ ونَرَى الشمسَ الحمراءَ غاربةً فوق الأرض. ومع ذلكَ، كنّا نجلسُ في الصيف في الداخلِ والمِروحة تدورُ ونحنُ نلفُّ على رؤوسنا مناشفَ رطبة، وأقدامُنا في طست من ماء بارد لأنّ الحرارة تصير مثل حرارة فرن.

في يوليو يشتدُّ ظمأُ الأرض، ولكنَّ حديقتَنا فيها أشجارُ مشمش ولوز وزهور توليب وسوسن وحشيشة الحجل. عندما يجفّ النهر، كنت أنزل إلى بركة الريّ لجلب الماء لأسقيَ بها الحديقة حتى أبقيَها حيَّة نضرَة. وبحلولِ أغسطس يبدو الأمر مثل محاولة بعث الحياة في جثّة هامدة، لذا أُراقبها تذبل كلُّها وتتّحد مع بقيّة تراب الأرض. وعندما يصير الجوّ أبرد كنّا نتمشّى ونراقب الصقور تحلّق في السماء صوب الصحراء.

كان عندي أربع خلايا نحل في الحديقة، تتوضّع أحدُها فوقَ الآخر، ولكن بقية الخلايا كانت في حقل يقع على مشارف حلب الشرقيَة. كم كرهت أن أكون بعيدًا عن النحل! ولذا اعتدت الاستيقاظ مبكرًا صباح كلّ يوم، قبل طلوع الشمس، قبل أن ينادي المؤذّن إلى

الصلاة. كنت أسوقُ سيارتي مسافة الثلاثين ميلا إلى المناحل وأصل لحظة طلوع الشمس، الحقول مليئة بالضوء، وطنينُ النحل مقطوعةٌ موسيقيةٌ صافيةٌ لا يخالطها صوتٌ آخر.

ما النحل سوى مجتمع مثالي؛ فردوسٌ صغير وسط الفوضى الصاخبة. قطَعَت النحلات العاملات المسافات طولا وعرضا بحثا عن الطعام، مفضِّلة أن تختار من الحقول أبعدها. وجَمَعَتِ الرَّحيق من نُوَّار الليمون وزهور البرسيم وبذور الحبَّة السوداء واليانسون، والأوكالَبتوس، والقطن، والشَّوك والخَلَنْج. لقد أوليتُ النحلَ رعايتي، وأطعمتُه، وراقبتُ أحوال الخلايا تحسُّبًا من انتشار عدوى الأمراض أو تدهور أحوالها الصحية. كنتُ أنشئ أحيانًا خلايا جديدة، وأقسِّم المستعمرات أو أربِّي الملكات -حيث كنتُ آخذ اليرقات من خلية أخرى وأراقب النحلات المربِّيات وهي تطعمُها صريف الغذاء الملكيّ.

لاحقًا، أثناء موسم جني العسل، كنت أتفحَّص الخلايا لأرى مقدار العسل الذي أنتجه النحل، ومن ثم، أضع الإطارات الشمعية المملوءة بالعسل في خلايا التعبئة ثم أملأ فرَّاز العسل بها، كاشطًا البقايا حتى أجمع السائل الذهبي الذي تحتها. كان عملي يتمثَّل في حماية النحل، والمحافظة عليه موفور الصحة والعافية، بينما ينجز هو مهمّته المتمثِّلة في إنتاج العسل وتلقيح نباتات الأرض حتى نحافظ على ديمومة حياتنا فيها.

مصطفى، ابن خالتي، هو مَن عرَّفَني بالنِّحَالة. فقد كان أبوه وجدُّه

نحَّالَين في الأودية الخضراء، غربي سلسلة جبال لبنان الشرقيَّة. كان مصطفَى عبقريّا ويمتاز بروح الفتوة. إذ درس حتى صار أستاذًا في جامعة دمشق، وهو يُجري بحوثًا عن تركيبة العسل الدقيقة. ولأنّه اضطرَّ للسفر ما بين دمشق وحلب، فقد طلب منِّي أن أشرف على المناحل، وعلَّمَني كثيرَ علم عن سلوك النحل وكيفية السيطرة عليه. فالنحل البلدي عدواني بسبب الحرارة، ولكنه عرَّفني كيف أتفهَّم سلوكه ذاك.

عندما كانت الجامعة تغلق أبوابَها في أشهُر الصَّيف، كان مصطفى ينضمُّ إليَّ طوال الوقت في حلب، فنعمل معًا بأقصى طاقتنا، ساعات طويلة جدًّا، في النهاية، صرنا نفكِّر مثل النحل، لا بل حتى إننا صرنا نأكل مثل النحل! فقد اعتدنا أكل غبار الطلع ممزوجًا بالعسل ليقيم أودنا حتّى نتحمَّل العمل في الحرارة.

في بدايات التحاقي بالعمل، عندما كنتُ في العشرينيات وما زلتُ غير متمرِّس في النِّحَالة، كانت خلايانا مصنوعة من موادَّ نباتية مكسوّة بالطين. وفيما بعد استبدلنا بخلايا جذوع أشجار الفلّين والطين المحروق صناديقَ خشبية، وسرعانَ ما صارَ عندنا أكثر من خمسمئة خليَّة! وأنتجنا منها ما لا يقلُّ عن عشرة أطنان من العسل في السنة. كان هناك أعداد هائلة من النحل، وجعلني ذلك أحسُّ بانبعاث الحياة في عروقي، وعندما أكون بعيدًا عنها كان الأمر يشبه حفلة رائعة وقد انتهت. بعد سنوات من ذلك، افتتح مصطفى محلًّا في الحيّ الجديد من المدينة. وبالإضافة إلى العسل، باع فيه موادّ تجميل قوامُها العسل، وكريمات وصابونًا يمتازُ بالعذوبة والرائحة الحُلوة،

ومنتجات الشَّعر المصنَّعة من نحلنا مباشرة. لقد أسَّس هذا المحلّ لابنته. فمع أنّها كانت لا تزال في نعومة أظفارها آنذاك فقد ساورها الظنُّ بأنَّها ستكبر لتدرُس الهندسة الزراعية، تمامًا مثل أبيها. ولذلك فقد أطلق مصطفى على المحلّ اسم فردوس آية ووعدها أنّه ذات يوم، إنْ هي لزمت الجدَّ في الدرس، فسيصيرُ المحلُّ ملكَها. كانت تحبّ أن تأتيَ وتشمّ الصابون وتدهن يدَيها بالكريمات. كانت فتاة ذكية قياسًا لعمرها، وأتذكَّر جملتها التي قالتها ذات يوم: «لو خلا العالم من بني البشر، فإنَّ الرائحة التي ستفوح منه ما هي سوى رائحة مماثلة لرائحة هذا المحلّ».

لم يُرِدْ مصطفى حياة هادئة. فقد سعى دومًا إلى فعل المزيد وتعلُّم الجديد، ولم أرَ هذه الخصلة في أيّ إنسان آخر. بصرف النظر عن ازدياد حجم تجارتنا -حتَّى عندما صار عندنا زبائنُ كبارٌ من أوربّا وآسيا والخليج- كنتُ أنا من يعتني بالنحل، فأنا الشخص الذي ائتمنه على ذلك. فقد قال لي إنّي أتميَّز بحساسية يفتقدُها معظم البشر، وإنّي أفهمُ أنغامَ النحل وأنواعه، وقد أصاب في ذلك. لقد تعلَّمت كيف أصغي بحقّ إلى النحل وأن أتكلّم معه كما لو كان إنسانًا يتنفّس وله قلبٌ ينبض؛ لأنَّ النحل، كما تعلمون، يعمل معًا. وحتى عندما تقتل النحلاتُ العاملات الذكورَ حفاظًا على موارد الغذاء في نهاية الصَّيف، تواصل عملَها ككيان واحد، وتتواصل كلّ نحلة مع الأخرى عن طريق الرقص. استغرق منّي الأمر سنوات حتى فهمتُ النحل، وحالما فعلتُ ذلك، بدا العالم حولي مكتسيًا صورة مختلفةً عمّا كان سابقًا. ولكن، ومع مرور السنين، اتَّسعت الصحراء ببطء، وصار الطقس

أشدَّ قسوة، وازداد جفاف الأنهار، وذاق المزارعون الويلات عساهم يصمدون في وجه القحط؛ القحط الذي لم يقاومه سوى النحل، «أُنظُر إلى هؤلاء المحاربين الصِّغار» تقول عفراء في الأيام التي تأتي فيها لزيارة المناحل ومعها سامي، كتلة ضئيلة ملفوفة بين ذراعيها، ثم تضيف: «أُنْظُر إلى النحلات لا تزال تعمل، في الوقت الذي يموت فيه كلّ شيء!». تدعو عفراء الله دائما أن يهطل المطر؛ لأنّها تخاف العواصف الغبارية وموجات القحط. وعندما تهبّ عاصفةٌ غباريةٌ كنّا نرى، من على شرفتنا، السماء فوق المدينة وقد اكتست لونا أرجوانيّا، ويعقب ذلك صفيرٌ مجلجلٌ في عَنان السماء، فتجري عفراء في أرجاء المنزل لتغلق الأبواب كافّة، وتوصدَ كلَّ النوافذ درفةً درفة.

* * *

اعتدنا الذهاب كلَّ سبت إلى منزل مصطفى لتناول العشاء. كان مصطفى وذَهَبْ يطبخان معًا، حيث يقيس مصطفى مقادير محتويات الطعام مقدارًا مقدارًا، وكلّ نوع من أنواع التوابل، بدقّة كبيرة مستخدمًا ميزان، وكأنَّ خطأ صغيرًا منً شأنه أن يُذْهِبَ مذاقَ الوجبة برمّتها. ذَهَبْ امرأةٌ طويلةٌ، تكادُ تقارب في طولها طول زوجها، واعتادت الوقوفَ بجانبه وهزَّ رأسها، مثلما رأيتُها تفعل مع فراس وآية وهي تقول: «أسرع! أسرع! إذا عملنا على هذه الوتيرة فسنتناول وجبة هذا السبت يوم السبت القادم». يهَمْهَمَ وهو يطبخ، ويتوقَّفَ كلَّ عشرين دقيقة أو نحوها لكي يدخِّن، واقفًا في الفناء تحت الشجرة المُزْهِرَة وهو يقبضُ بشفتَيه على عقب سيجارته ويسحب الدخان ثم ينفثه.

اعتدتُ مشاركته التدخين، ولكنّه كان هادئًا في مثل هذه الأوقات، عيناه تتلألآن من حرارة المطبخ، سارحًا بأفكاره في عالم آخر. بدأ مصطفى يخشى وقوع أسوأ ما يخطر في بال المرء قبل أن يسّاورني أنا ذلك الشعور، ورأيتُ القلق متغلغلًا في قسَمَات وجهه.

كانوا يسكنون في الطابق الأرضي في مبنًى مكوَّنٍ من شقق، وكان الفناء محاطًا من ثلاث جهات بجدران المباني المجاورة، ولذا فقد كان دائمًا باردًا ومليئًا بالظلال. تهادت الأصوات من الشرفات في الأعلى نازلة نحونا -جُذاذات من الأحاديث، والموسيقى، والهمهمة الخافتة الصادرة عن أجهزة التلفاز. ثمَّةَ عرائشُ عنب في الفناء، محمَّلة بعناقيد العنب، وتعريشةٌ من ياسمين تكسو أحد الجدران، وعلى جدار آخر رف من الجِرار الفارغة وشرائحُ من قرص العسل.

كما شغلت طاولةٌ معدنية معظم مساحة الفناء، وقد وُضِعَتْ بالضبط تحت شجرة ليمون، ولكن كان هناك معالف طيور منتشرة على حوافّ الجدران ومسكبة خضار صغيرة في مساحةٍ مربَّعة من التربة، حيث حاول مصطفى زراعة الأعشاب، وقد ذبلت في معظمها بسبب عدم وجود ما يكفي من ضوء الشمس. راقبتُ ابن خالتي وهو يضغط على إحدى زهور الليمون بين إبهامه وسبّابته فتنسَّمْتُ عبيرَها.

في تلك الأوقات، أثناء هدأة مساء السبت، بدأ يطيل أمد التفكير في مجريات الأمور، يتأمَّل؛ وما كان لفكره أن ينعم بالراحة البتة، ولم يهنأ له بال قطّ. «هل سبَقَ لك وأن تخيَّلتَ ماذا يعني أن تعيش حياة مختلفة؟» سألَنِي ذات ليلة من تلك الليالي.

«ماذا تعني؟».

«يخيفني أحيانًا التفكير في إمكانية أن تسير الحياة في هذا الاتجاه أو ذاك. ماذا لو كنتُ أعملُ في وظيفة في أحد المكاتب؟ ماذا لو أصغيتَ لأبيك وانتهى بكَ المطاف بائعًا في محل القماش الذي يملكه؟ إننا نرفل في بحر نعم ينبغي لنا شكر الله على العيش في ظلِّها».

لم أرُد على مقالته. فبينما كان يمكن لحياتي أن تنحو بسهولة منحى مختلفًا، لم يكن هناك من فرصة لاحتمالية أن ينتهي الأمر بمصطفى موظّفًا في عمل مكتبي. لا، لقد جاءت أفكاره السوداء من مكان آخر، وكأنَّه أصبح سلفًا خائفًا من خسارة كلّ شيء، وكأنَّ صدًى آتيًا من المستقبل كان يصله ويهمس في أذنه.

وممَّا زاد من قلق مصطفى أنَّ ابنَه فراس ما كان ليبارح مجلسه البتة من أمام شاشة الحاسوب ليساعد في إعداد الوجبة. اعتاد مصطفى أن يناديَه وهو عائدٌ إلى المطبخ: «يا فراس! انهض قبل أن تلتصق مؤخِّرَتك بذلك الكرسي!» ولكنَّ فراس كان يبقى جالسًا على الكرسي الخيزراني في غرفة الجلوس، مرتديًا قميصه وسرواله القصير. كان صبيًّا ممشوط[1] القامة في الثانية عشرة من عمره ذا وجه بيضويّ وشعر كثيف بصورة خفيفة، وعندما يبتسم، في تحدٍّ لأبيه، كان يشبه للحظة كلب صيد سلوقي، من ذلك الصنف الذي يصادفه المرء في الصحراء.

أمّا آية، التي تكبر أخاها بسنة واحدة فقط، فكانت تمسك يدَ سامي

(1) نحيف القامة طويلُها.

وتُجهِّز المائدة؛ كان سامي حينئذ في الثالثة ويهرول في مشيته مثل طفلٍ منهمكٍ في شغفه بالأشياء، وكانت تعطيه صحنًا أو كوبًا فارغين يمسك أحدهما حتى يشعر بأنه يساعدها. لآية شعرٌ ذهبيٌّ طويلٌ، كشعر أمّها، وكان سامي يسحب خُصلات شعرها كلَّمَا انحنت ويقهقه إذ تعود خصلات شعرها مرتدة من يديه. لذا، كنَّا نشارك جميعًا في العمل، حتَّى فراس -إذ إنَّ أباه يجره عن كرسيه بذراعه الهزيلة- ومن ثم نحمل الأطباق التي ينبعث منها البخار والسَّلَطَاتِ الزاهية الألوان والمَرَقَ والخبز إلى المائدة في الفناء. وكنّا نأكل أحيانًا شوربة العدس الأحمر المخلوط بالبطاطا الحلوة مع الكمُّون، أو الكواج مع لحم العجل والكوسا، أو قلوب الأرضي شوكي المحشوة أو يخنة الفاصولياء الخضراء، أو التبُّولة، أو السبانخ بالصنوبر والرمَّان. أمّا بعد ذلك، فكنّا نتناول البقلاوة المشرَّبة بالعسل والعوَّامة المغموسة في القَطْر أو مربَّى المشمش من البرطمانات التي حضَّرَتْهَا عفراء. فراسٌ مشغول بهاتفه المحمول فيخطفه مصطفى من بين يديه ويضعه في أحد برطمانات العسل الفارغة، ولكنَّه ما كان ليغضب البتة بصورة فعلية من ابنه -فثمَّة بالتأكيد مزاح بينهما، حتى عندما يكون أحدهما في حرب مع الآخر. ومن ثم يقول فراس:

«ومتى سأستعيده؟».

«عندما يتساقط الثلج في الصحراء».

وما إن يَحِن موعد وضع القهوة على الطاولة، إلَّا ويكون الهاتف قد أُخْرِجَ من برطمان العسل وعاد إلى يدي فراس. «في المرة القادمة،

يا فراس، لن أضعه في برطمان عسل فارغ!».

طالما أنَّ مصطفى يطبخ أو يأكل فقد كان سعيدًا. أمّا بعد ذلك، وبعد أن تغيب الشمس ويحيط بنا شذى ياسمين الليل، وخصوصًا عندما يكون الهواء ساكنا وكَدِرا، فإنّ الوجوم يكتنف وجهَه فأعرف أنّ أمرا يشغل باله، وأن سكون الليل وعتمته قد جاءا مرَّة أخرى حاملين معهما الهمسات آتية من المستقبل.

«ما الأمر يا مصطفى؟» قلتُ له ذات مساء عندما كانت ذَهَبْ وعفراء تملآن غسّالة الصحون بعد العشاء، وضحكةُ ذَهَبِ المدوية تفزع الطيورَ منطلقة إلى الأعلى عابرة المباني ومنها إلى سماء الليل. «لا تبدو على طبيعتك مؤخّرًا». فقال:

«إنَّ الأحوالَ السياسية تزداد سوءًا». أعرف أنّه على صواب، مع أنَّ أيًّا منَّا لم يُرِدْ بالفعل أن يتحدَّث في المسألة. أطفأ سيجارته ومسح عينيه بظاهر يدِه وقال:

«ستسوءُ الأحوال. وكلّنا نعرف ذلك، أليس كذلك؟ ولكنّنا نحاول أن نواصل حياتنا مثلما كنّا من قبل». التقم حبَّة عوَّامة في فمه وكأنَّه يبرهن على وجهة نظره. كنَّا في أواخر يونيو، وفي مارس من تلك السنة كانت الحرب الأهلية قد بدأت للتوّ مع اندلاع احتجاجات في دمشق، ما تسبَّب في إحداث الاضطراب وتأجيج العنف في سوريا. كان ينبغي لي أن أنظر إلى هذه النقطة، وربّما رأى القلق مرتسمًا على وجهي؛ لأنني عندما رفعتُ بصري ناظرًا إليه نظرةً خاطفة مرَّة أخرى، ألفيتُه متبسمًا فقلتُ له:

«عندي فكرة، ما رأيكَ في أن نستكشفَ مزيدًا من الوصفات لآية؟ فعندي بعض الأفكار. ما رأيكَ بعسل الأوكالپتوس مع الخزامى!».
لمَعَتْ عيناه إذ بدأ يمعن التفكير في إنتاج هذا الصنف الجديد من الصابون، ونادى على آية لتأتي بحاسوبها المحمول إلى الفناء حتّى يتسنّى لهما معًا ابتكار التركيب الدقيق. وعلى أنّ آية كانت في الرابعة عشرة من عمرها حينئذ، فقد عقد مصطفى العزمَ على أن يكون معلّمها. كانت آية منهمكة في ملاعبة سامي -فكم كان يحبّها حبًّا كبيرًا! ويستميتُ دائمًا ليبقى قريبًا منها، ودائمًا ما يتحرَّى مكان وجودها بعينيه الرماديّتين الكبيرتين، عينين بلونِ عينيّ أمِّه. لون الحجر. أو لون عيني طفل مولود حديثًا قبل تغيُّره إلى البُنيّ، مع فَرق وحيد وهو أنَّ لون عينيه لم يتغيّر، وكذلك لم يتحوّل إلى لون أكثر زرقة. اعتاد سامي اللحاق بآية، وهو يشدّ تنوّرتها، وكانت هي ترفعه، ترفعه عاليًا بين ذراعيها، لكي تريه الطيور داخل المعالف، أو الحشرات والسحالي التي تزحف فوق الجدران أوعبر الفناء الأسمنتي.

مع كلّ وصفة، كان مصطفى وآية ينظران في مسألة الأصباغ والأحماض والمعادن الداخلة في كلّ نوع من أنواع العسل، لكي يبتكرا خليطًا ذا فعالية مذهلة، كما يقول مصطفى. ومن ثمَّ كانا يحسبان كثافة السكر، ونعومة حُبَيْبَاته، وميله إلى امتصاص الرطوبة من الهواء، ومقاومته للتَّلَف. كنت أقدِّم الاقتراحاتِ، وكانا يقبلانها بابتسامات لطيفة، ولكنّ عقل مصطفى هو الذي كان يعمل مثل النحل. فهو صاحب الأفكار ونبع الذكاء، بينما كنتُ أنا الشخص الذي حوَّلَهَا إلى حقيقة واقعة.

كنّا لا نزال نرفل في أثواب السعادة مدَّة لا بأس بها في تلك الليالي، صحبةَ حلويات المشمش وشَذَى ياسمين الليل، وفراسٌ جالسٌ إلى حاسوبه وآية جالسةٌ بجانبنا وسامي بين ذراعيها وهو يعلك شعرها، وضحكات عفراء وذَهَبْ تصلنا من المطبخ. كانت الحياةُ قريبةً بما يكفي من الحياة الطبيعية حتّى ننسى شكوكنا، أو نبقيها على الأقل حبيسةً في مكان ما في التلافيف المظلمة في عقولنا ونحن نعدُّ العدَّة استعدادًا للمستقبل.

مع انطلاق شرارة الأحداث، غادَرَت ذَهَبْ وآية، إذ أقنعهما مصطفى بالذهاب دونه. وحيث إنّ مخاوفه بدأت تجد ما يؤكِّدُها، فقد وضع خططًا بسرعة كبيرة جدًّا، ولكنّه كان بحاجة إلى البقاء مدَّة أطول بقليل حتّى ينظر في أمر النحل. في ذلك الوقت حسبته مستعجلًا جدًّا، وأنَّ وفاة أمّه عندما كان طفلًا -وهي الحادثة التي سكنته منذ عَرَفْتُه- قد جعلته نوعًا ما شديد الحمائية على النساء اللاتي في حياته، وكنتيجة لذلك كانت ذَهَبْ وآية من أوائل من غادَر الحيَّ وتجنَّبَتا، لحُسن الحظّ، ما حَدَث لاحقًا. فلمصطفى صديقٌ في إنجلترا، وهو بروفسور في علم الاجتماع كان قد انتقل إلى هناك قبل بضع سنوات بدافع العمل، وكان هذا الرجل قد اتصل بمصطفى وحثَّه على التوجُّه إلى المملكة المتحدة؛ إذ كان مقتنعًا بأنَّ الوضع سيزدادُ سوءًا. زوَّد مصطفى زوجَتَه وابنَتَه بما يكفيهما من مال ليعينهما أثناء رحلتهما، بينما بقي في سوريا مع فراس.

«لا أستطيع أن أترك النحل يا نوري» قال ذات ليلة، ويدُه الضخمة تلوحُ نازلةً فوق رأسه ولحيتِه، وكأنّه يمسح ملامح الغُمَّة التي باتت

ترتسم على وجهه دائمًا الآن. ثم أضاف: «فالنحلُ بمنزلة عائلتنا».

وقبل أن تسوءَ الأحوال بصورة فعليّة، اعتاد مصطفى وفراس مشاركتنا العشاء في المساء فنجلس على الشرفة معًا وننظر إلى المدينة في الأسفل ونسمَع دويَّ قنبلة بعيدة، ونرى الدخان يصَّاعَدُ إلى السماء. فيما بعد، ونظرًا لأن الوضع ازداد سوءًا، بدأنا نبحث مسألة المغادرة معًا. كنّا نتجمَّع حول مِصْبَاحِيَ الـ ضاء في مطلع ظلمة المساء ونحن نتابع إصبعه وهو يشير به إلى خطّ الرحلة التي قامت بها ذَهَب وآية. وقد كانت رحلةً سهلة. لقد احتفظ مصطفى بأسماء كثير من المُهرِّبين وأرقامهم في محفظة جلديّة سميكة. ثمَّ مضينا نراجع دفاترَنا المحاسبية، مستطلعين الأحوال المالية، ونحن نحسبُ الكُلْفَة الممكنة لمغادرتنا هذه البلاد. بالطبع كان من الصعب تقدير ذلك، فالمهرِّبون يغيِّرون أسعارَهم حسب أهوائِهم، ولكنّنا وضعنا خُطّة، فمصطفى شغوفٌ بالخطط والقوائم وجداول رحلات السفر.

فتلك الخطط وما إليها جعَلَتْهُ يشعُر بالأمان. ولكنّي عرفت أنّه كلامٌ في كلام؛ فلم يستعد مصطفى لترك نحله.

ذات ليلة، في أواخر الصَّيف، دمَّر المخرِّبون خلايا النحل؛ إذ أضرَموا فيها النار، ولم نصل إلى المناحلِ في الصباح إلَّا وكانت النيران قد أتت عليها وتفحَّمَت. مات النحلُ واسودَّ الحقلُ. لن أنسى الصَّمتَ ما حييت، ذلك الصَّمت المُطْبق، الصمت الذي لا نهاية له. فبغياب أسراب النحل وهي تحلِّق فوقَ الحقل، لم يبقَ أمام ناظرينا سوى السكون؛ سكونِ الضوء والسماء. في تلك اللحظة، وبينما كنتُ

واقفًا عند طرف الحقل حيث كانت الشمس تنحدر عبر خلايا النحل المدمَّرَة، خالَجَنِي شعورٌ بالخواء، بعدمية صامتة دخلت جسدي مع كلّ نفس شهقته. جلس مصطفى على الأرض وسط الحقل شابكًا ساقَيه ومغمِضًا عينيه. أما أنا فتمشَّيْتُ في أرجاء الحقل أتفحَّصُ التراب عساني أجد نحلًا على قيد الحياة ودُسْتُ عليه لأنّه صارَ بلا مستعمرة تحميه أو خلية تؤويه. تحطَّمَت معظم الخلايا بصورة كلّية، ولكنّ بضعًا منها انتصبَ مثل هياكل عظمية ولا تزال أرقامها ظاهرة عليها: اثنا عشر، واحد وعشرون، مئة وواحد وعشرون -خلايا النحلات الجدَّات، والأمهات، والأبناء. وقد عرفتُ ذلك لأنّي كنتُ قد قسَّمْتُ الخلايا بنفسي. ثلاثة أجيال من النحل. ولكنّها صارت كلُّها هباءً منثورًا الآن. ذهبْتُ إلى البيت ونوَّمْتُ سامي في سريره، ومكثْتُ برهة بجانبه وهو نائم، ومن ثم ذهبتُ إلى الشرفة وتأمَّلتُ السماء القاتمة والمدينة الواجمة في الأسفل.

أسفل الرابية نهرُ قويق. في آخر مرة رأيت فيها النهر كان مليئًا بالقمامة، وفي الشتاء سحبوا منه جثث الرجال والصبية. أياديهم مقيدة، ومواضع الرصاص في رؤوسهم. في ذلك اليوم الشتَويّ في بستان القصر، الواقع ضمن الأحياء الجنوبية، رأيتُهُم يسحبون الجثث من النهر. فما كان منّي إلّا وتَبِعْتُهُم إلى مدرسة قديمة، حيث وُضِعَتِ الجثث في باحتها. خيَّمت العَتمة داخل المدرسة وأُشْعِلَتِ الشموع ووُضِعَت في سطل من الرمل، وجثت امرأةٌ متوسطةَ العمر على الأرض بجانب سطل آخرَ مملوء بالماء. قالت إنّها ستنظِّفُ وجوه الموتى بحيثُ يتسنَّى للنساء اللاتي يخصونهم حبًّا أن يتعرّفوا عليهم

عندما يأتين للبحث عنهم. لو كنتُ أحد الرِّجال الميّتين في النهر، لتسلَّقَتْ عفراء جبلًا حتّى تعثرَ عليّ، ولسبحَت إلى قاع النهر، ولكنّ ذلك كان سيحصل قبل أن يتسبّبُوا لها بفقدان بصرها.

كانت عفراء امرأةً مختلفةً قبل الحرب، إذ اعتادت على إحداث الفوضى طوال الوقت. فعندما كانت تخبز، على سبيل المثال، ينتشر الطحين في كلّ مكان، حتَّى على سامي الذي يغطّيه الطحين، وعندما ترسم، تُحْدِثُ فوضى. وإذا ما رسم سامي أيضًا، فقد زاد ذلك الطين بلّة، وكأنَّهُما نثرا محتوى فرشاتين مملوءتين بالدهان في الغرفة. حتّى عَندما تتحدَّث كان حديثها فوضويًّا، وهي تلقي بالكلام على عواهنه هنا وهناك، ومن ثم لا تلبث أن تتراجع عمّا قالته، وتتفوَّه عوضًا عنه بكلمات جديدة. بل حتّى إنّها كانت تقاطع نفسها أحيانًا. وعندما تضحك، كانت تضحك بصخب يكاد يزلزل المنزل.

ولكن إذا ما اعتراها حزنٌ، تَسْوَدُّ دنياي. إذ لا خيار بيدي إزاء هذا. فهي أشدُّ منِّي قوة. وبكاؤها مثلُ بكاء طفلة، وضحكتها مثل رنين الأجراس، وابتسامتها أجمل ابتسامة رأيتها في حياتي. كان بإمكانها الحجاج ساعات حتّى دون أن تتوقَّف أبدًا. كانت عفراء تحبُّ، وتكرهُ، واستقبلت عبَقَ العالَم كمن يشمُّ وردةً. كلُّ هذا ما جعلني أحبُّها أكثرَ من حبّي للحياة.

ما ترسُمُه من فنّ يأسر القلب والجنان، وفازت بجوائز على لوحاتها التي رسَمَت فيها مدن سوريا وقراها. في أصباح أيام الأحد كنّا نذهب ثلاثتنا إلى السوق وننصبُ كشكًا صغيرًا، مقابل كشك

حامد بالضبط، حامد الذي يبيع التوابل والشاي. الكشك في الجزء المسقوف من السوق. المكان مظلمٌ ونتنُ الرائحة قليلًا ولكنّك تستطيع أن تشمَّ روائح الهيل، والقرفة، واليانسون وأنواعًا أخرى لا تعدُّ ولا تُحْصَى من التوابل. حتى في ذلك الضوء الخافت، لم تكن المناظر الطبيعية في لوحاتها صامتة، بل بَدَت وكأنّ الحركة دبَّتْ فيها؛ تحرّكت فيها السماء، وجرى فيها الماء.

ينبغي لكم رؤية الأسلوب الذي تُعَامِلُ فيه زبائنها الذين قصدوا الكشك، رجال أعمال وسيِّدات أعمال، وهم بصورة رئيسة من أوربّا أو آسيا. لقد كانت في هذه اللحظات تجلس، بهدوء بالغ، وسامي جالسٌ على ركبتها، وعيناها مثبَّتَتَان على الزبائن، بينما كانوا يقتربون من إحدى اللوحات، وهم يرفعون نظّاراتهم، إذا كانوا يضعون نظارات، ومن ثم يتراجعون خطوات إلى الوراء، وغالبًا ما كانوا يصطدمون بزبائن حامد، ومن ثم يقفون هناك متسمِّرين مدة طويلة، وغالبًا ما يقولون: «أأنتِ عفراء؟» فتجيبهم: «نعم، أنَا عفراء». وكان ذلك كافيًا لأنَّ تباع اللوحة.

ثمَّة عالَمٌ كاملٌ مكنونٌ فيها، وقد عرف الزبائن ذلك. لأنه في تلك اللحظة، وبينما كانوا يحملقون إلى اللوحة ومن ثمَّ ينظرون إليها، كانوا يرون الطينة التي جبلت منها. فروح عفراء كانت منفتحة على مداها، مثل الحقول والصحراء والسماء والبحر والنهر التي رسمتها، وغامضة كغموضها. فثمَّة فيها دائمًا المزيد من الأسرار لأعرفها، وأفهمها، ووفق المعلومات التي أعرفها، لم يكن ذلك كافيًا، فقد أردْت معرفة المزيد. ولكنّ ثمَّة مثلًا في سوريا يقول: يا ما تحت السواهي دواهي.

لقد أغرمتُ بها منذ أول يوم رأيتها فيه، كان ذلك في عرس أكبر أولاد ابن عمِّي إبراهيم، في فندق داما روز في دمشق. كانت ترتدي فستانًا أصفر، وتضع حجابًا حريريًا. عيناها، ليستا زرقاوين زرقة البحر، أو زرقة السماء، ولكنّها زرقة داكنة كزرقة نهر قويق، مع دوَّامات بنية وخضراء.

أتذكَّر ليلة عرسنا، بعد ذلك بسنتين، وكيف أرادت منِّي أن أنزع حجابها، فنزعتُ دبابيس الشعر، برفق، واحدًا إثر آخر، وكشفت عنها الغطاء ورأيت للمرَّة الأولى شعرها الأسود الطويل، الداكن جدًّا، كان مثل لون السماء فوق الصحراء في ليلة خلت من النجوم.

ولكن ضحكتها كانت أكثر ما أحبَبْتُها فيها من خِصَال. فقد كانت تضحك وكأنّنا لن نموت أبدًا.

بعد أن مات النحل، بات مصطفى مستعدًّا لمغادرة حلب، وكنَّا على وشك المغادرة عندما فُقِدَ فراس، ولذا انْتَظَرْنَا عودته. استطاع مصطفى بصعوبة أن يتكلّم أثناء هذا الوقت، فعقله مشغول كليَّةً، وهو يتخيَّل هذا السيناريو أو ذاك. وبين الفينة والأخرى كان يقترح مكانًا ربّما يكون فيه فراس. «ربّما ذهب للبحث عن أحد أصدقائه، يا نوري» أو «ربَّمَا لا يستطيع حمل نفسه على مغادرة حلب، فهو يختبئ في مكان ما حتى يجبرنا على البقاء هنا» أو، كما قال لي ذات مرة: «ربَّمَا مات يا نوري. ربما يكون ولدي قد مات».

حزَمْنَا حقائبنا وبتنا مستعدِّين للسفر، ولكن الأيام والليالي مرَّت دون أي أخبار عن فراس. لذا فقد عمل مصطفى في محفظة جثث في مبنى مهجور تُعْرَضُ فيه جثث القتلى للتعرُّف عليها، حيث يمكنه تسجيل تفاصيل الوفاة وسببها: رصاص، شظايا، أو تفجير. كان من الغريب رؤيته يعمل في مكان مغلق، محبوسًا بعيدًا عن الشمس. معه دفتر أسود، ويعمل على مدار الساعة، وهو يسجِّل ببقايا قلم رصاص تفاصيل الموتى. وعندما يجد وثيقة تعريفية مع الجثة، كانت مهمته تغدو أسهل؛ وفي أحايين أخرى كان يسجِّل علامة فارقة للميت، مثل لون شعره أو لون عينيه، أو شكل أنفه المميز، أو شامة على خدِّه الأيسر. واظب مصطفى على هذه المهمّة إلى أن حلَّ ذلك اليوم الشتَويّ الذي أحضَرْتُ فيه ابنَه من النهر. لقد ميَّزتُ الصبيّ المراهق الميت المسجَّى على بلاط باحة المدرسة، ثم طلبتُ من رجلين معهما سيَّارة أن يساعداني في أخذ الصبي إلى محفظة الجثث. عندما رأى مصطفى فراسًا، طلبَ منا أن نسجِّيه على الطاولة، ومن ثمَّ أغلق عيني ابنه ووقَفَ مدة طويلة، دونما حراك، ممسكًا يده. وقفتُ في مدخل الباب أثناء مغادرة الرجلين، وتلا ذلك صوت محرِّك، وانطلاق السيَّارة، ومن ثمَّ خيَّم سكونٌ، سكونٌ رهيب، ودخل الضوء عبر النافذة فوق الطاولة التي سُجِّيَ عليها الصبي، ومصطفى واقفٌ وهو يمسك يده. لبرهة لم يكن هناك أي صوت، لا صوت قنبلة ولا طير ولا نَفَس.

ثم ابتعد مصطفى عن الطاولة، وضَع نظارته على عينيه وبرى قلم الرصاص بعناية مستخدمًا سكينًا، وفتح، وهو جالس إلى مكتبه،

الدفتر الأسود وكتب فيه:

الاسم: ولدي الوسيم.

سبب الوفاة: هذا العالم المنكسر.

وكانت تلك المرَّة آخر مرّة يُسجِّل فيها مصطفى أسماءَ الموتى.

بعد أسبوع بالضبط على ذلك، قُتِلَ سامي.



2

تقول اختصاصية الرعاية الاجتماعية إنَّ مهمَّتَها تتمثَّل في مساعدتنا. اسمها لوسي فيْشَر وتبدو مبهورةً بقدرتي على التحدُّث بالإنجليزية بصورة ممتازة. أحكي لها عن عملي في سوريا، وعن النحل والخلايا، ولكنِّي أجزم بأنها لم تسمعني فعليًّا، فهي منهمكة بالأوراق التي أمامها.

ما كانت عفراء لتدير وجهها في اتجاهها حتَّى. وإذا لم تعرف بأنها كانت كفيفة لحَسِبْتَهَا كانت تنظر عبر النافذة. فثمَّة قليل من ضوء الشمس اليوم وهو ينعكس من بؤبؤي عينيها، ما جعلَهما يبدوان مثل الماء. يداها مشبوكتان معًا على طاولة المطبخ وشفتاها مزمومتان بإحكام. هي تعرف بعض المفردات الإنجليزية، زادًا يكفيها لتدبُّر أمورها، ولكنّها ما كانت لتتحدَّث بها مع أحد سواي. والشخص الوحيد الآخر الذي سمِعْتُهَا تتحدَّث بها معه كانت أنجيليكي. أنجيليكي، التي ينزُّ الحليبَ من ثدييها. أتساءل إذا كانت قد جاءت من تلك الغابة.

«كيف حال السَّكن يا سيِّد نوري ويا سيِّدة عفراء؟» تقول لوسي فيشر وهي تجول بأوراقها بعينيها الزرقاوين الواسعتين ونظَّارتها

ذات الإطارات الفضّية، وكأنَّ الجواب عن سؤالها مكتوب فيها. وأنا أحاول جاهدًا أن أفهم ما الذي كان المغربي يتحدَّث عنه.

ترفعُ بصرها وتنظر إليّ بوجه كأنه موجَةٌ عارمةٌ من الدفء.

فأقول لها: «أراه نظيفًا وآمنًا جدًّا مقارنة بأماكنَ أخرى». لا أحكي لها عن تلك الأماكن الأخرى، وبالتأكيد لا أحكي لها عن الفئران والصراصير في غرفتنا. أخشى أنّ ذلك سيبدو نكرانًا للجميل.

لا تطرحُ عليَّ أيَّ أسئلة، ولكنّها توضّح لنا بأنّ ضابطًا في دائرة الهجرة سيقابلنا قريبًا. ترفع نظَّارَتَهَا إلى ما فوق أرنبة أنفها وتطمئنني بصوت ناعم ودقيق، بأنَّنَا حالما نتسلّم الأوراق التي تثبت أحقيتنا بالحصول على اللجوء، فإنّ عفراء ستكون قادرة على مراجعة طبيب لفحصِ ما تعانيه من آلام في عينيها. تنْظُرُ إلى عفراء نظرةً خاطفةً، فألاحظُ أنَّ يديَّ لوسي فيشر مشبوكتان أمامها بالطريقة ذاتها التي شبكت فيها عفراء يديها. ثمَّة أمرٌ يكتنف ذلك؛ أمرٌ أجدُه غريبًا، ومن ثم تعطيني رزمةً من الأوراق. رزمة أوراق من وزارة الداخلية: معلومات عن المطالبة باللجوء، ومدى استحقاقنا له، وملحوظات حول التقصِّي عن حالَتنا، وملحوظات حول إجراء المقابلة. فأتصفَّحُها وهي تنتظر بصبر وتنظر إليَّ.

حتَّى تبقى بصفة لاجئ في المملكة المتّحدة ،يُشْتَرَط ألَّا تكون قادرًا على العيش بأمان في أيّ جزء من بلادِك لأنَّك تخشى تعرُّضَك للاضطهاد هناك.

فأسألها: «أيُّ جزء؟ وهل ستُرحِّلِينَنَا إلى جزء مختلف عن المكان

الذي كنّا نعيش فيه في سوريا؟».

تقطِّب وجهَهَا، وهي تسحبُ خُصلة من شعرها، شفتاها مزمومتان بشدَّة وكأنّها أكلت طعامًا فظيعًا.

ثم ما تلبث أن تقول: «أنتَ بحاجة الآن لأن ترويَ قصَّتك دونَ مواربة. فكِّر بما ستقوله لضابط الهجرة. وتأكّد من أنَّ كلَّ شيء واضحٌ ومتَّسِقٌ ومباشرٌ قدرَ الإمكان».

«ولكن هل سترحِّلُونَنَا إلى تركيا أو اليونان؟ ما الذي يعنيه الاضطهاد لكِ؟» أقولُ هذه الجملة بصوت أعلى ممَّا قصدتُ، فبدأت ذراعي بالارتجاف. أفرك الخطَّ السميك للحم المشدود والنسيج المحمّر، وأنا أتذكّر حدَّ السكين، وقد ارتسمت غشاوةٌ حَجَبَت عنِّي وجهَ لوسي فيشر، يداي ترتجفان. أحلُّ الزرَّ العلوي في قميصي. وأحاول أن أُبقيَ يديَّ ثابتتَين. ثم أقول:

«هل الجوُّ حارٌّ هنا؟».

فتقول كلمات لا أستطيع سماعَها، ولا أرى سوى شفتَيها تتحرَّكان. ها هي تقفُ الآن، وأستطيع أن أشعرَ بعفراء وهي تغيِّر موضعَها في الكرسيّ بجانبي. ثمَّةَ خريرُ ماء جار. هديرُ نهر مندفع. ولكنِّي أرى وميضًا، وميضًا مثل حدِّ سكين حادَّة جدًّا. يد لوسي فيشر تديرُ مقبضَ الصنبور، ثم تمشي صوبي، وتضع الكأسَ في يدي وترفَعُها صوب وجهي وكأنِّي طفل. أشربُ الماء، أشربُه كلّه، ومن ثم تجلس هي. أستطيع أن أراها الآن بوضوح إذ بدت عليها أمارات الخوف. تضعُ عفراء يدَها على ساقي.

تزمجر السماء، ويهطل المطر. يهطلُ المطر شلالات. أسوأ حتَّى من مطر ليروس[1] حيث الأرض غارقة بالمطر وماء البحر. أُدْرِكُ أنّها قالت شيئًا ما، أسمع صوتها يخترق المطر، أسمع كلمة «عَدُوّ»، وهي تحدِّق فيَّ، عابسة، ووجهها الأبيض يبدو محمرًّا من الخجل. ثم أقول:

«عفوًا؟».

«كنتُ أقول إنّنا هنا لكي نساعدكَ قدر ما نستطيع». فأقول لها:

«سمعْتُ كلمة (عَدُوّ)».

تُرْجِعُ كتفيها إلى الخلف وتزمُّ شفتيها، وتلقي نظرةً خاطفةً على عفراء مجدّدًا، وفي سورة الغضب التي تؤجّج وجهها وعينيها، أفهم ما الذي كان المغربيّ يتحدَّث عنه. ولكنّها ليست غاضبة منّي أنا، فهي لا تستطيع رؤيتي حقًّا.

«كلُّ ما قلتُه هو أنني لستُ عدوَّك». صوتها ذو نبرة اعتذارية الآن، ما كان ينبغي لها قول ذلك، لم يكن ذلك سوى زلَّة لسان، ثمَّة ضغطٌ ترزح تحت نيره، أستطيع أن أرى ذلك من الطريقة التي تشدُّ بها تلك الخُصلة من الشعر. ولكنّ صدى الكلمات لا يزالُ يتردَّدُ في الغرفة، حتَّى وهي تحزمُ أوراقَها مع بعضها، حتَّى وهي تتكلَّم مع عفراء، التي تومئُ لها الآن برأسها بصورة خفيفة جدًّا، حتّى وإنْ كانت تفعل ذلك احترامًا منها لحضورها ولا شيء أكثر.

«آمل أنَّك بخير يا سيِّد نوري» تقول وهي تغادر.

---

(1) جزيرة يونانية.

ليتني أعرف من هو عدوِّي!

لاحقًا، أخرُج إلى الحديقة الإسمنتية وأجلس على الكرسي تحت الشجرة. أتذكَّر طنينَ النحل، صوت السلام، وأكاد أشمُّ رائحة العسل، ونوّارَ الليمون واليانسون، ولكن حلَّت محلَّ ذلك فجأة رائحة الرَّماد الجوفاء.

ثمَّة طنين. ليس صوتًا جماعيًا مثل طنين ألوف النحل في المناحل، ولكنَّه طنينٌ منفرد. على الأرض قرب قدمي أجدُ نحلةً. عندما أنظر إليها من كثب أجد أنّها بلا جناحَين. أمدُّ لها يدي فتزحف على إصبعي، صاعدة صوب راحة يدي -نحلة من النوع الطنَّان، رَبْلَة وناعمة الملمس، مثل كومة ناعمة، ذات خطوط عريضة صفراء وسوداء ولسان طويل مثني تحت جسمها. إنّها تزحف هذه الأيام فوق ظاهر معصمي ولذا آخذُها معي إلى الداخل وأقعد في الكرسي ذي الذراعين، وأراقبها وهي تكنُّ في يدي استعدادًا للنوم. في غرفة الجلوس تُحْضِرُ لنا صاحبة المنزل شايًا بالحليب. المكان يعجُّ بالحركة هنا في الليل. لقد خلَدَت معظم النساء إلى النوم، ما خلا واحدة، وهي تتحدَّث بهمسات خفيضة مع رجل بجانبها بالفارسية. يمكنني القول من طريقة ارتدائها لحجابها بشكل مرتخٍ فوق شعرها بأنَّها على الأرجح من أفغانستان.

يشرب المغربيّ الشايَ محدثًا أصواتًا وكأنَّه أفضلُ مشروب ذاقَه في حياته، ويتلمَّظُ بشفتَيه بعد كلّ نُغْبَة، ويستطلع هاتفَه المحمول بين الفينة والأخرى، ومن ثمَّ يغلق كتابه ويربِّت تربيتًا عليه براحة يده كمن

يربِّتُ على رأس طفل. ثمَّ يقول:

«ما ذاك الذي على راحة يدك؟».

أمدُّ له يدي حتّى تتسنَّى له رؤية النحلة، ثم أقول: «لا أجنحةَ لها. وأشتبه في أنّها مصابة بتشوُّهِ الجناح الفيروسي».

فيقول: «كما تعلم، في المغرب يوجد إنتاج للعسل. ويأتي الناس من بقاع العالم كافّة حتّى يتذوَّقوا عسلنا. في أغادير شلّالات وجبال ومقدار هائل من الزهور التي تجذب الناس والنحل. أتساءل ما طبيعة هذا النحل البريطاني؟». ثم ينحني بصورة أقرب حتّى يتأمّلها من كثب، ويرفع يده وكأنّه موشكٌ على أن يربِّت عليها بإصبعه كمَن يربِّت على كلبِ صغير، ولكنّه يعدِلُ عن رأيه ويقول: «هل تلسع؟».

«يمكنها أن تفعل ذلك».

فيحرِّك يدَه صوب حضنه طلبًا للأمان ويقول: «وماذا أنتَ فاعلٌ بها؟».

«ما من خيارات كثيرة يمكنني فعلها إزاءَها. سأعيدها إلى الخارج. فهي لن تعيش طويلًا وهي على هذي الحالة؛ فقد طُرِدَت من خليتها لأنَّه لا أجنحة لها».

ينظر إلى الخارج عبر الأبواب الزجاجية صوب الفناء.

الفناء ساحة إسمنتية صغيرة مرصوفة بالبلاط وتتوضَّع في منتصفها شجرة كرز.

أنهضُ وأضغط بوجهي على الزجاج. الساعة التاسعة، وشرعت الشمس تغرب منذ لحظات. شجرة الكرز باسقةٌ وسوداءُ وفي خلفيّة المشهد السماء المتورِّدة. ثم أقول:

«الطقس مشمسٌ الآن، ولكنّ المطر سيهطل في ثلاث دقائق. والنحلُ لا يغادر خلاياه في المطر. لا بَلْ إنَّه لن يخرج البتّة أثناء المطر، والمطر يهطلُ هنا بنسبة سبعين في المئة من الوقت».

فيقول المغربي: «أظنُّ أنّ النحل الإنجليزيّ مختلف». وما إن ألتفتُ وأصيرَ قبالته حتّى أجدَه يبتسم مرَّة أخرى. لا يروق لي أنّه يجدُني مدعاةً للتسلية.

يوجد حمَّامٌ في الطابق الأرضي وقد ذهب أحد الرجال لكي يستخدم المرحاض. تدفُّقُ البول في كرسي المرحاض يبدو مثل شلال.

«أجنبي لعين!» يقول المغربي وهو ينهض متجهًا لينام، ثم يردف: «لا أحد يقف ليتبوَّل. اقعد!».

أخرج إلى الفناء وأضعُ النحلة على زهرة خَلَنْج قرب السياج.

في زاوية الغرفة ثمَّة حاسوبٌ متصل بالإنترنت. أجلس إلى طاولة الحاسوب لأرى إذا ما كان مصطفى قد أرسل إليّ رسالةً أخرى. فقد غادر سوريا قبلي وما فتئنا نتراسل عبر البريد الإلكتروني أثناء ترحالنا. هو ينتظرني في شمالي إنجلترا في يوركشير. أتذكَّر كيف أبقتني كلماتُه صامدًا في رحلتي. حيثما يوجد نحلٌ توجدُ زهور، وحيثما توجد زهورٌ توجد حياةٌ جديدةٌ وأملٌ جديدٌ. مصطفى سبب مجيئي

إلى هنا. هو السبب الذي جعلني وعفراء نواصل المشوار حتَّى وصلنا المملكة المتّحدة. ولكنَّ كلَّ ما أستطيع فعله الآن هو الحملقة في انعكاس وجهي على الشاشة. لا أريد لمصطفى أن يعرف ماذا حلَّ بي. فنحن أخيرًا في البلد ذاته، ولكنْ إذا التقينا فإنّه سيرى بقايا رجل. لا أظنُّه سيعرفني. أشيحُ بوجهي بعيدًا عن الشاشة.

أنتظر هناك حتى تفرغ الغرفة ممن فيها؛ حتى يغادر كلُّ النزلاء هنا وتغادر معهم لغاتُهم الأجنبية وتصرّفاتُهم الأجنبية ولا يبقى سوى صوت السيَّارات في البعيد. أتخيَّل خلية نحل تموج بالنحل الأصفر، أتخيَّلُه يخرُج ويتّجه صوب السماء ومن ثمَّ يحلق بعيدًا بحثًا عن الزهور. أحاول أن أتخيَّل الأرض الواقعة فيما وراء ذلك، الطرق السريعة وأضواء الشارع والبحر.

يومض ضوءُ مستشعر الباب فجأة في الحديقة. من مكاني حيث أجلس في الكرسي ذي المساند قبالة الأبواب أرى ظلًا، ظلَّ جسم صغير ومعتم يندفع بسرعة عبر الفناء المرصوف. يبدو أنّه ثعلب. أنهض لألقي نظرة، فينطفئ ضوء المستشعر. أضغط بوجهي على الزجاج، ولكنّ الجسم الذي رأيته أكبر من ثعلب ويقف منتصبًا على رجلين. ثم يتحرَّك فيومض ضوء المستشعر مجدّدًا، فأرى صبيًّا صغيرًا وظهره باتجاهي. إنه ينظر من خلال فتحة في السياج إلى الحديقة الأخرى. أطرقُ بقوة على الزجاج ولكنّه لا يلتفت. أبحثُ عن المفتاح فأجده معلَّقًا على مسمار خلف الستارة. عندما أقترب منه، يلتفت الصبي ليواجهني، وكأنّه كان ينتظرني، وهو ينظر إليَّ بتلك العينين السوداوين طالبًا أجوبةً عن كلّ الأسئلة التي في العالم. أقول

له بلطف، حتّى لا أخيفَه ويهرب: «يا محمّد». فيقول:

«عمِّي نوري، انظر إلى تلك الحديقة، ففيها مقدار كبير جدًّا من الخضرة!».

يتنحَّى جانبًا حتى يتسنَّى لي أن ألقي نظرة. الليل حالكٌ حتَّى إنّي لا أستطيع رؤية أيّ خضرة. لا شيء سوى الظلال الناعمة للجنبات والأشجار. فأقول له:

«كيف عثرتَ عليَّ؟» ولكنهّ لا يجيب. أحسُّ أنه ينبغي لي أن أتوخَّى الحَذَر. «أتريد الدخول؟». ولكنه يجلس على الأرضية الإسمنتية، وساقاه مشبوكتان، ويسترق النَّظر انطلاقا من الفتحة التي في السياج مرَّة أخرى. أجلس قربه. فيقول:

«ثمَّة شاطئ هنا».

«أعرف».

ثم يقول: «لا أحبّ البحر».

«أعرف. أتذكَّر أنَّك لا تحبّه». يُمسك شيئًا ما في يده. شيئًا أبيضَ، وأشمُّ رائحة ليمون، مع أنه لا يوجد ليمونٌ هنا. ثم أقول له:

«ما ذاك؟».

«زهرة».

«من أين جئتَ بها؟» أفتحُ راحة يدي فيضعها عليها. يقول لي إنّه قطَفَها من شجرة الليمون التي في



حَلَب

التي كانت مليئةً بالغبار. ما كانت عفراء لتغادرها. غادرها الجميع. حتّى مصطفى صار مستميتًا على المغادرة الآن. ولكن ليس عفراء. يقع منزل مصطفى على الطريق المُفْضِي إلى النهر وكنت أمشي عبر الرابية لكي أزوره. المسافة ليست طويلة لكنّ هناك قنّاصين وعليَّ توخِّي الحذر. تشدو العصافير عادةً. وصوت شدو العصافير لا يتغيَّر البتة. هذا ما قاله لي مصطفى منذ عدَّة سنوات خلت. وكلَّما صمتت القنابل، خرجت العصافير لتشدو. إذ جثمت على بقايا جذوع الأشجار وداخل الحُفَر والأسلاك والجدران المهدَّمة، وشرعت تشدو بغنائها. حلَّقت عاليًا، في السماء التي لم يمسها الهلاك، وشدَت.

بينما اقتربتُ من منزل مصطفى أمكنني سماع صوت الموسيقى الخافت على أنّي كنتُ على مَبعدَة. إذ دائمًا ما وجدتُه جالسًا على السرير في غرفته شبه المهدَّمة بسبب القنابل، وأسطوانة تطلِق عزفَها من فونوغراف عتيق، وهو يزمُّ شفتَيه على عقب سيجارته، والدخان يصّاعد غَمامًا فوقه، وعلى السرير بجانبه قطَّةٌ تهرُّ. ولكن في هذا اليوم الذي زرته فيه، لم يكن مصطفى هناك. غير أنّ القطَّة نائمةٌ في الموضع الذي اعتاد الجلوس فيه، ذيلُها ملتفّ حول جسدها. على المنضدة التي بجانب السرير، وجدتُ صورةً لنا كلينا اُلتُقِطَت في السنة التي فتحنا فيها المناحل معًا. كلانا نحدِّق في الشمس شبه مُغْمِضَيْن، مصطفى أطول مني بقدمٍ على الأقلّ، والمناحل خَلْفَنَا. أعرف أننا كُنّا محاطَين بالنحل، مع أنه لم يكن ظاهرًا في الصورة. وجدتُ تحت الصورة رسالةً.

عزيزي نوري،

أَظنُّ أحيانًا بأنّني إذا ما واصلت المشوار، فإنّي سأجدُ بعضَ الضوء، ولكنّي أعرف أنه يمكنني السيرُ إلى الطرف الآخر من العالم، ومع ذلك فلن أجدَ سوى العتمة. عتمة لا تشبه عتمةَ الليل، التي تتميّز -أيضًا- بوجود ضوء أبيضَ آتٍ من النجوم، آتٍ من القمر. إنَّ هذه العتمة ما هي إلَّا عتمةٌ في داخلي ولا علاقة لها بالعالم الخارجيّ.

تهيمن على ذاكرتي الآن صورةُ ابني وهو مُسَجًّى على تلك الطاولة، ولا يمكن لشيء أن يجعلها تذوي من فكري. فأنا أراه، أراه كلَّما أغمضتُ عينيَّ.

شكرًا لك على قدومك معي كلّ يوم إلى الحديقة. ليتنا حَمَلْنَا معنا بعض الأزهار لنضعها على قبره ولا شيء أكثر من ذلك. يمرُّ طيفُه أحيانًا في خاطري جالسًا إلى المائدة وهو يأكل اللحمة. وينقر أنفَه بيده الأخرى ومن ثمَّ يمسح بها على سرواله القصير فأطلب منه أن يكف عن التشبه بأبيه، فيقول لي «ولكنك أبي!» ثمَّ يضحك. يا لتلك الضحكة! أستطيع سماعها. فهي تحلِّق فوق الأرض وتختفي في البعيد مع العصافير. أظنُّ أنَّ هذه روحه، فروحه طليقة الآن. يا الله أبقني حيًّا طالما في الحياة خيرٌ لي، واقبضني إليك عندما يصيرُ الموتُ أكثر راحة لي.

تمشَّيتُ البارحةَ صوبَ النهر، وراقبتُ أربعة جنود يَصُفُّونَ مجموعة من الصبية. عصبوا عيونَهم ثم أطلقوا عليهم النار، واحدًا واحدًا، وألقوا جثثهم في النهر. تنحَّيتُ إلى الوراء وراقبتُ كلّ ذلك

وتخيّلتُ فراسًا هناك بينهم، والخوف يعتصر قلبه، عارفًا أنّه سيموت، فهو لم يستطع أن يرى ما كان يجري واستطاع فقط أن يسمع أصوات الطلقات. أملتُ أنّه كان أول من مات في الطابور. لم يخطر في بالي قطّ أنَّ أمنية كهذه ستراودني. أغمضتُ عينيَّ أيضًا وأصختُ السَّمعَ، وما بين انهمار الطلقات وأصوات ارتطام الأجسادِ المتساقطة، سمعتُ صوت صبي يبكي. ينادي أباه. الصبية الآخرون صامتون، وقد ألْجَمَهُم الذعرُ الشديد عن إصدار أيّ صوت. ثمَّة شخصٌ واحد في أيّ مجموعة يمتلك من الشجاعة ما لا يمتلكه البقية. فذلك يجعل الشجاعةَ تصرخُ بقوّة، تطلق ما هو كامن في قلبك. ومن ثم كُتِمَ صوتُه. معي بندقية في يدي. وجدتُها الأسبوع الفائت مرميةً على رصيف الشارع، مذخَّرَةً برَصَاصات ثلاث. وهكذا معي ثلاثُ طلقات وأمامي أربعةُ رجال. انتظرتُ حتَّى انتهت نوبةُ حراسِتهم، ثمَّ جلسُوا على ضفّة النهر يدخّنون السجائر ويضعون أقدامهم في الماء حيث كانوا قد رموا الجُثَث.

أجدتُ الرميَ. فقد أصبْتُ الأولَ في رأسه، والثاني في بطنه، والثالث في قلبه. أمّا الرابع فوقف ورفع يديه إلى الأعلى، وعندما أدْرَكَ أنَّ الرصاص نفد منِّي، تلمَّس بأصابعه باحثًا عن بندقيته فركضتُ. لقد رأى وجهي وسوف يمسكون بي. عليَّ أن أغادر الليلة. ينبغي لي أن أصل إلى ذَهَب وآية. ما كان عليَّ أن أنتظر كل هذه المدة الطويلة حتى أغادر، ولكني لا أريد أن أذهبَ دونك وأتركَك هنا في الجحيم.

لا أستطيعُ الانتظار هنا لكي أودِّعـك. عليك أن تُقْنِعَ عفراء بالمغادرة. أنتَ لطيفٌ جدًّا، وحسَّاس جدًّا. وهذه خَصلة محببَّة عندما

يتعلّق الأمر بالعمل مع النحل، ولكنّها خَصلةٌ لا تفيدكَ الآن. سأشدُّ رحالي إلى إنجلترا، لأعثرَ على زوجتي وابنتي. أتُركُ هذا المكان يا نوري، فلم يعد وطنًا بعد الآن. إنَّ حلب الآن مثل جثّة ميتة لشخص نحبُّه، لا حياة فيها، ولا روح، باتت مليئة بالدَّم المُتَحلِّل.

لا تبارح ذاكرتي المرّةُ الأولى التي جئتَ فيها إلى مناحل أبي في الجبال، وكنتَ تقفُ هناك محاطًا بالنحل، دونَ رداء الحماية الذي يَقِي من لسعاتِه، وأنتَ تحمي عينيك بيديك، وقلتَ لي: «مصطفى، هذا هو المكان الذي أريدُ أن أكونَ فيه»، مع أنَّك كنتَ تعرفُ أنَّ أباك ما كان ليكونَ سعيدًا بذلك. تذكَّر ذلك يا نوري. تذكَّر القوة التي كنتَ تمتازُ بها آنئذ. اصطحِب عفراء وتعالَ والتحق بي.

مصطفى

قعدتُ على السرير وبكيتُ، انتحبتُ مثل طفل، ومنذ ذلك اليوم احتفظتُ بالصورة والرسالة في جيبي، ولكنَّ عفراء ما كانت لتغادرَ، لذا كنتُ أخرجُ كلَّ يوم وأبحثُ عن الطعام في البيوت المُهدَّمة وأعود ومعي هديةٌ لها. كنتُ أجدُ عددًا كبيرًا جدًّا من الحاجيات الغريبة، قطعًا ناقصةً أو مكتملةً من حيوات الناس: فردةَ حذاء طفل، طوقَ كلب، هاتفًا محمولاً، قفَّازًا، أو مفتاحًا. كم من المثير أنْ تجد مفتاحًا عندما لا يكون هناك أبواب تفتحها به! فكِّروا في الأمر، بل أغرب من ذلك أن تجد فردة حذاء أو قفاز عندما لا تعود هناك قدمٌ أو يدٌ على مقاس أي منهما!

تلك هدايا حزينة، ومع ذلك كنتُ أقدِّمُها لها، حيث أضعها في حضنها، وأنتظر ردَّة فعل لم تأتِ البتة. ولكن ما فتئتُ أحاول. ففي ذلك إلهاءٌ مفيدٌ لها. كلَّ يوم خرجتُ ووجدت شيئًا جديدًا. ذات يوم، وجدتُ أفضل هدية عثرتُ عليها على الإطلاق: وجدتُ رُمَّانَة.

«ماذا رأيتَ؟» قالت لي وأنا واقفٌ بالباب.

كانت جالسةً على السرير القابل للطيّ، حيث اعتاد سامي النوم، قبالة النافذة، وظهرها إلى الجدار. ذكَّرَتني بقطَّة، وهي مرتدية حجابَها الأسود، بذلك الوجه الحجريّ الأبيض والعينين الرماديتين الكبيرتين. لا تعابير في وجهها وعينيها على الإطلاق. استطعتُ فقط أن أفهم شعورها بسبب صوتها، أو عندما تحكُّ بشرتَها بشدة حتى تدميها.

فاحت في الغرفة رائحة الخبز الساخن، رائحة الحياة الطبيعية. بدأتُ الحديث ولكنّي توقَّفْتُ، فأدارت أذنها نحوي، مع انقباضة خفيفة من رأسها.

ألفَيْتُها وقد خبزت خبزًا مرة أخرى فقلتُ: «أخبزتِ خبزًا؟». فقالت:

«خبزتُه لسامي. وليس لكَ. ولكن ماذا رأيتَ؟».

«عفراء...».

«لستُ حمقاءَ كما تعلم. لم أفقد صوابي. أردتُ فقط أن أخبز له بعض الخبز. أيناسبُك ذلك؟ إنَّ عقلي أكثر حدَّة من عقلك، لا تنسَ ذلك. ماذا رأيتَ؟».

«أينبغي لنا أن نفعل هذا كلّ مرّة؟».

تابعتُها بنظراتي. شبَكت أصابع يديها الواحدة بالأخرى.

ثم شرعتُ في الحديث: «المسألة تتعلَّق بالـ... المنازل. لقد صارت مثل الجيف يا عفراء. الجيف. إذا ما رأيتها فسوف تبكين».

«لقد قلتَ لي ذلك البارحة».

«أمّا البقَالة، فخاويةٌ على عروشها الآن. ولكن لا تزال توجد فاكهةٌ في الصناديق حيث تركَها عدنان، رمانٌ وتينٌ وموزٌ وتفاح. كلّها متعّفنة الآن، والذباب، ألوفٌ من الذباب تجمَّعت في الحرارة. ولكنّي نبَّشْتُ فيها ووجدتُ رمَّانة سليمة فأحضرتها لكِ». مشيتُ نحوها ووضعتُ الرمَّانة في حضنها. فأخذَتْهَا، وهي تتحسَّس قشرَها بأصابعها، ثمَّ تدوِّرُهَا، وتضغط عليها براحتي يديها.

«شكرًا لكَ». قالت لي، ولكن لم يكن في شكرها أي تعبير على الإطلاق. كنت آمل أن الرمَّانة ستستميلُها. كانت سابقًا تقضي الساعات وهي تقشر الرمان وتخرج منه البذور. كانت تقطع الرمانة إلى نصفين، وتسحب مركزها قليلًا، ومن ثم تبدأ ضربها بشدة بملعقة خشبية، وعندما تملأ الإناء الزجاجي حتى حافته، كانت تبتسم وتقول إنه بات عندها ألف جوهرة. تمنَّيتُ لو أنَّها تبتسم. ولكن ما تلك سوى أمنية حمقاء، أمنية أنانية. لم يكن في جعبتها ما يجعلها تبتسم بسببه. بل سيكون من الأفضل أن يتمنَّى المرء أن تضع هذه الحرب أوزارها. ولكني كنت بحاجة إلى شيء أتشبَّثُ به، فإذا ابتَسَمَتْ، إذا ابتَسَمَتْ بفعل معجزة ما، فإن الأمر يشبه العثور على الماء في الصحراء. ما

كانت لتكف عن سؤالي:

«قُلّي أرجوك، ماذا رأيتَ؟».

«لقد قلتُ لكِ».

«لا. لقد قلتَ لي ماذا رأيتَ البارحة. وليس ما رأيتَ اليوم. واليوم رأيتَ أحدَهم يموت».

«إنَّ عقلَك يأخذُك يمينًا وشمالًا. العتمة سببُ كلّ ما تتخيَّليه». ما كان ينبغي لي قول ذلك. اعتذرتُ، مرَّةً، مرتين، ثلاثًا، ولكن ملامح وجهها لم تتبدَّل، وقالت:

«أعرف ذلك من الطريقة التي كنتَ تلهثُ فيها عندما دَخَلْتَ».

«وكيف كنتُ ألهث؟».

«مثلَ كلب».

«بل كنتُ هادئًا هدوءًا مطلقًا».

«لا، بل هادئًا هدوءَ عاصفة».

فقلتُ: «لا بأس إذن، عندما غادرتُ البقَالَةَ، سلكتُ طريقًا فرعيَّة بعض الشيء. أردتُ أن أرى إذا كان أكرم لا يزال هنا، فصرتُ على الطريق الطويلة التي تفضي إلى دمشق، بعد البنك بقليل، قرب ذلك المنعطف حيث اعتادت سيَّارة النقل المغلقة الحمراء الوقوف أيام الاثنين؟».

أومأتْ برأسها. يمكنها أن تتخيَّل المسألة الآن، في عقلها. احتاجت كلَّ التفاصيل. كنت سأصل إلى إدراك هذا؛ احتاجت التفاصيل الصغيرة حتّى يتسنَّى لها تخيُّل المسألة كلّها، بحيث يمكن لها أن تتظاهر بأن عينيها هما اللَّتان رأتا كلّ ما حصل بحذافيره. أومَأتْ برأسها مرة أخرى، وهي تحثُّني على مواصلة الحديث.

«وهكذا، اقتربتُ حتى صرتُ خلف رجلين مسلَّحين وسمعتهما يتراهنان على شيء. كانا يخطِّطان للتسديد على هدف ما للتمرُّن على الرماية. وعندما اتَّفَقَا على الرِّهان أدركتُ أنهما لم يكونا يتحدَّثان إلّا عن صبيّ عمرُه ثماني سنوات كان يلعب وحده على الطريق. وصدقًا لا أعرفُ ما الذي كان يفعله هناك. لماذا تسمح له أمّه أن...». فقالت عفراء:

«ماذا كان يرتدي؟ الصبيُّ ذو الثماني سنوات. ماذا كان يرتدي؟».

«يرتدي كنزة حمراء وسِرِوالًا قصيرًا أزرق. سروالًا قصيرًا من الجينز».

«وما لون عينيه؟».

«لم أرَهُمَا. أظنُّهُما كانتا بنيتين».

«أكان صبيًّا أعرفه؟».

فقلتُ لها: «ربَّمَا. لم أميِّزْهُ».

«وماذا كان يلعب؟».

«معه شاحنة صغيرة ممَّا يلعب به الأطفال».

«ما لونها؟».

«صفراء».

كانت تؤجِّل المحتوم، متمسِّكة بالصبيّ الحيّ أطولَ مدّة ممكنة لكي تُبقيه على قيد الحياة. تركتُها تجلس صامتةً بضعَ لحظات، بينما كانت تقلِّب الأمر على وجوهه في ذهنها. ربّما كانت تقوم بحفظ الألوان وحركات الصبي في ذاكرتها. فمن عادتها فعل ذلك. ثم قالت: «تابع حديثك».

فقلتُ: «أدركتُ بعد فوات الأوان كثيرًا بأنَّ أحدهما قَبلَ الرهانَ وأطلقَ رَصاصة على رأس الصبيّ. هرب كلُّ مَن كان في الشارع وصار خاويًا».

«وماذا فعلتَ؟».

«لم أستطع التحرُّك. كان الصبي ملقىً في الشارع. لم أستطع التحرُّك».

«كان يمكن أن يقتلوك».

سَقَطَت قنبلةٌ في العتمة فأومضتِ السماء، ثم ساعدتُ عفراء في الاستعداد للخلود إلى النوم. فقد باتت تعرف طريقها في أرجاء المنزل الآن، إذ تتلمَّسُ الجدران بيديها، وراحتاها ممدودتان، تمشي مجرجرةً قدمَيها. هي تستطيع أن تخبزَ الخبز، ولكنّها تحتاجني في

الليل كي أنزعَ عنها ثيابَها. أرادت منّي أن أطويَ ثيابَها، وأن أضعَها على الكرسي قرب السرير حيث اعتادت أن تضعَها. نزعْتُ عباءَتَهَا بينما رَفَعَت ذراعَيها فوق رأسها مثل طفلة. ثم نزَعْتُ حجابَها فانسدَل شعرُها على كتفَيها. ومن ثَم قعدت على السرير وانتظرتني وأنا أتهيَّأ للنوم. عمَّ الهدوءُ في تلك الليلة، ولا مزيدَ من القنابل، فسادت في الغرفة الطمأنينةُ ونورُ القمر.

ثمَّة فجوة ضخمةٌ في هذه الغرفة؛ لقد انهار جدارُها البعيد وجزءٌ من السقف، تاركَين مكانَهما فرجةً مفتوحةً تفضي إلى الحديقة والسماء. سقَط نَور القمر على الياسمينة الواقعة فوق الظُلَّة، وخلفَها شجرة التين المعتمة وقد تدلَّت بصورة خفيضة فوق المرجوحة الخشبية، المرجوحة التي صنعتُها لسامي. مع ذلك كان الصمتُ مُطْبقًا؛ صمتٌ يفتقد إلى صدى الحياة. فالحرب لم تبارح هذا المكان، والمَنازل إمَّا خاوية أو صارت مدافن للموتى. برقت عينا عفراء في الضوء الخافت. أردتُ أن أضمَّها، أن أقبِّل بشَرَة نهدَيها الناعمة، أن أضيِّع نفسِي فيها. دقيقةً واحدةً، دقيقةً واحدة فقط، نسيتُ. ومن ثّم التفَتَتْ إليَّ وكأنّها تستطيع أن تراني، وكأنَّها كانت تعرف ما كان يجولُ في بالي فقالت: «أنتَ تعلمُ أنّه إذا أحبَبْنَا شيئًا فإنّه سيُؤخَذُ منَّا».

اضطجعنا كلانا، ومن وراء المنزل فاحت رائحة النار والموادّ المحترقة والرَّمَاد. على أنّها كانت تنام قبالتي وجهًا لوجه، فما كانت لتلمسني. نحن لم نتضاجَع منذ أنْ مات سامي. ولكنّها أحيانًا تمكّنني من الإمساك بيدها، وإحاطة راحة يدها بإصبعي. قلتُ لها:

«علينا أن نغادر يا عفراء».

«لقد قلتُ لكَ رأيي سلفًا: لن أغادر».

«إذا بقينا، فسَـنـَ...».

«إذا بقينا، فسَنَموت». قالت.

«بالضبط».

«بالضبط». عيناها الآن مفتوحتان وخاليتان من التعابير.

«أنتِ تنتظرين قنبلةً تصيبنا. إذا أردتِ حصول ذلك، فإنَّه لن يحصل أبَدًا».

«إذن سأتوقّف عن الانتظار. لن أتركه».

كنتُ على وشْك أن أقولَ لها: «ولكنَّه رحلَ سلفًا. لقد رحلَ سامي. لم يَعُد هنا. لم يَعُد معنا هنا في الجحيم، بل صار في مكان آخر. ولن نكون قريبين منه ببقائنا هنا». وكنت أتوقَّعُ أنّها ستجيبُ قائلة: «أعرف ذلك. فأنا لستُ بحمقاء».

ولذا لذتُ بالصمت. طبعتُ آثارَ إصبعي حول راحةِ يدِها، بينما كانت تنتظر قنبلة حتى تسقطَ علينا. عندما استيقظتُ في الليل مددتُ يدي لألمسَها، حتى أتأكَّدَ أنّها لا تزال هناك، وأنّنا لا نزال أحياءً. في العتمة تذكَّرْتُ الكلابَ وهي تنهشُ جثثًا بشرية في الحقول؛ الحقول التي كانت مرتعًا للورود، ومن مكان ما آخر في البعيد سمعتُ صوت زعيق حادّ، صوت معدن يجلجل على معدن، مثل مخلوق يُجرُّ نحو

الموت. فوضعتُ يدي على صدرها، بين نهدَيها، وشعرت بنبضاتِ قلبها، ثم نمتُ مرَّةً أخرى.

في الصباح أذَّن المؤذن مناديًا سكّانَ المنازل الخاوية ليأتوا الصلاة. فخرجتُ حتَّى أحاول العثور على بعض الطحين والبيض قبل أن ينفدَ الخبز. جرجرتُ قدميَّ في التراب. كان سميكًا جدًّا، والمشي فوقه كالمشي فوق الثلج. ثمَّة سيَّاراتٌ محترقةٌ، حبالُ غسيل عليها ملابسُ قذرةٌ تتدلَّى من الشُّرُفات المهجورة، أسلاكٌ كهربائية تتدلّى على ارتفاع منخفض فوق الشوارع، محلّاتٌ مقصوفة، مبان سكنية فيها شقوقٌ وقد طارت أسطحُها، أكوامٌ من القمامة على الأرصفة، فاحت منها كلُّها رائحةُ الموت والإطاراتُ المحروقة. ارتفع الدخان من بعيد، وهو يتلوَّى صوبَ السماء. شعرت بجفافٍ في فمي، وبيديَّ تنقبضان بشدَّة وترتعشان، وقد انحبَسْتُ في هذه الشوارع المشوَّهة. في الأرض التي في الخلف، أُحْرِقَت القُرى، وماجَ الناس مثل نهر هاربينَ، النساء مذعورات لأنَّ القواتِ شبه العسكرية انفلَتَتْ من عقالها وكنَّ يخشين التعرُّض للاغتصاب. ولكن هناك، قربي، ثمَّة أجمَةُ وردٍ دمشقي في عنفوان إزدهارها. عندما أغمضتُ عينيَّ وتنسَّمتُ عبيرها، استطعت أن أتظاهر للحظَة بأني لم أرَ المناظر التي كنتُ قد رأيتُها.

عندما رفعتُ ناظريَّ عن الأرض، ألفيتُ نفسي وقد وصلتُ حاجزَ تفتيش. وقفَ جندياِن في طريقي. كلاهما يحملُ بندقيّة آلية. ارتدى أحدُهما كوفيّة ذاتَ مربّعات ملوّنة. بينما أخرج الآخرُ بندقيّة من مؤخّرة شاحنة ودفعها باتجاه صدري.

«خذها» قال الرجل.

حاولتُ أن أقلِّد قسمَات وجه زوجتي. فلم أُرِدْ أن أظهرَ أيَّ مشاعر. فهما سوف يأكلانّي بسبب ذلك. دفع الرجلَ البندقيةَ بعنفٍ أكبرَ صوبَ صدري، ففقدتُ توازني وسقطت على الحصى.

رمى البندقية على الأرض، فرفعتُ رأسي لأجد الرجلَين يقفان فوقي، كان الرجل، ذو الكوفية، يوجِّهُ بندقيّته الآن إلى صدري. لم أستطع مواصلة التزامي بالهدوء وسمعتُ نَفْسِي وأنا أترجَّاهُمَا كي لا يقتلاني، متذللًا وركبتاي في التراب وأنا أقول لهما:

«أرجوكما، المسألة لا تتعلَّق بعدم رغبتي في أخذ البندقية منكما. سأكون فخورًا، بل سأكون أشدَّ الناس فخرًا في العالم بأن آخذَ البندقيّة منكما، ولكنّ زوجتي مريضةٌ جدًّا، مريضةٌ إلى حدٍّ جسيم، وتحتاجني حتّى أعتنيَ بها». وحتَّى وأنا أقول ذلك لم يخطر في بالي بأنّهما سيكترثان. ولماذا يكترثان بي؟ فالأطفال يموتون كلّ دقيقة. ولماذا سيكترثان بزوجتي المريضة؟».

«أنا قوي» قلتُ «وذكيّ. وسأبذلُ كلَّ ما بوسعي لمساعدتكما. أريدُ فقط مهلةً بضعةَ أيام. ذلك كلُّ ما أطلبُه منكما».

وضع الرجلُ الآخر يده على كتفِ رفيقه ذي الكوفية فأنزل بندقيّته. ثم قال الرجل الآخر:

«في المرَّة القادمة التي نراك فيها، إمَّا أن تأخذ بندقيةً وتقف في صفِّنَا، أو تجدَ شخصًا آخر حتّى يسحب جثتك».

قرَّرْتُ أن أتَّجه مباشرةً إلى البيت. أحسستُ بوجود ظلّ ورائي وأنا أسير، ولم أكَن متأكّدًا فيما إذا كان أحدٌ يتبعني أو أنّ ذلك محضُ خيالات يطلقها عقلي: لم أكفّ عن تخيُّل شبح يرتدي رداءً طويلًا، من النوع ذاته الذي نراه في كوابيس الطفولة، يحوم فوق التراب عند ظهري. ولكنّي لم أجد أحدًا عندما التفتُّ.

وصلتُ البيتَ فألفيتُ عفراء جالسةً على السرير القابل للطيِّ، ظهرُها قبَالة الجدار، مواجهة النافذة، ممسكة الرمَّانة بين يديها، وهي تقلِّبُهَا، وتتحسَّسُ لُبَّهَا. انتصبَتْ أذناها عندما دخلتُ الغرفة، وقبل أن تقول شيئًا جريتُ في أرجاء المنزل، باحثًا عن حقيبة، لأدسَّ فيها الأغراض على عَجَل.

«ما الذي يجري؟» بحثَتْ عيناها في الفراغ.

«إننا مغادران».

«لا».

«سيقتلونني إذا بقينا». كنتُ في المطبخ، أملأ قناني الماء البلاستيكية من الصنبور. حزمتُ مجموعةً إضافيةً من الثياب لكل واحد منا، ومن ثم بحثتُ تحت السرير عن جوازات السفر وخبيئة المال. لم تكن عفراء تعرف بأمرها؛ فهذا المال هو المال الذي تمكنتُ أنا ومصطفى من توفيره قبل أن تنهار تجارتنا في العسل، كما كان عندي أيضًا بعض المال في حساب خاص، وكنت آمل بأنه يمكنني استخدامه حالما نخرج من هنا. كانت تقول شيئًا ما من الغرفة الأخرى. كلمات احتجاج. أخذتُ معي جوازَ سفرِ سامي أيضًا؛ لم أستطع تركه هنا،

ومن ثمَّ عدتُ إلى غرفة الجلوس ومعي حقائب سفرنا.

«لقد أوقَفَنِي الجيش. ووضعوا بندقيةً على صدري» قلت.

«أنت تكذب. فلماذا لم يحصل هذا من قبل قط؟».

«ربَّما كان لا يزال هناك شبابٌ، ولذا لم يكترثوا بي. فما من سبب ليفعلوا ذلك. فنحن الحمقى الوحيدون الباقون هنا».

«لن أغادر».

«سيقتلونني».

«فليكن ما يكون».

«قلتُ لهما إني بحاجة إلى بضعة أيام حتَّى أعتني بك. وقد وافقا على منحي بضعة أيام فقط. وإذا ما رأياني مرَّة أخرى، ولم ألتحق بصفوفهم، فإنهما سيقتلانني. لقد قالا لي إنه ينبغي لي أن أجد شخصًا ما ليسحب جثتي».

ما إن سمعَتْ هذه الكلمات الأخيرة إلَّا واتَّسَعت عيناها واجتاح وجهَها خوفٌ مفاجئ، خوفٌ حقيقي. ولدى التفكير بفقدي، وربّما لدى التفكير بجثّتي، عادت إليها الحياة فانتَفَضَت واقفةً. تلمَّستْ طريقَهَا عبر الممرّ وتبعتُها، لاهثًا، ومن ثم اضطَجَعت على السرير وأغمَضَت عينيها. حاولت إقناعها بالمنطق، ولكنّها اضطَجَعت مثل قطّة ميّتة، بعباءتها السوداء وحجابها الأسود وذلك الوجه الحجري الذي أبغضُه الآن.

جلستُ على سرير سامي وحملقتُ من النافذة ونظرتُ إلى السماء الرَّمادية، لونًا رماديًّا تشوبه لَمْعَة، ولم يكن فيها أيُّ طيور. جلستُ هناك طوال النهار والمساء حتّى ابتلعتني العتمة. تذكَّرتُ كيف ترتحل النحلات العاملات لتجد أزهارًا جديدة ورحيقًا جديدًا، ومن ثمَّ تعود لكي تُبْلِغَ بقيَّة النحل. إذ إنَّ النحلة ترقص بجسدها؛ وزاوية رقصها المتشكِّلة قبالة قرص العسل تنبئ رفيقاتها من النحل بجهة موضع الأزهار وفق اتجاه الشمس. ليت عندي أحدٌ يرشدني! ليته يقول لي ما أفعل وأيَّ طريق أسلكها، ولكنّي شعرتُ بأنِّي وحدي، وحدي بصورة مطلقة.

قبيل لحظات من منتصف الليل، اضطَجَعْتُ بجانب عفراء. لم تكن قد تحرَّكت ولو مقدار أنملة. كنتُ قد وضعتُ الصُّورةَ والرسالة تحت وسادتي. وهذه المرَّة عندما استيقظتُ في منتصف الليل ألفيتها مضطجعة قبالتي وهي تهمس باسمي. فقلتُ لها:

«ماذا؟».

«أصغِ».

آتيةً من واجهة المنزل، سمعنا وقع أقدام وأصوات رجال ومن ثَم ضحكة، ضحكة خفيضة. ثم قالت:

«ماذا تُرَاهُم يفعلون؟».

وثبتُ من السرير ومشيت بهدوء إلى الجانب الذي كانت تنام فيه، وأمسكتُ يدها حتَّى أساعدها على النهوض، ومشَّيْتُها صوبَ الباب

الخلفي ومن ثمَّ خرجنا إلى الحديقة. استجابت دونما سؤال، دونما تردّد. تحسَّسْتُ بقدَمِي على الأرض لأجد سقف المخبأ المعدنيّ، ومن ثم نحَّيْتُه جانبًا وأجلَسْتُها قرب الفتحة وساقاها فوق الحافّة بحيث يمكنني أن أنْزِلَ وأدْخُلَ أولًا وأنزلها. ومن ثم سحبتُ الغطاء لينغلق فوقنا.

غاصت أقدامنا إنشات في الماء، الماء المليء بالسحالي والحشرات التي اتَّخَذَت من هذا المكان مقامًا لها. كنتُ قد حَفَرْتُ هذا المخبأ السنة الفائتة. أحاطتني عفراء بذراعيها وغمرَت وجهَهَا في ثنية عنقي. جلسنا على هذا الحال في العتمة، وقد صرنا كفيفَين كلينا الآن، في هذا القبر المخصَّص لشخصَين. في الصمت المطبق كان نَفَسُهَا الصوت الوحيد المسموع على وجه البسيطة. وربَّمَا كانت على صواب. ربَّمَا كان ينبغي لنا أن نموت على هذا الحال وما من حاجة بأحد لأن يُخْرِجَ جثتينا؛ ومن ثَمَّ تحرَّكَ كائن ما، قريبًا من أذني اليسرى، وفوقنا وفي الخارج تحرَّكت الأشياء وانكسرت وقرقعت. لا بدَّ أن الرجال دخلوا المنزل الآن. أحسستُ بارتجاف جسدها الملاصق لجسدي. قلتُ لها:

«ثمَّةَ سرٌّ أريد أن أُفضي به لكِ يا عفراء؟».

«ماذا؟».

«أريد أن أضرط».

خيَّمَتْ لحظةٌ من الصمت ومن ثم بَدَأتْ تضحك. ضحكت دون انقطاع على رقبتي. كانت ضحكة هادئة، ولكنَّ جسدَها برمّته اهتَّزَ

معها، فأحكمتُ قبضتي حولها، وأنا أفكِّر بأن ضحكَتها أجمل شيء باقٍ على وجه الأرض. ولكنّ هنيهةً لم أستطع فعليًا أن أحدِّد ما إذا كانت لا تزال تضحك أو أنّها بدأت تبكي، إلى أن شعرتُ بقبضتي وقد بلَّلتها الدموع. بعدها صار تنفُّسُهَا ناعمًا ثم نامت، وكأنَّ هذه الحفرة المعتمة هي المكان الوحيد الذي شعرَتْ فيه بالأمان. حيث التقت العتمة الداخلية بالعتمة الخارجية.

عرفت هنيهةً معنى أن يكون المرء كفيفًا. ومن ثم انبثَقَت الذكريات، كالأحلام، غنيّة جدًّا في ألوانها. ذكريات الحياة قبل الحرب. عفراء ترتدي فستانًا أخضرَ، ممسكةً سامي بيده؛ سامي الذي كان قد بدأ المشي منذ مدة وجيزة وكان يمشي متهاديًا قربَها، وهو يشيرُ إلى السماء الزرقاء الصافية إذْ عبرَتْها طائرة. كنَّا ذاهبين إلى مكان ما. كان الجوُّ صيفًا وهي تمشي في الأمام مع أختيها، عُلا التي ترتدي الأصفر وزينة التي ترتدي الورديّ. تلّوح زينة بذراعيها أثناء حديثها كعادتها. قالت الأختان الأخريان: «لا» معًا على شيء قالته. ثمَّة رجلٌ بجانبي، إنه عمِّي. أستطيع أن أرى عكّازته، وأسمع طرقاتِها على الأرضية الإسمنتية. يحدِّثُني عن عمله: فهو يملكُ مقهًى في دمشق القديمة، ويريد أن يتقاعدَ الآن، ولكن ابنَه لا يريدُ أن يستلمَ العمل في المقهى من بعده، ابنَه الكسول، الناكرَ للجميل؛ الذي تزوَّج قردةً غنيَّة، وكما يقول المثل: «يا آخدي القرد على مالو، بيروح المال وبيظل القرد على حالو». وفي تلك اللحظة رفَعَت عفراء سامي إلى حضنها ومن ثم التفتَتْ وابتسمَتْ فانعكس الضوء في عينيها وصارتا كالماء. ومن ثمَّ تلاشَتْ كلُّ تلك الصور. ماذا حلَّ بهؤلاء الناس الآن؟

طَرَفَتْ عيناي في العتمة. تلك العتمة الصمَّاء. تنهَّدَتْ عفراء أثناء نومها. حدَّثتني نَفْسِي أن أكسرَ رقبتها، وأن أخلِّصَها من تعاستها، وأمنحها الطمأنينة التي تَنشُد. فقبر سامي في هذه الحديقة. وستكون قريبةً منه. لن تكون بحاجة لأن تتركَه وترحل. وسينتهي كلُّ عذابها النفسيّ. ثمَّ ما لَبِثَتْ أن قالت:

«نوري».

«همممم؟».

«أنا أحبُّك».

لم أُجبْ، فاتَّحَدت كلماتها بالعتمة وصارت جزءًا منها. لم أجب بل تركتُ كلماتِها تغرقُ في التراب، إلى داخل الأرض المشبعة بالمياه.

«أسيقتلوننا؟» سألَتْنِي، بارتعاشة خفيفة في صوتها.

«أنتِ خائفة».

«لا. ولكنّنا قريبان من الموت الآن».

ومن ثم تلا ذلك وقع أقدام تقترب وعَلَتِ الأصواتُ. ثمَّ قال أحد الرجال: «لقد قلتُ لك، قلتُ لكَ ألَّا تدعه يذهب».

حبستُ نَفَسِي وضممتُ عفراء بقوّة بحيث لم تستطع أن تتحرَّك. فكَّرْتُ في إغلاق فمِها بيدي. لم أثق في أنَّها قد لا تتكلّم، فما بالُك بأن تصرخ. الخيارُ خيارُها الآن: أن تختارَ الموت أو الحياة. في الأعلى،

ثمَّة حركة وجرجرة أرجل وتمتمات، ومن ثَم، تراجع وقع الأقدام أخيرًا. ولم أدرك أنّ عفراء لا تزال تمتلك غريزة العيش إلّا بعد أن أطْلَقَت نفَسَها.

كان الصباح قد حلَّ عندما أيقنتُ بأنَّ الرِّجَال لا بدَّ غادَرُوا، إذ لم نسمع أيَّ صوت بضع ساعات، وانسكب الضوء عبر حوافّ سقف المخبأ المعدني، مُنيرًا الجدرانَ الطينيّة. دفعتُ الغطاء ورأيتُ السماء، واسعةً لم يمسَسْها سوء، زرقاءُ زرقةُ الأحلام. كانت عفراء مستيقظة ولكنّها صامتة، تائهةً في عالمها المعتم.

عندما دَخَلْنَا المنزل تمنَّيْتُ لو أني كنت كفيفًا أيضًا. ألفينا غرفة الجلوس وقد قُلِبَ عاليها سافِلُهَا والجدران مغطّاة بالكتابات. ننتصر أو نموت.

«نوري؟».

لم أرد.

«نوري... ما الذي فعلوه؟».

رأيتُها تقف هناك بين الأغراض المكسورة، شبحًا أسودَ لإنسان، منتصبة، وساكنة، وكفيفة.

ولكنّي بقيتُ صامتًا، أما هي فخَطَتْ خطوةً إلى الأمام وانحنت باحثة بيديها. رفَعَت عن الأرض تحفةَ زُخْرف مكسورة: طيرًا كرستاليًّا نُقِشَتْ بالذهب على جناحه المَفتوح أسماء الله الحُسْنى. وهي هدية أَهدتْهَا إيَّاهَا جدّتُها يومَ عُرسها.

قلَّبَتْها بين يديها، كما فعلت بالرُّمّانة، وهي تستشعر خطوطها وانثناءاتها. ثم، بصوت ناعم، مثل صوت طفلة بُعِثَتْ منذ سنوات عديدة، بدأت تقرأ الأسماء المحفورة في ذاكرتها: «الخالق، المذلّ، العليم، البصير، السميع، المحيي، المميت...».

«عفراء!»، قلتُ لها.

وَضَعَت التحفة المزخرفة وانحنت إلى الأمام، باحثة في الفراغ الذي أمامها بأصابعها. ها هي الآن تمسك بسيارة صغيرة ممَّا يلعب به الأطفال. كنت قد وضعتُ ألعاب سامي كلَّها في الخزانة قبل بضعة أسابيع، بعد وفاته. والآن لا أطيق النظر إليها وهي مكسورة ومتناثرة فوق أرضية الغرفة. ثمَّة حتَّى برطمان شوكولا مسكوبٌ هناك، فالشوكولا وجبة سامي الأثيرة على نفسه، وقد تدحرج من يدي عفراء وانتهى به المطاف عند رِجْل الكرسي. لا بد أن العفن اجتاحه الآن، ولكني احتفظت به في الخزانة مع كل الأشياء التي تذكِّرُني به. عندما أدرَكَتْ عفراء أن ما كان بيدها هي السيَّارة الصغيرة، وضعتها من فورها والتفتَتْ برأسها نحوي، وقد استطاعت نوعًا ما التحديج في عينيَّ. فقلتُ لها:

«إنّي مغادرٌ سواء أجئتِ معي أم لا».

نهضتُ من موضع جلوسي قربها وبحثتُ عن حقائبنا. وجدتها في غرفة النوم، على حالها، فحملتها فوق ظهري وعدت إلى غرفة الجلوس، لأجدها واقفةً وسط الغرفة. على راحتي يديها المفتوحتين قطع ملونة من أحجار الليغو: بقايا منزل كان سامي قد بناه؛ المنزل الذي سنعيش فيه حالما نصلُ إنجلترا، كما قال، حالما وافق على أنَّ

الذهاب إلى هناك سيكون أمرًا جيِّدًا.

قالَ حينئذ: «لن تتساقط علينا القنابل هناك، ولن تنهار المنازل مثلما تنهار هذه المنازل». لم أكن متأكّدًا إذا كان يقصد منازل أحجار الليغو أو المنازل الحقيقية، وبذلك أحزَنَني إذ أدركت أنّ سامي وُلِدَ في عالم يمكن لكلّ شيء فيه أن ينهار. فالمنازل الحقيقية تهدَّمت، وباتت رُكامًا. لا شيء كان ثابتًا في عالم سامي. ومع ذلك فقد كان نوعًا ما يحاول أن يتخيَّل مكانًا لا تتساقط فيه المباني حوله. كنت قد خبَّأتُ منزل أحجار الليغو في مكان آمن في الخزانة، بعناية، لأتأكَّد أنه بقي تمامًا على الحال التي ترَكَه سامي عليها. لا بل إنِّي فكَّرتُ حتَّى في تفكيكه وإعادة تجميعه باستخدام الصمغ، بحيث يمكننا أن نحتفظ به على الدوام. قالت عفراء كاسرة الصمت:

«نوري، لقد عقدتُ العزمَ وقضي الأمر. أرجوك، خذني من هنا».

وقَفَتْ هناك وعيناها تتحرَّكان متأمّلة أرجاء الغرفة، وكأنَّهَا كانت قادرةً على رؤية كلِّ ما فيها.



3

أستيقظ بعد أن نمتُ في الحديقة على ظهري. كان المطر قد هطل وتبلَّلَت ثيابي. ثمَّةَ شجرةٌ واحدةٌ في هذا المكان الإسمنتي، جذورها تتخلَّل الرصيف وتنخز ظهري. أتنبَّه إلى أنّي أمسك بعض الزهور في قبضة يدي. ثمَّة شخصٌ يقفُ فوق رأسي، يحجبُ عنِّي الشمس.

«ماذا تفعل هنا يا جيزير[1]؟» قال المغربيّ وهو ينظر إليَّ، وقد ارتسمت على محيَّاه ابتسامةٌ عريضةٌ. كان يتكلّم بالعربية ثم أردف قائلًا: «هل نِمْتَ هنا في الحديقة يا جيزير؟» يمدُّ لي يده، وقد بدا قويًا بصورة لا تصدَّق قياسًا برجل مسنّ؛ بدا ثابتًا على قدميه وهو يشدُّني إلى الأعلىَ.

«جيزة؟» أقول، شبه مذهول، فيقول:

«جيييييزير» يقول ضاحكًا ضحكةً خفيفةً ثم يضيف: «الرجل الذي في المحلّ يقول جيييييزير. ومعنَاها العجوز».

أتبعه إلى الداخل، أتبعه إلى الدفء. يُبْلِغُني أنَّ عفراء ما انفكَّتْ

(1) (Gezeer): كلمة إنجليزية عاميّة وتعني رجلاً مسنًا، وخصوصًا إذا كان غريب الأطوار.

تبحث عني، ويقول: «كانت تبكي» وقد شقّ عليّ تصديق ذلك، فعندما أجدها في المطبخ أراها مرتديةً ثيابها سلفًا وجالسة جاسئة إلى الطاولة مثلما كانت تجلس عندما كانت لوسي فيشر هنا. لم يبدُ لي بكاؤها؛ إذ لم أرَها أو أسمعها تبكي منذ أيّام حلب. تُمسكُ بلْيَةَ محمّد، وتقلّبُها بين أصابعها. كنت قد حاولت أن آخذها منها من قَبل ولكنها ما كانت لتتخلَّى عنها. أقول لها:

«تستطيعين إذن ارتداء ثيابك بنفسك؟» ولكنّي ندمت من فوري على هذه الكلمات إذ رأيتُ وجهَهَا يكتسي كَمَدًا. فتقول لي:

«إلى أين ذهبْتَ؟ كنْتُ سَهْرانةً في الطابق العلوي معظم الليل ولم أعرف أين كنت».

«غلبني النومُ في الطابق الأرضي».

«قال لي حازم إنَّك كنت نائمًا في الحديقة!».

يتصلَّب بدني. ثمَّ تقول:

«إنه لطيف. قال إنَّه سيعثر عليك وطلب مني ألَّا أقلق».

أقرِّر الذهاب كي أتمشَّى. هذه أول مرة لي خارج منزل الإقامة المؤقت. هذا المكان برمّته غريب، المحلّات تنتصب رثَّة الحال ومزدهية بنفسها: غو غو پيتزا، وتشيلي تُكْ-تُكْ، وپولسكي سماكي، وپاڤل إنديا، وموشيمو. في آخر الطريق ثمَّة دكَّانٌ فيه شخصٌ يعزفُ موسيقى عربية بصوت عالٍ. أمضي في طريقي صوبَ البحر. ما من رمل على هذا الشاطئ، لا شيء سوى الحصى والزَّلط، ولكن على

طول ممشى التنزُّه قرب الواجهة البحرية ثمّةَ حفرةٌ ضخمة في الرمل يلعب فيها الأطفال. صبي يرتدي سروالًا قصيرًا أحمرَ يبني قلعةً رملية. الجوّ ليس بحَارّ، ولكنّهم يظنّونه كذلك، ولذا فقد أَلْبَسَتْهُ أمُّه سرواله القصير، وكان هذا الصبيّ يغرف الرمل ويسكبه بعناية في سطل أزرق حتى يمتلئ، ثم يسوِّي سطحَه بدقة مستخدمًا مقبض رفشه.

يتراكض الأولاد هنا وهناك حامِلين البوظة ومصّاصات الحلوى؛ مصّاصات بحجم رؤوسهم. لقد بنى صبي القلعة الرملية مدينة كاملة، وقد استخدم في سبيل ذلك قطعًا من البلاستيك، وأغطية القناني، وأغلفة الحلوى، لكي يضيف الألوان إلى مبانيه. كما صنَع عَلَمًا من جورب مرمي وعودَ غزل البنات. ووضع تاجًا على القلعة في وسطها؛ لم يكن التاج سوى كوب شاي.

ينهض الصبي ويرجع إلى الوراء حتّى يبدي إعجابه بما أبدعته يداه. قلعةٌ مذهلةٌ، لا بل إنه استخدم حتَّى كوب الشاي ليبني به منازل تحيط بالقلعة، وغرس قنينةَ ماء لتبدو مثل ناطحة سحاب زجاجيَّة. لا بدَّ أنه شعر بأنِّي أنظر إليه، فها هو يلتفتُ وينظر إليَّ نظرات خاطفة، متوقِّفًا لحظة ومن ثم مطيلًا النظرَ إليَّ إذ التقت نظراتنا. نظرتُه نظرةٌ بريئةٌ تعكسُ انشغالَ بالِه، مثل نظرات الأطفال قبل الحرب. لحظةً، أظن أنه موشكٌ على قول شيء ما لي، ولكنَّ فتاةً تناديه حتّى يأتيَ ويلعب. تغريه بكُرَة. يتردَّد، ويلقي نظرةً أخيرة على إبداعه الرمليّ المدهش، ثم ينظَر إليَّ مرة أخرى، قبل أن ينطلق، تاركًا القلعة وراءه.

أجلسُ برهةً على الممشى المحاذي لحفرة الرمل وأنظر إلى

الشمس تمخُر عباب السماء. يغدو المكان أكثر هدوءًا بعد الظهر، وقد تجمَّعَت الغيوم، ومضى الأولاد في سبيلهم. أُخْرِجُ وثائق اللجوء من حقيبة ظهري.

حتَّى تبقى بصفة لاجئ في المملكة المتحدة يُشْتَرَط ألَّا تكون قادرًا على العيش بأمان في أيِّ جزء من بلادك لأنَّك تخشى تعرُّضَك للاضطهاد هناك.

ترعد السماء ويومض البرق. تتساقط قطرات سميكة من المطر على الورقة التي في يدي.

المملكة المتحدة.

أي جزء.

الاضطهاد.

يزداد المطر غزارةً فأضع الوثائق في حقيبة ظهري وأصعد التلَّة سيرًا إلى منزل الإقامة المؤقَّت.

تجلس عفراء قرب الأبواب الثنائية المصراعَين في غرفة الجلوس؛ ثمَّة بضعةُ نزلاء آخرين يتمشَّون في المكان والتلفاز يصدح بأعلى صوته. يرفع المغربي حاجبَيه ويقول: «كيف الأحوال يا جيزير؟» يقول الجملة كاملة باللّغة الإنجليزية الآن، وعيناه السوداوان تأتلقان.

«الأحوال لا بأس بها، يا جيزير» أقول له، وأبتسم ابتسامةً سرَّته. يضحك وصدرُه يصَّاعد ويضرب بيده على ركبته. أجلس إلى طاولة الحاسوب مرَّة أخرى وأحملق في صورتي المنعكسة في شاشته. ألمس لوحة المفاتيح ولكنّي أعجز عن تشجيع نفسي على تحرِّي البريد الإلكترونيّ. لم تفارق عيناي الأبوابَ الزجاجية. فأنا أتوقّع رؤية طيف محمَّد في الحديقة مع كلّ هبَّة ريح أو وميض ضوء.

أخرج إلى الفناء وأبحثُ عن النحلة، وأجدها في نهاية الأمر تزحف فوق بعض الغُصَينات والبَتَلَات المتساقطة تحت الشجرة. عندما أمدُّ يدي تزحف فوق إصبعي وتتابع دربها صوب راحة يدي، وهناك تثني أرجلها وتكنُّ، ولذا آخذها معي إلى الداخل.

تُحْضِرُ لنا صاحبة المنزل جميعًا شايًا على صينية، وبعض الحلوى الكينية، صفراء بسبب احتوائها الكُرْكُم. وهي تجيد الإنجليزية بصورة متقنة، وهذا ما استنتَجْتُه انطلاقًا ممّا سمعته من حديثها على أيّ حال. هي امرأة ضئيلة الحجم، صغيرة جدًّا، وكأنّها ولدت لتكون دُمية. تنتعل حذاءً ذا نعال خشبية ضخمة في قدمَيها، ساقاها نحيفتان وهي تخطو خطوات متثاقلة في غرفة الجلوس تُضيِّفُ الحلوى والشاي، كانت تذكِّرُني بدغفل[1] صغير.

قال لي المغربيّ إنّها تعمل محاسبة؛ وتعمل بدوام جزئيّ في مكتب في جنوبي لندن وتديرُ منزل اللجوء المؤقّت هذا فيما يتبقَّى لها من وقت. يدفع لها المجلسُ المال اللازم لتغطية نفقات إبقائنا هنا.

---

(1) ابن الفيل.

تنظِّفُ الجدران والأرضيات فركًا ودلكًا، وكأنَّهَا تحاول أن تمسح ما علق بها من قذارة ارتحالنا من مكان إلى آخر. ولكن ثمَّة أمرًا آخر أيضًا؛ فقصَّتُها ليست بهيّنة، إذا ما جاز لي القول. ثمّة خزانةٌ من خشب الماهوغاني في زاوية غرفة الجلوس، مطليّة بمادة برَّاقة كالماء، ومليئة بأقداح الخمر. في كلّ يوم تلمِّعُ الأقداح تلميعًا بالغ الدقّة. تقف هناك ومعها خرقة تبدو وكأنّها جزءٌ ممزّقٌ منتزعٌ من قميص رجالي، وقد لاحظتُ أنه يوجد زرٌّ عليه حتَّى. ولكنّها مع ذلك لا تستطيع التخلُّص من العفن الأخضر العالق بالجدران، أو الشحم الذي في المطبخ، السميك سماكة جِلْدِي، ولكنّي أرى أنّها فخورةٌ لأنها ترعانا. تتذكّر أسماءنا جميعًا، وتلك مأثرة عظيمة إذا ما نظرنا إلى العدد الكبير ممَّن يأتون إلى هذا المكان ويغادرونه. تقضي بعض الوقت متحدِّثة مع المرأة الأفغانية، وتسألها من أين اشترت حجابَها المنسوجَ يدويًّا بخيوط ذهبية.

«لا تزال النحلة حيّة!» يقول المغربيّ.

أنظر إليه وأقول مبتسمًا: «إنّها نحلةٌ مناضلة، فقد هطل المطر الليلة الفائتة. وما كانت لتبقى حيَّة هناك مع ذلك، مدّة طويلة، إذا لم تستطع الطيران».

أُخْرِجُ النحلةَ مرة أخرى، وأضعها على زهرة وأخلد إلى النوم مع عفراء. أساعدُها على نزع ثيابها وأضطجع نائمًا بجانبها، ثم تقول:

«أين صار مصطفى؟ أوصلتكَ منه أخبار؟» فأقول:

«لم يصلني أيّ خبر منه منذ مدة طويلة».

«هل تحرَّيتَ في بريدك الإلكتروني؟ ربّما يحاول التواصل معك؟ أيعرفُ أنّنا هنا؟».

ثمَّةَ صوتٌ غريبٌ الآنَ، صفيرٌ خفيض في السماء، فأقول لها:

«أتسمعين ذلك؟».

«هذا هطل المطر على النافذة» تقول.

«لا أقصد هذا الصوت. بل الصفيرَ. ثمَّة صفيرٌ. صفيرٌ لا يتوقّف. وكأنَّ عاصفة غبارية موشكة».

«ما من عواصفَ غبارية هنا. إمّا أن تمطر وإلَّا فلا».

«لا تستطيعين سماع الصفير إذن؟».

تبدو مهمومةً الآن وتريح رأسها على راحة يدها. إنّها موشكة على قول شيء ما وأنا أضحك، وأكبح جماح ما تنوي قوله إذ أقول: «كان الجوّ باردًا ولكنّه مشمسٌ اليوم! وها هو المطر يهطل الآن! إنّ هذا الطقس الإنجليزيَّ مثلُ مجنون! ربما ينبغي لكِ أن تخرجي غدًا؟ يمكننا أن نتمشَّى على طول الواجهة البحرية». فتقول:

«لا، لا أستطيع. لا أريد أن أكون في الخارج في هذا العالم».

«ولكن ليس لديك ما يشغلُك الآن، يمكنك أن تخرجي. لا ينبغي لكِ أن تشعري بالخوف بعد الآن».

لا تردُّ على مقالتي إلّا بالصمت.

«رأيتُ صبيًّا بنى أروع قلعة رملية رأيتُها في حياتي، بنى مدينةً كاملةً، فيها منازلُ وناطحةُ سحاب!».

«جميل» تقول.

ذات أيام خلت أرادت أن تعرف، أيام كانت تسألني فيها عمَّا رأيتُ. أمّا الآن، فلا تريد أن تعرف أيّ شيء البتَّة. ثمَّ ما تلبث أن تقول:

«علينا أن نتواصلَ مع مصطفى».

* * *

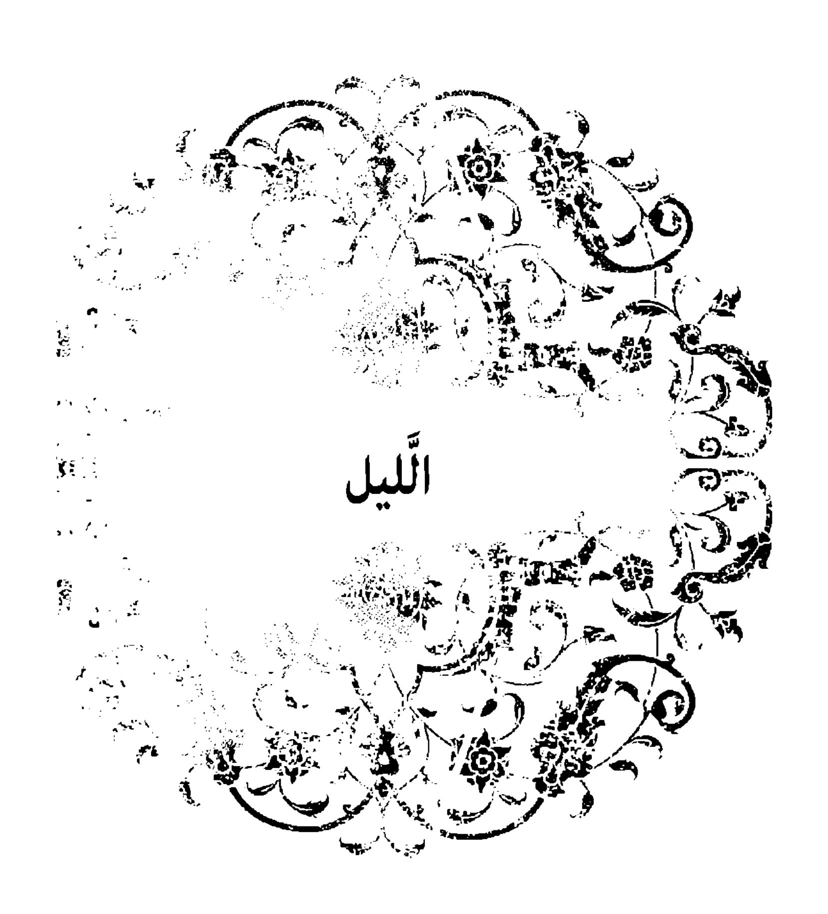
تكدِّرُنِي العتمة، وتكدِّرُني أيضًا الرائحةُ التي تفوح من زوجتي، ذلك الخليط من عطر الورد والعَرَق. فهي تضع العطر على جسدها قبل أن تخلد إلى النوم، تُخْرِجُ زجاجة العطر من جيبها وتدهن بها معصمَيها وعنقَها برفق. لا يزال النزلاء الآخرون يتحدَّثون في غرفة الجلوس في الطابق الأرضي، يتحدَّثون ذلك الخليط الغريب من اللغات. يضحك أحدُهم، وثمَّة وقعُ أقدام على الدَّرَج. تَصِرُّ ألواحُ الأرضية، فأعرف أنّه المغربي؛ إذ بتُّ أميِّزُ صوتَ مشيته. فهو يمتازُ بطريقة معيّنة في الوقوف. تبدو عشوائية في أول الأمر، ولكن ثمَّة إيقاعًا محدّدًا يكتنفها. يمشي متجاوزًا غرفتنا، وفي تلك اللحظة أسمع صوت بلْيَة تتدحرَج على ألواح الخشب. أعرف الصوت. أثِبُ وأشغِّلُ الضَوء. فأجد بلْيَةَ محمّد تتحرَّكُ نحو السجادة، أمسِكُها وأنظر إلى زجاجها وقد التمعَ في الضوء، والعِرْقُ الأحمر يجتازها في وسطها. تقول عفراء:

«ما هذا الصوت؟».

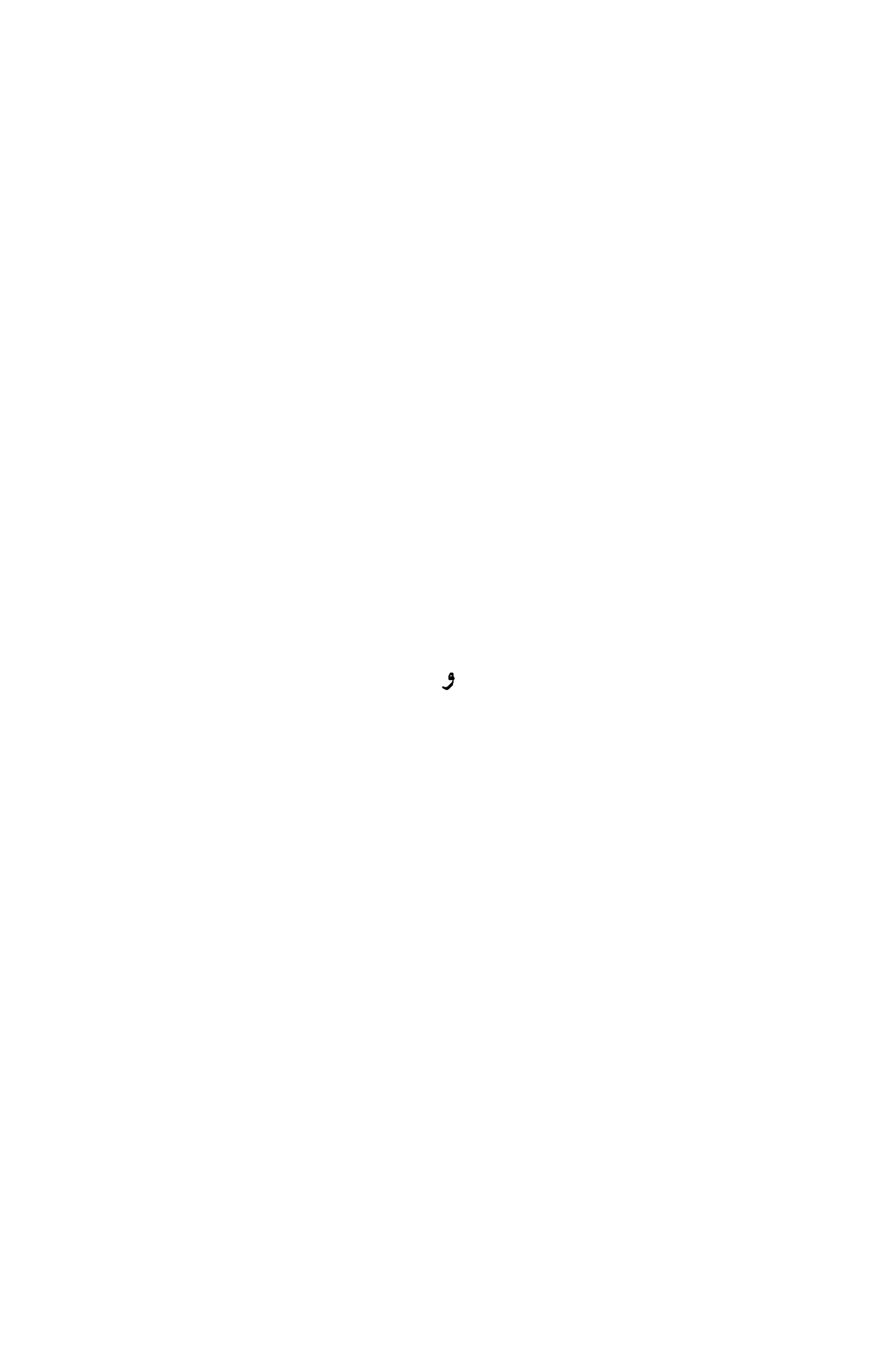
«ليست سوى بِلْيَة تتدحرج. لا شيء. اخلدي إلى النوم».

«ضعها على طاولة التسريحة قربي».

أفعلُ مثلما تقول وأعود إلى السرير، وأضطجع هذه المرَّة موليًا إيَّاها ظهري. تضع يدها على ظهري، تضغط براحة يدها على عمودي الفقريّ وكأنّها تتحسَّسُ أنفاسي. تبقى عيناي مفتوحتين في العتمة لأنّي خائفٌ من



اللَّيل



الذي جُنَّ علينا ونحن في باب الفرج، في المدينة القديمة. كنَّا ننتظر قدوم سيارة تويوتا تحت شجرة نارَنْج. معنا جثمانُ رجل، كان الجثمان ينتظر أيضًا. التويوتا الموعودة ليست سوى بِكْ أبْ، لا أضواءَ أمامية لها، ولها قضبانٌ معدنيةٌ من جانبيها كليهما، من النوع الذي يُسْتَخْدَم عادة في نقل الماشية من أبقار وماعز. الميِّت مُسجًّى على ظهره وقد ثنيت ذراعه فوق رأسه. على الأرجح أنه في أواسط العشرينيات من عمره، يرتدي كنزةً وبنطالَ جينز أسودين. لم أقل لعفراء إنَّ معنا رجلٌ ميِّت.

هو ذا المكان الذي طلب منا المُهرِّب أن ننتظر فيه.

أشرَق وجه الرجل الميِّت فجأة. أشرق بوهج من ضوء أبيض. أشرق وانطفأ. ثمَّةَ هاتف محمول في يده، اليد المثنية فوق رأسه. عيناه بنّيتان، وله حاجبان كثيفان. ثمَّة ندبةٌ قديمةٌ على خدِّه الأيسر. ثمَّةَ بريقُ سلسلة فضّية، فيها عِقْدٌ بشكل اسم مكتوب بخطّ عربي: عبَّاس. قالت عفراء:

«المكانُ جميل هنا. أعرف بالضبط أين نحن».

كانت هناك فيما مضى عرائش عنب تمتدُّ على طول هذا الشارع، وفي الأسفل مجموعة من الدَّرَجات التي تفضي إلى شرفة مدرسة، والشرفة لها بوابة. ثم قالت:

«إنّنا قرب تلك الساعة، ويوجد مقهًى عند الزاوية يبيع بوظة ماء الورد، حيث أَخَذْنَا سامي إلى هناك ذات مرَّة، أتذكُر ذلك؟».

* * *

وراء البنايات بالضبط، توهَّجَ الضوء أخضرَ في برج ساعة باب الفرج إذ أشارت عقاربُها إلى الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة. بقيت خمسُ دقائق. وقفتُ هناك بلا حول ولا قوة وأنا أنظر إليها، ملامحها دافئة بالذكريات. لأنَّهَا ضَحِكَت وبَكَتْ فقد عادت إلى الحياة، ولو بصورة أجزاء متشظية. ظهر نزرٌ يسير منها عبر صدع بين تلك الشظايا ومن ثم تلاشت مرة أخرى. والآن، وهي تقف هناك ووجهها قريب جدًّا من وجهي، أستطيع أن أرى الرغبة، الإصرار على التشبُّث بوَهم، برؤية للحياة، تخصُّ حلب. كانت عفراء القديمة ستشعر بالتقزّز بسبب هذا. أحسستُ فجأةً بالخوف منها. توقَّف الهاتف المحمول عن الوميض. بات الليل غريبًا الآن.

في البعيد استطعت أن أرى القلعة جاثمةً فوق رابيتها البيضوية، مثل قمَّة بركان.

هبَّت الريح وحملت معها رائحة الورود. قلتُ لها:

«هل تشمين رائحة الورود؟». فقالت:

«إن عطري معي».

بحثَتْ في جيبها وأخرَجَت قنينةً زجاجية، ثمَّ وضَعَتْها على راحة يدها. كنتُ قد أهديتها إيَّاها عام زواجنا. فعندي صديقٌ يمتلك مقطرة ورد وقد انتقيتُ ورود العطرَ بنفسي.

كانت تهمس الآن. أرادت العودة في الربيع عندما تتفتح الزهور لتضع العطر وترتدي فستانها الأصفر، ونتمشى معًا. ننطلق من

منزلنا ونمشي عبر المدينة صاعدَين الرابية إلى السوق، ثم نطوف عبر الشوارع المسقوفة في السوق العتيق، في الأزقّة المليئة بالتوابل والصابون وصنوف الشاي والبرونز والذهب والفضّة والليمون المجفَّف والعسل والأعشاب، وأبتاع لها شالًا حريريًا.

أحسستُ فجأة بالغثيان. فقد قلتُ لها سلفًا إنَّ السوق خاوٍ على عروشه، ونال القصفُ من بعض الحارات والتهمتها النيران، ولا أحدَ سوى الجنود والجرذان والقطط تجول في الأزقّة حيث مشى ذات يوم كلّ أولئك التجار والسيّاح. هُجِرَت كلّ الأكشاك، ما خلا واحدًا يبيع فيه عجوزٌ القهوةَ للجنود. صارت القلعة الآن قاعدة عسكرية، احتلّها الجنود وأحاطت بها الدبّابات.

كان سوق المدينة أحدَ أقدم الأسواق في العالم، ومركزًا أساسيًا على طريق الحرير؛ إذ اعتاد التجّار السفرَ من مصر وأوربّا والصين. كانت عفراء تتحدَّث عن حلبَ وكأنَّها تتحدَّث عن أرض سحرية كتلك التي نجدُها في الحكايا. بدا الأمرُ وكأنَّها قد نسيَت كلّ ما عدا ذلك، نسيت السنوات التي سبقت الحرب، نسيت أعمال العنف، نسيَت العواصف الغبارية، نسيَت موجات الجفاف، نسيَت الطريقة التي كنّا نكابد فيها حتّى عندئذ لكي نبقى على قيد الحياة، حتّى قبل القنابل.

أومَض هاتف الرجل الميِّت مرة أخرى. أحدُهم في قمّة التوق للحديث معه. ثمّة هدهدٌ جاثم في شجرة النَّارَنْج، عيناه الحبريتان تلتمعان. فَرَدَ الهدهد جناحيه، فسقط ضوء الهاتف المحمول على

خطوط ريشه السوداء والبيضاء. بتُّ خائفًا من الضوء، فانحنيتُ وانتزعت الهاتف من بين أصابع الرجل الميِّت اليابسة ودسستُه في حقيبة ظهري.

دقَّت الساعةُ معلنةً الثانيةَ عشرة. صدح من بعيد هدير محرِّك سيارة ناعم. اعتدلت عفراء في وقفتها، وجهُهُا يملؤه الخوف. ثمَّ انعطفت سيَّارة تويوتا، أضواؤها مُطفأة، ودواليبها تقلِّب الرماد بعنف. نزل السائق، وهو رجل ذو ملامح قاسية، ملتحٍ، أصلعُ الرأس، يرتدي قميصًا أسودَ، وحذاءً برقبة وبنطالًا عسكريَّين، كما تخصَّر بحقيبة صغيرة ومسدَّس. كان صورة طبق الأصل عن مقاتلي النظام: فقد حلَقَ شعْر رأسه، وكذلك لحيته. وهي حيلة لجأ إليها في حال قبض عليه شبِّيْحَة الأسد.

وقف هناك لحظة يتفحَّصُنِي. حرَّكَتْ عفراء قدمَيها في التراب، ولكنّ الرَّجل لم ينظر إليها. قال الرجل بعد انتظار: «اسمي علي، إنْ حدَث وأردتَ أن تناديني باسمي»، وابتسم، ابتسامة عريضة، عريضة جدًّا حتى إن وجهه بكامله تغضَّنَ بصورة انثناءات. ولكنّ شيئًا ما في ابتسامته قضَّ مضجعي؛ فقد ذكَّرَتْنِي بابتسامة أخرى، ابتسامة دمية بصورة مهرِّج دوَّار كانت جدَّة سامي قد اشترتها له من السوق. تلاشت الابتسامة فجأة وحملقت عينا عليّ الآن هنا وهناك في العتمة.

«ما الأمر؟» قلتُ له.

«قيل لي إنكم ثلاثة أشخاص».

أشرتُ إلى الرجل الذي على الأرض.

«هذا سيّئ جدًّا». ثمة نبرةُ حزن غير متوقّعة في صوت عليّ الذي وقف لحظةً فوق جثمان الرجل، وأخفض رأسه، قبل أن ينحني ويأخذ خاتم عرس ذهبي من إصبع الرجل، ووضعه بمهارة في إصبعه. تنهَّد ونظر صوب برج الساعة، ومن ثم صوب السماء. تابَعْتُ حملقته بنظراتي.

«إنّها ليلةٌ صافية. تعلونا قبّةٌ من النجوم. أمامنا أربعُ ساعات قبل شروق الشمس. ينبغي لنا أن نصل أرمناز في الثالثة إذا كنتم تعتزمون عبور الحدود في الرابعة».

«وكم تستغرق الرحلة؟» سألَتْ عفراء.

نظر إليها عليّ في تلك اللحظة وكأنَّه يراها أول مرة، ولكنّه أجاب وعيناه مثبتتان عليَّ: «أقلّ من ساعتين بالضبط. ولن تصعدي معي في الأمام. بل اصعدي في صندوق البِك أپ الخلفي».

كان هناك بقرة في صندوق البِك أپ الخلفي، وقد تناثر روثُهَا على أرضيته. ساعدتُ عفراء في الصعود ووجَّهَنَا السائق بأن نجلس خافضي رؤوسنا لئلا يرانا أحد، وإذا لمحنا أحدٌ، فإنّ القنَّاصة سيقتلون البقرة عوضًا عنَّا. حملقت البقرة فينا. ثم هدَر المحرِّكُ وانطلقت سيارة التويوتا بأهدأ ما استطاعت عبر شوارع الرَّماد، مُتَقَافزةً فوق الركام.

«ثمَّة هاتف يرنّ» قالت عفراء.

«ماذا تقصدين؟».

«أستطيع أن أشعر به يهتزُّ على ساقي، إنَّه في حقيبتك. من يتّصل

بنا يا ترى؟».

فقلت: «هذا ليس هاتفي، فقد أغلقتُ هاتفي».

«هاتف مَنْ إذن؟».

أخرجتُ الهاتف من الحقيبة. وجدت خمسين مكالمةً فائتة. ثم رنَّ مرة أخرى.

كانت المتّصلة زوجة عبَّاس. قالت عفراء:

«مَنِ المتَّصل؟ ردَّ على المكالمة». فقلتُ:

«أعطني حجابكِ».

نَزَعَت عفراء الحجاب عن رأسها وأعطتني إيَّاه، فغطَّيْتُ به رأسي ورددتُ على المكالمة.

«عبَّاس!».

«لا».

«أين أنت الآن يا عبَّاس؟».

«لا، آسف. أنا لستُ عبَّاس».

«أين هو؟ أيمكنني أن أتحدَّث معه؟ هل استطاع أن يخرج مع أحد؟ هل أخرجوه؟».

«عبَّاس ليس هنا».

«ولكنّي كنت أتحدَّث معه ثمَّ انقطع الاتصال».

«متى؟».

«منذ مدة ليست بالطويلة. منذ حوالي ساعة. أرجوكَ دعني أتحدَّث معه».

في تلك اللحظة بالذات توقَّف البِك أب، وأُطْفِئ المحرك، واقترب منا وقع أقدام. سحب السائقُ الحجابَ عن رأسي، ورماه في الصندوق الخلفي، وشعرت ببرودة حادّة بين حاجبي. قال عليٌّ:

«أأحمقٌ أنتَ؟ هل تتمنّى الموت؟» سحب المسدّس ووضعه على جبهتي، وعيناه تلتمعان. عبر الهاتف كانت زوجة عبّاس تقول: «عبَّاس، عبَّاس...». وهي تعيدها ثالثة ورابعة وخامسة.

«أعطني هذا!» قال المهرِّب، فأعطيته الهاتف وانطلقنا من جديد.

كنَّا متَّجهين صوب أورم الكبرى، التي تقع على بعد حوالي عشرين كيلو مترًا إلى الغرب من حلب. تعرَّجنا عبر بقايا المدينة العتيقة؛ الأحياء الغربية تحت سيطرة قوّات الحكومة، فيما سيطر الثوّار على الأحياء الشرقية. بإمكان النهر أن يطلّ على المنطقتين كلتيهما، وهو يجري الآن في المنطقة المحايدة الواقعة بين خطوط الجبهتين المتعارضتين. إذا ما رُمِيَ شيء في نهر قويق من الضّفّة التي تسيطر عليها قوّات الحكومة، فإنَّه يشقّ طريقه في النهاية ويصل إلى الثوَّار. بينما وصلنا طرف المدينة مررنا بيافطة ضخمة عليها صورة بشَّار الأسد، عيناه الزرقاوان تلتمعان، مثل جوهرتين، حتّى في العتمة.

كانت اليافطة في حال سليمة، لم يمسسها أذًى على الإطلاق.

وصلنا الطريق المزدوج الذي تعبره السيّارات فانفتح العالم فجأة، حقول سوداء تحيط بنا من كلّ حدَب وصوب، أشجار التوت وأشجار الزيتون زرقاء تحت القمر. أعرف أنّ الثوّار والقوّات السورية خاضوا معارك وسط المدن المنسيّة، وهي تسميةٌ تُطْلَقُ على مئات من البلدات الإغريقية-الرومانية المهجورة منذ زمن بعيد وهي مبعثرةٌ في الريف الواقع خارج حلب. في هذا الخواء الأزرق، حاولت أن أنسى الوقائع التي أعرفها، الوقائع التي كنت قد سمعتها. سأحاول أن أتخيَّل أنَّه ما من شيء طالته يد الأذى. تمامًا مثل عيني بشار الأسد الزرقاوين. فما خسرناه لن يعود أبدَ الدهر. القلاع الصليبية، المساجد والكنائس، لوحات الفسيفساء الرومانية، الأسواق العتيقة، المنازل، البيوت، القلوب، الأزواج، الزوجات، البنات، الأبناء. الأبناء! تذكَّرْتُ عيني سامي، تذكَّرتُ اللحظة التي غاب فيها عنهما الضوء وتحوَّلتا إلى بلُّور.

عفراء ديدُنها الصمت. شعرُها مُرخًّى الآن، لونه لون السماء. نظرتُ إليها وهي تجلس هناك، وهي تحكّ بشَرَتها، وقد صار وجهها الأبيض أكثر شحوبًا من المعتاد. بدأت عيناي تغمضان، وعندما فتحتهما تبيَّنَ لي أنّنا قد وصلنا أورم الكبرى وأمامنا هيكلُ شاحنة مقصوفة. كان سائقنا يذرع المكان جيئة وذهابًا وقال إننا ننتظر قدوم أم وطفلتها.

كان المكان خاويًا على عروشه. ولا يمكن تمييزه. استبد القلق بعلي فقال:

«علينا الوصول قبل شروق الشمس. لأننا إنْ لم نصل قبل شروقها، فلن نصل أبدًا».

من غياهب العتمة، بين المباني، ظهر رجلٌ يقود درَّاجةً هوائية. فقال علي:

«دعوني أتولَّى زمام الحديث كاملًا معه. فنحن لا نعرف هُويّته. وربَّمَا يكون جاسوسًا».

عندما اقترب الرجل رأيتُ أنه كان أشيب الشعر بلون الإسمنت، لم يبدُ من الممكن أن يكون هذا الرجل جاسوسًا، ولكنَّ عليًّا لم يكن ليقدمَ على أي مخاطرة.

قال الرجل: «لا أدري إذا كان معكم أيّ ماء». فقال علي:

«لا بأس يا صديقي، فمعنا بعضُ الماء». ثم أخرج قنينة من المقعد المجاور لمقعده وأعطاها لهذا الرجل، الذي شربها وكأن العطش استبدَّ به مئة عام.

«معنا بعضُ الطعام أيضًا». أخرَجَ عليٌّ حبَّة بندورة من كيس.

مدَّ الرجل يده، وراحته مفتوحة، وكأنّه يتلقّى سبيكة من الذهب. ومن ثَم، وقف هناك على تلك الحال، دونما حراك، وحبَّة البندورة على راحة يده، وهو يتفحَّصُنا واحدًا واحدًا، ثم قال:

«إلى أين أنتم ذاهبون؟» فقال علي:

«ذاهبون لزيارة خالتي؛ فقد شفَّها المرض».

أشارَ إلى الطريق في الأمام ليدلّه على أيّ طريق سنسير فيها. ومن ثم، ودون أن يقول كلمة أخرى، وضع الرجل حبّة البندورة داخل سلّة على درّاجته، وركبها ثم انطلق، ولكن وعوضًا عن أن يبتعد بها، دار دائرة كبيرة في الطريق وعاد إلينا وقال:

«المعذرة، لقد نسيت، أريد أن أخبرَكم بأمر». سحب يده فوق وجهه، ومسح بها بعض التراب لذا صارت آثار أصابعه على خدَّيه عندئذ، وكشفت عن بَشَرَة بيضاء.

«إنَّها لقلَّةُ مروءة أن آخذ منكم الماء والبندورة وأغادر دون أن أخبركم. كنت سأخلد الليلة إلى النوم وأتساءل إذا صرتم أمواتًا أم بقيتم أحياء. إذا سلكتم الطريق الذي أشرتَ إليها، فستجدون قنَّاصًا يعتلي خزّانَ ماء على مسافة حوالي خمسة كيلومترات. سيراكُم. وأودُّ أن أنصحَكم نصيحةً قويّة أن تسلكوا هذه الطريق عِوضًا عن ذاك». وأشار إلى طريق ترابية تُفضي إلى درب يصل إلى القرى، وأوضح لنا أيّ طريق نسلكها من هناك بحيث ينتهي بنا الأمر في نهاية المطاف بالعودة إلى الطريق الصحيح.

قرَّر عليٌّ ألَّا ينتظر الأمّ والطفلة أكثر من ذلك، وقرَّرْنا أن نثق بهذا الرجل وأن نسلك التحويلة، في انعطافة على اليمين على الطريق الريفيّ الذي سيأخذنا بين بلدتَي زَرْدَنَا ومعرّة مصرين.

«أين نحن؟» قالت عفراء بينما كنَّا نقرقع عبر الدروب الريفية. «ماذا ترى؟».

«ثمة شجيراتُ عنب وأشجارُ زيتون تمتدُّ حولنا على مدى عدة

أميال. المنظر معتمٌ ولكنّه جميلٌ جدًّا».

«مثلما كان عهده؟».

«وكأنَّ يدًا لم تمسسْه».

أومَأتْ برأسها وتخيَّلتُ أنه لم يكن هناك حرب، وبأنّنا كنَّا ذاهبون فعلًا لزيارة خالتنا المريضة، وأنّنا عندما نصلُ فإنّ المنازل والشوارع والناس سيكونون كما كانوا دائمًا. هذا ما أردته: أن أكون مع عفراء في عالم لم تنل منه يد الدمار.

بينما ترجرَج البِك أپ وهو يكاد لا يُحْدِثُ أيّ صوت على طول الدرب الريفيّ، أجبرتُ نفسي على البقاء مستيقظًا، وتنسَّمتُ عبير الليل السوريّ بنجومه التي لم يطلها الدمار وكرومِه التي لم يغشاها الخراب. شممت رائحة ياسمين الليل، ومن مسافة بعيدة شذى الورود. تخيَّلتُ حقلًا هائلًا منها، تخيَّلتُ ومضات الحمرة في نور القمر في الحقول الهاجعة، آنَ يصل العمّال فجرًا ويجمِّعُونَ البتلات السميكة في الصناديق. وحينئذ يمكنني أن أرى مَنَاحِلِي في الحقل المجاور، داخل الخلايا تنتشر صفوفٌ من قرص العسل في إطاراتها، وكلّ إطار يحوي أشكالًا سداسيّة ذهبية رقيقة. في أعلاها الملاءات ومن الفجوات في الجوانب تطنُّ النحلات العاملات، داخلات وخارجات، وهي تعصرُ الشمع من غددها، ثم تمضغُه لتنشئ صفًّا إثرَ صفّ من المضلَّعات المتناسقة، قُطْر كلّ واحد منها خمسة ميلمترات، وكأنّها كانت تضع أحجارًا كريستالية. وملكة النحل في عرينها، ومعها بضعة من حاشيتها، وعطرها الملكيّ يقوم مقام مغناطيس جاذب

للسرب. والطنين، ذلك الطنين الموسيقيّ الهادئ الذي استمرَّ إلى الأبد، أتخيَّل كيف طارت النحلات حولي، متجاوزةً وجهي، لتعلقَ في شعري، ومن ثم تسحب نفسها، لتنطلق مرَّةً أخرى.

ثم مرَّ ببالي مصطفى، تذكَّرْتُه في الأيام التي كان يصل فيها المناحل قادمًا من الجامعة مرتديًا بذلته، وهو يحمل تِرْمُوسَ قهوة وحقيبة ظهر معبَّأة بالكتب والأوراق. ومن ثم يبدِّل ثيابه ويرتدي رداءَه الواقي من لسعات النحل وينضم إليَّ، متفحِّصًا أقراص العسل، وتجانس العسل ورائحته وطعمه، حيث يغمس فيه إصبعه ويتذوقه ثم ينادي قائلًا: «نوري! نوري! كما تَعْلَم، أظنُّ أنَّ نحلنا ينتج أجودَ أنواع العسل في العالم!» وبعدئذ وعندما تغيب الشمس، نترك النحلَ ونتَّجه صوب البيت عبر زحمة المدينة. أجدُ سامي ينتظر قرب النافذة، وقد ارتسمت على محيَّاه نظرةُ من فَعَل فعلًا خاطئًا، وتفتح عفراء لي الباب الأمامي.

«نوري. نوري. نوري».

فتحتُ عينيَّ وقلت: «ما الأمر؟».

كان وجه عفراء قريبًا من وجهي، وقالت: «كنتَ تبكي. سمعتُكَ تبكي». بكلتا يديها مسحَت دموعي. نظَرَتْ في عينيَّ، وكأنَّها قادرةٌ على رؤيتي. في تلك اللحظة استطعتُ أن أراها أيضًا، رأيتُ المرأة التي بداخلها، المرأة التي فَقَدْتُ. كانت هناك معي، وروحُها مفعمة بالحياة وحاضرةٌ وصافية كالضوء. في تلك الثواني القليلة لم أعد خائفًا من الرحلة، لم أعد خائفًا من الطريق الذي أمامنا. ولكن في

اللحظة الموالية اسودَّتْ عيناها، ماتتا، وخارت قواها وابتعدت عنّي، فعرفتُ أنّي لا أستطيع إجبارها على البقاء معي. لم يكن ثمَّة ما أقوله لها لأستعيدها حالما اخْتَفَت. عليَّ أن أدعها تذهب وأنتظرُها حتى تعود.

تحاشينا دخول معرة مصرين ومن ثَمَّ عاودنا سلوك الطريق المزدوج، فمررنا بجبل ثمَّ اجتزنا الوادي الواقع بين قريتي حربنوش وكفربني لنقترب أخيرًا من أرمناز. هناك، أمامنا، رأينا أضواء الكشّافات الضخّمة على الحدود التركية، وهي تسطع فوق الأرض المستوية مثل شمس بيضاء.

بين أرمناز والحدود نهرُ العاصي الذي يفصل بين تركيا وسوريا وكنت أعرف أنَّ علينا عبورَه. أوقَفَ السائق اليك أپ في مكان مظلم تحت بعض الأشجار وسار أمامنا عبرَ درب داخل غابة. كانت عفراء تمسك يدي بإحكام، وأحيانًا تتعثَّرُ وتسقط، فاضطررت أن أرفعَها وأمسك بها حول خصرها. ولكنّي استطعت بصعوبة الرؤية في تلك العتمة، وتحرَّكَت أشياءُ داخل الأوراق والأغصان. ثمَّ سمعتُ أصواتًا ليست عنَّا ببعيدة، ومن ثمَّ، بينما خرجنا من الغابة، رأيتُ ثلاثين أو أربعين شخصًا واقِفِينَ كالأشباح على ضفّة النهر. ثمَّةَ رجلٌ ينزل فتاة صغيرة إلى قِدْر ضخمة؛ قدر من النوع الذي نستخدمه في العادة لسلق الكسكس. القدر متصلة بحبل غليظ طويل بحيث يتسنَّى للرجال على ضفّة النهر الأخرى سحبها. كان هذا الرجل يحاول مساعدة الفتاة على الجلوس في القدر، ولكنّها كانت تبكي وقد أحاطت ذراعيها كلتيهما حول رقبته وما كانت لتفلتهما. فقال الرجل:

«اصعدي، أرجوكِ. اذهبي مع هؤلاء الناس الطيِّبين وسأراك على الضفّة الأخرى». فقالت:

«ولكن لماذا لا تأتي معي؟».

«أعدك بأنّي سأراكِ على الضفّة الأخرى. أرجوكِ كُفِّي عن البكاء. سوف يسمعوننا». ولكنّ الفتاة ما كانت لتُصغي. لذلك فقد دفعها داخل القدر وصفعها بعنف على وجهها. جلست مصدومة، ويدها على خدها، ثم سحب الرجال الحبل فانزلقت القدر مبتعدة وفيها الفتاة. عندما غابت عن الأنظار كلّيةً، جلس الرجل على الأرض، وكأنّه لم تعد فيه أيّ حياة، وبدَأ النحيب. أعرف أنه لن يراها مرَّة أخرى. وعندئذ نظرتُ إلى الوراء. ما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك، ولكنّي أشحتُ بنظري عن حشد الناس ونظرتُ إلى الخلف داخل العتمة صوب الأرض التي كنت أغادرها. رأيتُ الفتحة بين الأشجار، رأيتُ الدَّربَ الذي يمكن أن يعيدني إلى الطريق التي جئت منها.



4

ثمّة نزيلٌ جديدٌ في منزل الإقامة المؤقّت. كتفاه مُدَبَّبتانِ جدًّا وظهرُه محدودبٌ جدًّا حتى إنّه عندما يجلس في الكرسيّ، محدودبًا، يبدو ظهره وكأنَّ له نتوءين تحت قميصه. إنه يتحدَّث مع المغربي وكلاهما يحاول أن يتواصل بلغة لا يعرفها عزَّ المعرفة. يبدو أنَّ المغربي يحبُّ هذا الشابّ. اسمُه ديوماندي وهو من ساحل العاج. ينظر إليَّ نظرات خاطفة بين الفينة والأخرى أثناء حديثه، ولكنِّي لا أُظْهِرُ له أنّي أعيره أي انتباه.

النحلة لا تزال حيَّة. حدَّدْتُ موقعها في الحديقة إذ لا تزال جاثمةً على الزهرة ذاتها التي تركْتُهَا عليها. مرَّة أخرى، داعبْتُهَا على يدي وأدخلتها معي إلى غرفة الجلوس، وها هي الآن تزحف صاعدة ذراعي. عيناي مثبتتان على أبواب الفناء المرصوف معظم الوقت. أركِّزُ نظري على انعكاس صورة ديوماندي فيها وعلى الظلال المنقَّطَة للأشجار خلفها. يقول ديوماندي:

«كنتُ أعمل في الغابون، ونصحني القومُ هناك بالذهاب إلى ليبيا؛ لأنه توجد فيها فرصٌ عديدة. قال صديقي إنَّ ليبيا تشهد حربًا ولكنّ الوضع آمن الآن، ولذلك قرّرت الذهاب للحصول على عمل جيِّد.

دفعتُ خمسة عشر ألف فرنك[1] مقابل رحلة تستمرّ ثمانية أيام في السيَّارة عبر الصحراء، ولكن قُبِضَ عليَّ وأودعتُ السجن». ها هو يضع مرفقيه على ركبتيه وهو يتحدث، وبينما يتحرَّك ترتفع فراشتا عظم كتفَيه، فظننت أنَّ نتوءَيه موشكان على أن ينفتحا مثل جناحين. هو فارع القامة هزيل، وركبتاه مرتفعتان كما لو أن جسده مثنيٌّ على نفسه. يتابع قائلًا:

«ارتحلنا ثلاثة أيام دونما طعام، وربَّمَا لم نأكل سوى بعض الخبز والماء، واشتركَ عددٌ كبيرٌ منَّا في أكلها وشربها. لقد ضربونا ضربونا طوال الوقت. لا أعرف من هم، ولكنهم طلبوا بعد ذلك مئتي ألف فرنك لقاء حرّيتي. اتصلت بأسرتي ولكنّ المال لم يأتِ قطّ».

يعدِّل من جلسته الآن ويضع أصابعه البنّية الطويلة على ركبتيه. أشيح ببصري عن انعكاس صورته في الباب وأنظر إليه نظرةً متمعنة، نظرةً إلى الطريقة التي انتَفَخَتْ فيها براجمه وجحظت عيناه. هذا الشابُّ عظمٌ على عظم؛ لا لحمَ يكسو جسدَه، وكأنَّ الطيور نهشته، فهو مثلُ جثّة أو بناء دكّته القنابل. ينتبه لنظرات عيني ويحدِّق فيهما لحظة، ومن ثَمَّ يرفع بصره صوب السقف إلى لمبة الضوء العارية من غطاء يحميها.

«إذن، كيف خرَجْتَ من الأسْر يا جيزير؟» يقول المغربيّ وقد عيل صبرُه من مواصلة سماع بقيَّة القصَة.

---

(1) فرنك دول غربي إفريقيا، وهو العملة المستخدمة في ثمانية بلدان هي بنين وبوركينا فاسو وغينيا-بيساو وساحل العاج ومالي والنيجر والسنغال وتوغو. وقد اتفقت تلك الدول على استبدال الإيكو بالفرنك الإفريقي مع مطلع 2020.

«بعد ثلاثة أشهر اقْتَحَمَت علينا السجنَ ميليشيا منافسة وأطلقت سراحَ كلٍّ الرهائن. صرتُ حرًّا، فمشيتُ إلى طرابلس حيث وجدتُ صديقي ووجدتُ عملًا».

«أنا سعيد من أجلك!» يقول المغربيّ.

«ولكنّ ربَّ عملي الجديد لم يدفع لي أجري، وعندما طالبْتُه به قال إنَّه سيقتلني. أردتُ العودة إلى الغابون ولكن لم يكن من سبيل للعودة، ولذا فقد صعدتُ في مركب من مراكب المهرِّبين لعبور البحر المتوسط».

يسترخي المغربي الآن في الكرسيّ ذي الذراعين، ويتابع بنظراته حملقة الشابّ صوب اللمبة المتدلية من السقف.

«نجَحْتَ في عبور المتوسط. كيف فعلتَ ذلك؟».

«هذه حكاية طويلة» يقول ديوماندي، ولكنَّه لم يزد على ما قاله. فهو يبدو متعبًا الآن، وعلى الأرجح أنَّ المغربي لاحظ هذا فما كان منه إلَّا وربَّتَ على ركبة الشابّ وغيَّر الموضوع، وشرع يحكي له عن العادات الغريبة التي ينتهجُها الناس هنا.

«إنهم ينتعلون الأحذية الرياضية ويرتدون البذلات في الوقت ذاته. من يرتدي حذاءً رياضيًا وبذلة معًا؟ كما أنَّهم يرتدون ثياب النوم خارج بيوتهم! لماذا؟».

«هذه بذلة تدريب رياضية» يقول ديوماندي، وهو يشير إلى بذلته.

عادة ما يكون المغربي مرتديًا بيجامته في هذا الوقت من الليل، ولكنّه يرتدي أثناء النهار بذلة قديمة رمادية تشوبها زرقة مع ربطة عنق.

أنتظرُ حتَّى يخلدا إلى النوم، فأخرجُ إلى الحديقة حيث أعيد وضع النحلة مرة أخرى على الزهرة. صوت حركة السيَّارات ناعم، وثمَّة نسيمٌ يهب مثيرًا أوراق الشجر. لم يلحظني مستشعر الباب، والعتمة تسكِّن النفس، والقمر بدرٌ ومرتفع في كبد السماء. في تلك اللحظة أشعرُ بوجود شخص يقف ورائي. عندما ألتَفِتُ، أجدُ محمَّدًا جالسًا على الأرض يلعب بالبلْيَة، وهو يدحرجها داخل شقوق الأرضية الإسمنتية. بجانبه دودةٌ تَنزلق داخل بركة ماء. يرمقني بنظرة خاطفة ويقول:

«عمِّي نوري، لقد فزتُ على الدودة! اسمُها حبيبة. أتريد أن تسلِّم على حبيبة؟».

يمسكُ الدودة ويرفعها عاليًا لي حتى أراها. فأقول له:

«ماذا تفعل هنا؟».

«جئتُ أبحث عن المفتاح لأني أريد الخروج». فأقول:

«أيَّ مفتاح؟».

«أظنُّه في تلك الشجرة. إنه معلَّقٌ هناك ولكنّي لا أعرف أيُّهُ المفتاح الصحيح».

أَلْتَفِتُ فأرى أزيدَ من مئة مفتاح ذهبي تتدلَّى من الشجرة. مئة

مفتاح يتلاعب بها النسيم وتلتمع في نور القمر. ثم يقول:

«هلَّا أعطيتني المفتاح يا عمِّي نوري؟ فأنا لا أستطيع الوصول إليه كما أنَّ حبيبة تَعْبَانَة».

أنظر إلى حبيبة تتدلَّى من بين أصابعه. ثم أقول:

«بالتأكيد، ولكن كيف لي أن أعرف أيَّ مفتاح تريد؟».

«أحْضِرِ المفاتيح كلَّها ومن ثم سنجرِّبُهَا حتى نجد المفتاح الصحيح».

أمضي إلى المطبخ فأجد وعاء كبيرًا. يجلس محمَّد بصبر وهو ينتظر عودتي ومن ثم أبدأ بنزع المفاتيح عن الشجرة -ثمَّة سلَّم نقَّال في الحديقة، فأستعين به للوصول إلى المفاتيح المعلَّقَة على الغصون الأكثر ارتفاعًا. سرعان ما يمتلئ الوعاء تقريبًا، وأتأكّد أكثر من مرَّة من عدم ترك أي مفاتيح معلقة على الشجرة. عندما ألتفتُ، ممسكًا الوعاء، لا أجد محمَّدًا، وأرى الدودة تمضي في طريقها صوب البُرَيْكَة.

أمضي بالوعاء إلى الداخل وأصعد به إلى الأعلى إلى غرفة النوم، حيث أضعه على المنضدة التي بجانب السرير من جهة عفراء، بجانب البِلْيَة. أتوخَّى شديد الحذر كي لا أوقظها. ثم أضطجع قربها. هي قبالتي وعيناها مغمضتان وكلتا يديها محشورتان تحت خدِّها، فأستنتج أنها نامت بسرعة لأن نفَسَها بطيءٌ وخفيضٌ. ألتفتُ إلى الجهة الأخرى وأحدِّق في العتمة لأنّي لا أستطيع أن أغمض عيني. تعود بي الذاكرة إلى أيامنا في



إِسْطَنْبُول

ثمَّة

وأ-

صغ

إلينا

هي المدينة الذي التقيتُ فيها محمَّدًا.

على الضفّة الأخرى لنهر العاصي ثمَّة سورٌ من الأسلاك الشائكة فيه فتحةٌ قطرُها حوالي مترين، مثل فاه فاغِر. رمى الناس أغرَاضَهُم فوق السور ومرَّرُوا الأطفال الرضَّع عبر الفتحة. كانت الظلمة لا تزال مدلهمة فطلب منّا المهرِّبون أن نستلقي على بطوننا، وأن نزحف على أيدينا ورُكَبِنَا عبر الأرض المستوية المملوءة بالتربة المغبرَّة والخنشار.

حالما وصَلْنَا تركيا، مشينا مسافة بدا أنّها مئة ميل، عبر حقول القمح والشعير. كان الجوُّ هادئًا وعفراء تتأبَّط ذراعي مرتجفةً لأنّ البرد لا يُحتمل. كان قد مضى حوالي نصف ساعة على رحلتنا عندما رأينا من بعيد طفلًا يركض إلى الطريق، وقد تشكَّل خياله الأسود المنعكس في الشمس. كان يلوِّح لشخص ما ومن ثم انطلق يعدو في اتجاه بعض المنازل.

اقتربنا من إحدى القرى، قرية ذات بيوت صغيرة من طابق واحد، لها شرفات، ودرفات نوافذها مفتوحة، الناس ينظرون من النوافذ، وآخرون خرجوا من بيوتهم، ووقفوا على جانب الطريق، عيونُهم مفتوحة على اتساعها دهشةً وكأنّهم كانوا يشاهدون سِرْكًا جوَّالًا. ثمَّةَ مائدةٌ طويلة عليها أكواب بِلاستيكية وأباريق ماء. توقَّفْنَا وشربنا، وأحضرت نساء القرية لنا البطّانيّات. أعطيْنَنَا خبزًا وكَرَزًا وأكياسًا صغيرة مملوءة بالجوز واللوز، ومن ثم عُدْنَ إلى الوراء وهنَّ ينظرن إلينا ونحن نغادر. أدركتُ بعد ذلك بأن النظرة التي أسأتُ الظنَّ بها

على أنها نظرة دهشة إنما كانت نظرة خوف في الحقيقة، وتخيَّلتُنا وقد تبادلنا الأدوار معهنَّ، تخيَّلتُ نفسي مكانهنَّ؛ وأنا أرى مئات من الناس وقد هدَّتْهُم الحربُ وهم يتَّجهون إلى مستقبل مجهول.

مشينا ساعةً أخرى على الأقل، فاشتدَّت الريح، وصارت تدفعنا إلى الوراء. ثم فاحت بعد ذلك رائحةٌ مفاجئةٌ صادرةٌ عن مجرور صرف صحّي وإذا بنا في حقل مكشوف. انتشرت الخيام في كلّ مكان ورأينا الناسَ نيامًا على البطّانيّات وسط القمامة.

وجدتُ مكانًا تحت بعض الأشجار. ثمّة إحساس بالهدوء هنا؛ إحساسٌ لم يكن مألوفًا لي؛ ففي سوريا، الهدوء يحمل في رَحِمِهِ نُذُر الخطر، إذ يمكن أن يتشظّى في أيّ لحظة بانفجار قذيفة أو صوت إطلاق النيران أو وقع الخطوات الثقيلة للجنود. في مكان ما في البعيد، في اتجاه سوريا، زُلْزِلَتِ الأرضُ.

هبَّت الرياح آتيةً من الجبال، جالبةً معها رائحة الثلج. تلتمع في بالي صورةٌ؛ صورةُ الوهج الأبيض لجبل الشيخ، أول ثلج أراهُ في حياتي، منذ عدَّة سنوات خلت، وسوريا عن الشِمَال ولبنان عن اليمين، والحدود بينهما تعلِّمُها حافة الجبل، والبحر البعيد في الأسفل. كنّا قد وضعنا بطيخة في النهر وقد تشقَّقَت بفعل البرد. كانت أمي تأكل البطيخة الخضراء المتجمِّدة. ما الذي كنّا نفعله هناك في قمَّة العالم؟

قال رجلٌ بجانبي: «عندما تتعلّق بأشخاص معيّنين ثم يرحلون، فما قيمتك بعدهم؟» بدا الرجل هزيلًا، متّسخ الوجه، أشعث الشعر، على بنطاله بُقَعٌ، وتفوح منه رائحةٌ كريهةٌ؛ رائحةُ بول. ثمَّة أصواتٌ في

العتمة، مثل صرخات حيوانات، فحسبت أنّي شممت عفونة الموت. أعطانا هذا الرجل قنينة ماء وطلب منّي أن أجلس فوقها برهةً لكي أدفئَها قبل أن نشربها. حلَّ الليل ورحل ثم طلعت الشمس. وجدْنَا على الأرض طعامًا ولحافًا جديدًا. كما أحضَر أحدُهم خبزًا قاسيًا وموزًا وجبنًا. فأكَلَتْ منه عفراء، ومن ثم غطَّت في النوم مرة أخرى ورأسها على كتفي.

«من أين أنتما؟» قال الرجل.

«من حلب. وأنت؟».

«من شمالي سوريا». ولكنَّه لم يحدِّد من أين.

أخرَج آخر سيجارة من علبة سجائر وأشعلها. دخَّنَها ببطء، محملقًا بنظره عبر الأرض القاحلة. ربما كان رجلًا شديد البأس ذات يوم، ولكن ما من لحم يكسو جسدَه الآن. سألتُه:

«ما اسمك؟».

«فقدتُ ابنتي وزوجتي»، قال وهو يدَعُ عقب سيجارته يسقط إلى الأرض. ذلك كل ما قاله عن المسألة بصوت خفيض لا نبرة فيه. ولكنه بدا بعدئذ وكأنَّه يُعْمِلُ التفكير في أمر ما، ثم قال بعد انتظار، بعد صمت مديد: «بعض الناس... بعض الناس مرَّ على وجودهم هنا شهرٌ. الأفضل للمرء أن يتجاوز التعامل مع السُّلطات ويجد مُهرِّبًا. معي بعض المال». رمقني بنظرة خاطفة، يملؤه الأمل، ليرى ماذا سأقول. فقلتُ:

«أتعرفُ كيف السبيل إلى ذلك؟».

«لقد تحدَّثتُ مع بضعة أشخاص، وتوجد حافلةٌ يمكن أن تُقلَّنا إلى البلدة المجاورة، ومن هناك يمكننا أن نجد مُهرِّبًا. رأيت أناسًا يذهبون ولا يعودون. لا أريد أن أجرِّب وحدي».

عندما وافقتُ على الذهاب معه قال لي إنَّ اسمَه إلياس.

في ما تبقَّى من ذلك النهار، انهمك إلياس في مهمَّة؛ فقد تحدَّثَ مع بضعة أشخاص، واتَّصَلَ من هاتفي المحمول عدَّة اتصالات، وقد كان في بطاريته كمّية ضئيلة من الشحن. مع حلول العصر كان قد رتَّب لنا ثلاثتنا لقاءً مع مُهرّب في البلدة المجاورة ومن هناك سنشدُّ الرِّحال إلى إسطنبول. استغربتُ سهولةَ ترتيب الأمر، وبأنَّ هناك شبكةً منظَّمَة للمحظوظين منَّا ممّن معهم ما يكفي من المال لدفع تكاليف ذلك.

في اليوم الموالي مشينا إلى محطَّة الحافلات واستَقَلَّيْنَا الحافلة إلى أقرب بلدة، وهناك التقينا المهرِّبَ، وهو رجلٌ قصيرٌ مصابٌ بالربو له عينان تتحرَّكان بسرعة مثل الذُّباب. أخذَنا في سيارته إلى إسطنبول. عندما وصلنا، لم يكن إلياس بعيدًا كثيرًا عنِّي. أبنية المدينة طويلة ولامعة، عتيقة وحديثة، متلملمة حول البوسفور، حيث يلتقي بحرُ مرمرة البحرَ الأسود. كنت قد نسيتُ أن الأبنية يمكن لها أن تبقى شامخة، وأن هناك عالمًا كاملًا في الخارج لم يلحق به الدمار مثلما حلَّ بحلب.

في الليل، نمنا على الأرض في شقةّ المهرِّب. الشقَّة فيها غرفتان، واحدة للنساء وأخرى للرجال. في غرفتي، ثمَّة صورةٌ على الجدار لأسرة عاشت هناك من قبل. الصورة شبه بيضاء بسبب أشعة الشمس وتساءلتُ أين يكونون وإلى أين ذهبوا. الليل بارد وهبَّت الريح آتيةً من البحر، وصفَرَت تحت إطارات الأبواب الخشبية وعتبات النوافذ وجلبَتْ معها نباح الكلاب وأصوات السيَّارات. كان المكان أدفأ بكثير من الأرض العراء المفتوحة، فعلى الأقل يوجد هنا حمَّامٌ نلوذُ به وسقفٌ فوق رؤوسنا.

في الصَّباح الباكر، عندما بدأت الطيورُ شدْوَها، نهض الناس من نومهم وصلَّوا. ما من شيء نفعله سوى الانتظار، وفي كل يوم كان المُهَرِّب يعود من حيث كان يختبئ ويبلغنا بأحوال الطقس وحال البحر. لم نستطع المخاطرة بعبور البحر أثناء هبوب الريح العاتية. عندما غادَرَنَا، تحدَّث الناس برهةً، وهم يروون القصص عن أشخاص لم يفلحوا في العبور إلى اليونان، عن أُسَر بأكملها، عن رجال ونساء وأطفال، فُقِدُوا في البحر. لم أشاركهم أحاديثهم تلك؛ بل أصغيتُ وانتظرتُ هدوء العاصفة. جلست عفراء على كرسيّ من الخيزران قرب النافذة، رأسها يرتعش بدرجة خفيفة يسرةً أو يمنةً، وهي تصغي إلى كل شيء.

عندما ذهبْتُ صوبَهَا قالت: «نوري، لا أريد أن أذهب».

«لا يمكننا البقاء هنا».

«ولمَ لا؟».

«لأننا إذا بقينا هنا فسنعيش في المخيَّمات إلى الأبد. أهذا ما تريدينه؟».

«لا أريد أيَّ شيء بعد الآن».

«ستتعثَّرُ حياتنا. فكيف لي أن أجد عملًا هنا؟».

لم ترُدّ.

«لقد بدأنا الرحلة ولا معنى لأن نستسلمَ الآن».

نَخَرَت ممتعضة.

«كما أن مصطفى ينتظرنا. ألا تريدين رؤية ذَهَب؟ ألا تريدين الاستقرار والأمان؟ لقد هدَّت كياني هذه الطريقة التي نعيش بها».

«أنا خائفةٌ من البحر». قالت بعد انتظار.

«أنتِ خائفةٌ من كلّ شيء».

«غير صحيح».

آنئذ، لاحظتُ الصبي الصغير، في حوالي السابعة أو الثامنة من عمره، جالسًا، شابكًا ساقَيه على الأرض، مُدَحْرجًا بليَةً على البلاطات. ثمَّةَ أمرٌ غريب يكتنفُه، وكأنّه كان خارجَ المكَان، تائهًا في عالمه الخاصّ. بدا أنَّه وحدَه هناك.

فيما بعد، عندما ذهبتُ إلى الخارج لأقف على الشرفة، تبعني الصبيُّ ووقف بجانبي برهةً، وهو ينقل ثقل جسده من قدم إلى أخرى،

وينقر أنفَه بإصبعه، ثم يمسحُه على مؤخّرة بنطاله الجينزي.

«هل سنسقط في الماء؟» قال، ومن ثم نظر إليَّ بعينين مفتوحتَين دهشَةً، مثلما كان يفعل سامي.

«لا».

«مثل الناس الآخرين؟».

«لا».

«هل ستأخذ الريح القارب؟ وهل سينقلب القارب في الماء؟».

«لا. ولكن إنْ حصل ذلك فمعنا سترات نجاة. سنكون على ما يرام».

«والله -ارحمنا يا الله- هل سيمدُّ لنا يدَ العون؟».

«نعم. سيمدُّ لنا الله يد العون».

«اسمي محمَّد» قال الصبي.

مدَدْتُ يدي فصافَحَني مصافحة قوية كمصافحة الرجال.

«سُرِرْتُ بمعرفتك يا محمَّد. أنا نوري».

نظر الصبي إليَّ مرة أخرى، هذه المرة عيناه أكثر اتساعًا، ومليئتان بالخوف وقال: «ولكن لماذا لم يمدَّ يد العون للصبية عندما قَطَعُوا رؤوسهم؟».

«ومَنْ قَطَعَ رؤوسَهم؟».

«عندما وقفوا في صفّ وانتظروا. لم يكونوا يرتدون ثيابًا سوداء. ذلك هو السبب. قال أبي إنّ السبب هو أنّهم لم يكونوا يرتدون ثيابًا سوداء. أنا كنت أرتدي ثيابًا سوداء. أترَى؟».

ثم شدَّ قميصه الأسود الملطَّخ.

«عمَّ تتحدَّث؟».

«ومن ثمَّ أعطاني أبي مفتاحًا وطلب منّي الذهاب إلى أحد المنازل، وقد دلَّنِي على مكانِه، وطلب منّي دخوله وإقفال الباب. ولكن عندما وصلت إلى هناك وجدتُ المنزل بلا باب». أخْرَجَ مفتاحًا من جيبه الخلفي وأراني إيَّاه، وكأنه كان لا يزال يتوقع أن يجد الباب الذي يناسبه المفتاح. ومن ثم دسَّه مرَّة أخرى في جيبه.

«ولكن الله سيساعدنا ونحن في الماء؟ لأنَّهُم لا يستطيعون العثور علينا في الماء».

«نعم، سيساعدنا في عبور البحر».

لانَتْ كتفا محمَّد وبقي بجانبي برهةً وهو مُرْتَد بنطاله الجينزيّ الأسود وكنزته السوداء، وأظافر أصابعه سوداء وعيناه سوداوان. مع مرور الأيَّام أدركتُ أنَّه ما من شخص آخر تحدَّث مع محمَّد، وبعد حديثنا على الشرفة، كان ينظر إليَّ دائمًا نظراتٍ خاطفةً، وهو يبحث باستمرار عن مكان وجودي. أظنّني جعلته يشعر بالأمان.

في اليوم الثالث، ذهبتُ أتمشَّى. ثمَّة ممرٌّ إسمنتي يفضي إلى أعماق غابة، وإذا ما تابَعْتَ السير فإنّ الممرَّ يُفضي في نهاية المطاف إلى الأبنية الكبيرة. لم يكن هناك غيوم كثيرة، الطقس يشبه كثيرًا طقس سوريا، وربّما يكون ألطف منه بدرجة خفيفة. كانت السماء تعجّ بالضباب الناجم عن التلوّث، وخصوصًا في الصباح، ضباب رماديّ كثيفٌ يطفو فوق الماء والشوارع. لم يكن الضباب نظيفًا مثل صقيع شَتَويّ، بل مليئًا بروائح المدينة وأهلها.

في اليوم الرابع، قرَّر إلياس أن يشاركني المشي. نادرًا ما تكلَّم، ما لم يكن يريد أن يقول شيئًا عن الطقس، الطقس الذي كان تقريبًا على ديدنه ذاته كلّ يوم على أيّ حال، ولكنَّه علَّق على التغيُّرات الصغيرة فيه؛ بتعليقات من قبيل: «الضباب أشدُّ كثافة هذا الصباح» أو «ثمَّة ريحٌ عاتية هذا المساء». إذ أدلى دائمًا بتعليقات يعرفها القاصي والداني نظرًا لأنّها واضحة، ولكنّ الطقس أصبح مهمًّا لنا ونحن ننتظر ونترَّقب مؤشرات تدلّ على أنَّ البحر سيهدأ، حتَّى يتسنَّى لنا مواصلة رحلتنا.

ونحن نمشي، أدركتُ وجود كائنات أخرى، مثل القطط، التي ذكَّرَتْنِي بحلب؛ وكيف كانت تستيقظ من نومها وتنتظر طوال النهار في الظلال لتظفر بالطعام. تذكَّرْتُ كلاب الشوارع أيضًا، الكلاب الشعثاء التي لا يمكن التنبؤ بسلوكها، بندوبها القديمة وجروحها الجديدة، الناجمة عن الإصابات أو المرض أو الحوادث. بدت كلُّها على شاكلة واحدة وذات فراء بني فاتح وغامق أحيانًا. انتشرت في كل مكان: وهي تجوب داخل الحارات والشوارع الجانبية خلف المطاعم، تنتظر الطعام، أو تمشي عبر الزحمة، أما في الليل، فقد كانت كلاب إسطنبول

الشاردة ينبح أحدها على الآخر في أرجاء المدينة، وفي الصباح كانت ترتاح تحت الكراسي والطاولات أمام المقاهي في ميدان تقسيم، وغالبًا ما كانت تستلقي غافية، وهي تستردُّ أنفاسَها من تجوالها في الليل. لم يبدُ أن معظم الناس لاحظوا وجودَها، ولكنَّ الكلاب لا تدع أحدًا إلَّا وتراقبه، تراقبه بعيون شبه مفتوحة وهي تريح رؤوسها على مخالبها: راقَبَتِ الكلابُ الأطفالَ وهم يمرُّون عبر الزحمة ويطرقون نوافذ السيّارات، ويحاولون بيع قناني الماء لعابري السبيل.

ثمَّةَ أُسَرٌ بكاملها تهيمُ على وجوهها في الشوارع، بعضُ أفرادها حفاةٌ، وأحيانًا ما يجلسون قرب الرصيف عندما يضنيهم السير، ولاجئون آخرون يبيعون في أكشاك السوق، وهم يحاولون أن يكسبوا ما يكفيهم من المال للرحيل من هنا، وهم يبيعون بضائع لا غنى للناس عن الحياة دونها: شواحن الهواتف المحمولة، وسترات النجاة، والسجائر.

كنتُ أنسى أحيانًا أنِّي واحدٌ من هؤلاء القوم. ومثلما تفعل الكلاب، قعدتُ كلّ يوم على المقعد ذاته وراقبتُ سيَّارات الأجرة الصفراء وهي تدور حول الدوَّار الذي انتشرت فيه شقائق النعمان. شممتُ الروائح المتصاعدة من أكشاك المشاوي ومحلّات الكباب، بأسيَاخها ونيران حطبها، والروائح المذهلة للكعك المدوَّر، الخارج طازجًا من الأفران، أو من البائعين الذين تحلَّقوا حول الميدان كل يوم. ثمَّة برغر نيِّئ في واجهات عرض زجاجية، وفي واجهات المحلّات الأمامية حضَّرَتْ نسوة يرتدين ملابس تقليدية لفائف الكريپ المصنوع يدويًّا. راقبتُ بإمعان كيف تعلَّم أبناء اللاجئين التأقلم؛ كيف أتقنوا فنّ البقاء

على قيد الحياة -روّاد الأعمال الصغار هؤلاء، هؤلاء المحظوظين. ماذا سيكون رأي سامي لو رأى هذه الشوارع؟ وما رأيه بأكشاك السوق والمطاعم وأضواء الشوارع في جادة الاستقلال، الواقعة على الطريق القادم من العشوائيات والأحياء المعزولة. كان سيشدُّني من يدي إلى داخل محلّات بيع الشوكولا، وكانت عفراء ستُعْجَب بمحلات الثياب والهدايا والمكتبات ومحلات المعجَّنَات.

منذ اليوم الذي وصَلنَا فيه شقَّة المُهرِّب، رفَضَت عفراء أيضًا الخروج منها. وعندما كنت أعود إليها بعد السير في الشوارع، كنت أحكي لها عن الأبنية العثمانية، عن السيَّارات والضوضاء والفوضى والطعام والكلاب. وإذا كان معي بعض الفكَّة، كنت أبتاع لها كعكةً مدوَّرَة بالسمسم. كانت تحبُّها، خصوصًا إذا كانت ساخنة، واعتادت أن تقسِّمها إلى نصفين وتعطيني واحدًا منهما. ما كانت عفراء لتأكل طعامًا قطّ دون أن تُضَيِّف أحدًا منه -فذلك أسلوبُها الذي يميّزها. لم أحكِ لها عن الأطفال في الشوارع. لم أُرِدْ لها أن تراهم بعين خيالها، لم أرد لها أن تقع في شرك التفكير بهم في تلافيف عقلها التي لا يمكن الولوج منها.

في الليل، عندما استيقظت كلاب الليل، كانت عفراء قَلِقَة. نامت في الغرفة المجاورة مع النساء الأخريات. كلّ ليلة كانت تدهن عطر الورد على البشرة الناعمة في معصمَيها وعنقها وكأنَّها ذاهبةٌ إلى مكان ما في العتمة. كان عليَّ أن أتشارك غرفةً مع عشرة رجال آخرين. اشتقتُ عفراء. كانت تلك المرَّة الأولى أثناء سنوات لم أنم فيها إلى جانبها. اشتقتُ أنفَاسَها الهادئة. اشتقتُ إراحة يدي على صدرها

حتى أحسَّ بنبضات قلبها. لم أنم كثيرًا. بل أمضيتُ الليل وأنا أفكّر بزوجتي. أعرف أنّه ثمّة أوقاتٌ في الليل كانت تنسى فيها أنّها لم تكن في حلب. كان عقلُها يخاتلها، فكانت تمشي خارجة إلى الممر. كنت أميِّزُ صوت وقع أقدامها على البلاط فأنهض لألقيَ عليها التحيَّة في الممر العالي السقف ذي النافذة الطويلة.

«نوري، أهذا أنت؟ لا يمكنني النوم. أأنتَ مستيقظ؟».

«أنا مستيقظ الآن».

«لا يمكنني النوم. أريد أن أخرج وأتمشَّى».

«تأخَّر الوقت. والخروج الآن ليس آمنًا. سنتمشَّى في الغد».

«أريد أن أذهب لرؤية حميد وقد تدلَّى سرواله الكبير على حبل الغسيل».

حميد خال أمِّهَا، وكان يعيش على الطريق مقابل حقل جافّ فيه مَرْجُوحَةٌ وزُحلُوقَةٌ معدنيتان. اعتادت عفراء اصطحاب سامي في الأماسي إلى المرجوحة وكانا يضحكان على سروال حميد الضخم.

كنت أضع وجهها بين راحتيَّ، وأقبِّل جفنها الأول، ثم أقبِّل الآخر. ثمَّة أمنية راودَتنِي في أن أقتلها بهذه القبلات، وأن أجعلها تنام إلى الأبد. أرعبتني قدرتها الذهنية. فما تستطيع أن تراه، وما تستطيع أن تتذكّره، كلّه محبوس وراء عينيها.

بعد بضعة أيام حاولتُ أن أجد عملًا. كان هناك عددٌ كبير من

اللاجئين ممَّن يبيعون سترات النجاة والسجائر في الشوارع، وكلّ واحد منهم يعمل بصورة غير قانونية لأنّهم لا يملكون إذنًا بالعمل هناك. لم يكن من الصعوبة البالغة بمكان العثور على عمل في تنظيف السيَّارات. انضمّ إليَّ إلياس. فعملنا معًا، ونظَّفنَا فركًا ودلكًا سُخَامَ المدينة ورَملَهَا. أحيانًا سرقنا أشياء صغيرة من صندوق السيّارة أو من دُرجِها الأمامي، أشياء من غير المرجَّح أن يلاحظها الزبائن أو يعيروها كبير اهتمام -مثل عُلَب العلكة، وقناني ماء شبه مشروبة، وبعض الفكَّة السائبة. وأخرَج إلياس أعقاب السجائر من منافضها. كان المُعلِّم رجلًا تركيًّا في الستِّين من عمره، يدخِّن ستين سيجارة في اليوم ويدفع لنا أجرًا زهيدًا، ولكن كان قد مرَّ على وصولنا إلى إسطنبول سَلَفًا ثلاثة أسابيع والطقسُ لا يزال سيِّئًا جدًا، ولذا فنزرٌ يسيرٌ من المال الإضافي ونشاطٌ نزجي به الوقت عادَ علينا كلينا معًا ببعض الفائدة.

ذات ظهيرة، وبعد أن فرغتُ من العمل في تنظيف السيّارات، تجوّلتُ في ميدان تقسيم حتى وجدتُ مقهى إنترنت. لم يكن هاتفي المحمول يعمل وأردتُ أن أرى فيما إذا كان مصطفى قد حاول التواصل معي. فأنا أعرف أنه إذا كان حيًّا وبصحّة جيدة فإنّه سيرسل إليّ رسالة، ومثلما توقَّعتُ، عندما دخلت إلى حسابي، وجدتُ ثلاث رسائل بريدية إلكترونية واردة منه.

* * *

22/ 11/ 2015

عزيزي نوري،

آملُ أنّك وجدتَ الرسالة التي تركتُها لك. لم تغب عن بالي أنت وعفراء يومًا. وإنّي أعتذر منكما لأنّي اضطررت إلى المغادرة دون أن أودِّعَكما. فلو بقيتُ لعثروا عليَّ وقتلوني. أرجو أن تتفهّمني وتلتمسَ لي عذرَ المسامحة.

لم أكفّ يوما عن استغراب كيفية وصولنا إلى هنا، وكيف يمكن للحياة أن تكون قاسية جدًّا. في معظم الوقت لا أطيق تحمُّل بقائي حيًّا. فالأفكار التي تراودني تسمِّمُني إذ تستفرد بي. أعرف أنَّ أيَّ إنسان آخر هنا محبوسٌ في جحيمه الخاصّ به، فثمّة رجلٌ يمسك ركبتيه ويدحرج نفسه طوال الليل وهو يغنِّي يا نوري. يغني تهويدةً ينفطر لها قلبي. أريد أن أسأله لمن يغنّيها ذات مرة، أو مَن الذي غنّاها له. ولكنّي خائف من جوابه، لذا فقد قدَّمت له السجائر عوضًا عن سؤاله، فذلك كلّ ما أستطيع فعله؛ لأنّه يتوقّف عن الغناء بضع دقائق أثناء التدخين. ليتني أهربُ من ذاكرتي، ليتني أتحرَّرُ من هذا العالم ومن كلّ شيء عرفتُه ورأيتُه في السنوات القليلة الماضية. والأطفال الذين نجَوا؛ ماذا سيكون مصيرُهم؟ وكيف سيكونون قادرين على العيش في هذا العالم؟

لم تجرِ أمور الرحلة وَفق ما هو مخططٌ لها. فقد سافرتُ عبر تركيا واليونان ومِن ثم عبرتُ الحدود إلى مقدونيا، ولكن الأمور تعقَّدَت هناك، فقد أُلقي القبض عليَّ ورُحِّلْتُ وأرسلتُ على متن قطار متّجه

إلى بلغاريا، وهي البلد الذي صرتُ فيه الآن، في مخيّم في الغابات. وأنا أرسل إليكِ هذه الرسالة من هاتف شابّ التقيتُه هنا. ثمّة خيامٌ كبيرة ونحن ننام على أسرّة طابقية، محشورة كلها بعضها بجانب الآخر. أظن أنّه عندما تهبّ الريح فإنّ كل الخيام ستنقلب بمَن فيها. توجد محطّة قطار. فيها قطارات قديمةُ الطراز تحطّ رحالها فيها فيحاول الناس القفز إليها ويتعلّقون بها لأنّهم يريدون الوصول إلى صربيا. لم أحاول حتى الآن القفز إلى أحد هذه القطارات.

لقد وصَلَت عربة الإطعام قبل لحظات وسننتظر تقديم الأكل لنا، سردين وخبز. هذا ما نأكله كلَّ يوم. إذا كُتِب لي الخروج من هنا فلن آكل مرّةً أخرى سردينةً أخرى ما حييت.

أرجو أن أسمع أخبارًا عنك. وإنّي لأدعو الله أن يمنَّ عليك بالأمان.

ابن خالتك

مصطفى

* * *

29/ 12/ 2015

عزيزي نوري،

أنا الآن في صربيا في مخيَّم يقع قرب أحد المصانع. المكان منطقة صناعية تقع في نهاية سكّة قطار تنتهي هناك. ولذا فأنا هنا في

نهاية السكّة. وآمل ألا يكون هذا نذير شؤم ينبئ بأن رحلتي ستنتهي هنا. لقد استقللتُ من بلغاريا قطارًا سار فيّ رحلة مدّتها يومٌ وليلة ثم جِيء بي إلى هذا المخيَّم المسوَّر بالأسلاك الشائكة الواقع على مرمى حجر من إحدى القرى. لا أستطيع الخروج من هنا، فالمخيَّم مقفل ولا يغادره المرء إلّا وفق لائحة انتظار. ليس للقطار رصيف. وأنا في عربة القطار القادم إلى هنا رأيتُ الناس يتسلَّقون سلمًا للصعود إليه، ولكنّهم على الأقل يغادرون. توجد هنا فتاة فقَدَت صوتَها، لا بدَّ أنّها في حوالي الثامنة عشرة، وكل يوم تتوسَّل إليها أمُّها حتى تتكلّم، فتفتح الفتاة فمها، ولكن ما من صوت يخرج منه. أتساءل أيّ الكلمات انحبست داخلها ولا تستطيع أن تخرج. وهي النقيض للصبيّ الذي رأيتُه على ضفّة النهر يبكي مناديًا أباه. ولكن من يعلم الظروف التي مرّت بها هذه الفتاة، وماذا رأت؟

ثمَّة مقدار كبير جدًّا من الهدوء هنا، ولكنّه هدوء مليء فوضى وجنون. أحاول أن أتذكّر طنين النحل. أحاول أن أجد بعض الضوء انطلاقا من إغماض عينيّ وتخيّل الحقل وخلايا نحلنا. بيدَ أنّي أتذكّر حينئذ الحريق، وأتذكَّر فراسًا وسامي. فقد رحل ولَدَانا إلى حيث النحل، رحَلا يا نوري، إلى حيث الأزهار والنحل. فليكلأهما الله برعايته آمِنَيْن حيث هما من أجل خاطرنا، إلى أن نراهما مرة أخرى حالما تنتهيَ هذه الحياة.

أنا متعب يا نوري. متعب من هذه الحياة، ولكنّي مشتاقٌ لزوجتي وابنتي. فهما تنتظراني ولا أعرف إذا ما كنت سأصل إليهما أساسا. هما في حال جيدة في إنجلترا، تنتظران إذا ما كانتا ستُمْنَحَانِ حقّ

اللجوء. فإذا حصلنا عليه فسيكون من الأسهل لي أن أصل إلى هناك.

لزامٌ عليَّ أن أتابع المشوار، وإذا وصلتكَ رسالتي هذه فإنّي أحثُّكَ على أن تنحوَ نحوي. لا تدفع ما معك من مال إلّا في موضعه الصحيح، فالمهرِّبون سيحاولون أن يحصلوا على أكبر مبلغ يستطيعون تحصيله منك، ولكن لا تنسَ أنّ هناك رحلة طويلة جدًّا أمامك. عليك أن تتعلّم الإلحاح في المساومة، فالبشر ليسوا كالنحل. فنحن البشر لا نعمل معًا، وليس عندنا شعور حقيقي بالطيبة المطلقة، وقد أدركتُ ذلك الآن.

ثمَّة خبرٌ سار؛ لم آكل السردين مدَّة أسبوع. فهنا يطعموننا جبنًا وخبزًا، وفي بعض الأيام يعطوننا موزة.

مصطفى

أما الرسالة البريدية الإلكترونية الأخيرة، فمكتوبة بالإنجليزية ويقول فيها:

20/ 01/ 2016

عزيزي نوري،

قضَّيتُ يومًا واحدًا في النمسا في مجمَّع عسكري قرب الحدود الألمانية حيث أجروا لنا مسحًا لأجسامنا وأخذوا بصمات أصابعنا، ومن ثم رُحِّلْنا إلى سكن شبابي ألماني في الجبال. الشتاء بارد جدًّا

هنا، ونحن محاطون بالثلج في منزل قديم مرتفع ارتفاعًا كبيرًا حتى بتنا قريبين من الغيوم. هذه الجبال تذكّرني بجبال لبنان الشرقيّة وبأبي وجدّي، تذكّرني بالأيام التي قضّيتها معهما في المناحل، وأنا أتعلّم عن النحل. ولكنّ هاتيك الجبال كانت مملوءة بضوء الشمس وتطلّ على البحر. أمّا هذه الجبال، فبيضاء وصامتة، ولا أعرف من أين تبدأ وأين تنتهي.

تحدوني الرغبة في الوصول إلى فرنسا. لقد عَرَضَ عليّ أحدُ الحرّاس عرضًا لطيفًا بأن يُرْسِل إليكَ رسالة بريدية إلكترونية من هاتفه المحمول وهو من تكفّل بكتابة هذه الرسالة لي. كما أرسلت أيضًا رسالة بريدية إلكترونية إلى زوجتي، التي لا تزال تنتظرني، وتدعو لي. وإنّي أدعو لها وأدعو لك ولعفراء أيضًا. لم تصلني أخبار منك ولكنني لا أتخيّل إلا أنكما بخير.

صديقك العزيز

مصطفى

جلستُ برهة وتخيّلت ماذا يمكن أن يكون قد حدث معه بعد ألمانيا، فنحن الآن في مطلع فبراير. هل نجح في الوصول إلى فرنسا؟ ألا يزال حيًّا ومعافًى؟ تذكّرتُ المرّة الأولى التي زرت فيها المناحل في الجبال. بلى، كانت ممتلئة بالضوء ويمكنك أن ترى التماعَ الماء بعيدًا في الأسفل. أخذَني مصطفى في جولة؛ كان شابًّا آنذاك، في أواخر عشرينيّاته، وكنتُ في الثامنة عشرة فحسب. تجوّل في المكان

مرتديًا سرواله القصير وخُفَّه غير خائف من النحل.

«ألستَ خائفًا؟» أقول له باحتراس بالغ وأنا أتراجع مبتعدًا.

وكان يردُّ: «أنا أعرف النحل. وأعرف أيّان يثور».

«وكيف تعرف؟».

«النحل يفرز فيرومونات[1] لها رائحة كرائحة الموز».

«الموز؟!».

أومأ بالإيجاب، وقد ملأته دهشتي بالسرور ثم أردف: «يشمُّها بقيّة أفراد الخلية فيعرفون أنّها إشارة الهجوم».

«ولكن ماذا ستفعل في حال ثار النحل؟».

«سأقف في حالة سكون شديد جدًّا ولا أتحرَّك قيد أنملة. سأتظاهر بأنّي شجرة».

ومن ثَمَّ وقف هناك، مثل تمثال عملاق، متّخذًا يديه درعًا يحمي به عينيه، باسمَ الثغر. حذوت حذوه، ووقَفتُ بأقصى درجة سكون استطعت إليها سبيلا، حابسا أنفاسي بينما طار النحل حولي بالمئات، بل شعرت بألوف منه، وطنينه يحيط بي، ويُحدِّق بي، وهو يدور بنفسه حولي مثل شبكة غير مرئية. ولم تحطّ ولو نحلةٌ واحدة عليَّ.

---

(1) موادُّ كيماوية تفرزها بعض الحيوانات، وخصوصًا الحشرات، تؤثّر في سلوكيّات بني نوعها فيما يخصّ جذب أفراد الجنس الآخر أو إرشادها إلى مصادر الغذاء أو عند وجود خَطَرٍ يهدِّدُها.

همس لي: «أرأيت! أرأيت! عليك أن تسترخي وتتحوّل إلى جزء من الطبيعة. وعندها ستكون بخير».

1/ 2/ 2016

عزيزي الغالي مصطفى،

وصَلَتْني رسالتك البريدية الإلكترونية الأخيرة في كانون الثاني ولم تصلني بعدَها أيّ رسائل ولذا فإنّي أتساءل إذا ما نجحت في الوصول إلى فرنسا. إنَّ أكثر ما أمنّي به النفس هو أن تكون وَصَلتَ إنجلترا والتقيتَ زوجتك وابنتك. لقد تذكَّرتُ قبيل لحظات أول مرّة زرتُ فيها خلايا النحل في الجبال. فتلك الذكرى ماثلة كصورة متحرّكة في عقلي. كنّا في ريعان الشباب. ليتنا عرفنا آنئذ ما تخبّئه لنا الحياة. ولكن لو عرفنا، فماذا كنّا سنفعل؟ كان سيتملّكنا خوفٌ شديد من الحياة، خوفٌ شديد من ألّا يقيّدنا أيّ قيد ونخطّط للمستقبل. أتمنّى لو يعود بي الزمن إلى تلك اللحظة وأن أقف هناك محاطًا بالنحل، وأن أتعلّم في كلّ ثانية مرّت بأنّ النحل لم يكن عدوّي.

أنا الآن في إسطنبول. أقيمُ أنا وعفراء في شقة أحد المهرِّبين مع عشرين شخصًا آخر بانتظار المغادرة إلى اليونان، ولكنّ الرياح عاتية جدًّا في الوقت الحالي. ثمَّة صبيٌّ صغيرٌ هنا، في سنّ سامي، وهو وحدَه ولست متأكدا ممّا جرى لأسرته. وأخشى من التفكير بذلك. ولكنَّه يثق بي، وأنا أعتني به.

أعرف أنّ أمامنا رحلة طويلة. في بعض الأيام يخالجني شعورٌ بأنّي لا أستطيع أن أتقدّم خطوة أخرى، ولكنّ حُلمًا يموج في فكري عن لقياك في إنجلترا، وهذا ما يحثني على مواصلة المشوار. معي المال وجوازات السَّفَر. وأشعر أنّي محظوظ لأنّي أملكها وأنا أرى معظم الناس ممّن لا يملكون أيّ شيء. بانتظار ردِّك.

نوري

عندما عدتُ إلى شقة المهرّب في المساء، أعطيت محمّدًا الأشياء التي وجدتها: علكة، وحبّات منكهة بالنعنع، ومطواة، وقلمًا، وحلقة مفاتيح، وإصبع صمغ، وخريطة طريق.

الخريطة أكثرُ ما أثار إعجاب محمّد؛ فقد فتحها ومدّها على الأرض وتتبّع إصبعه على طول مسارات الطرق والجبال. جاء بأحجار وجدَها في أصص النباتات الموضوعة على الشرفة، وباستخدام القلم، رسَم وجوهًا عليها. كوَّن أسرة كاملة من الحجارة؛ وزحلَقَها على الخريطة وكأنهم في رحلة: أبًا، وأمًّا، وجدَّة، وأخًا وأختين. في تلك الليلة وجدته وقد نام سريعًا فوق الخريطة، لذا حملتُه، ووضعته على ظهري، ومن ثم حملته إلى غرفة النوم ووضعته برفق على اللحاف. لم يتحرَّك محمّد ولا حركة؛ فقد كان غارقًا في أحلامه.

«سنغادر قريبا» قلت لإلياس في الليلة الموالية. وقَف مثلَ تمثال ضخم عتيق على الشرفة، وقد فتح علبة سجائر جديدة. ثم وضع سيجارة في فمه وأشعلها وهو ينظر صوب الغابة. الآن وبعد أن بات يأكل أكثر ويعمل بجد فقد اكتسى جسدُه لحمًا وبات من الأسهل ملاحظة القوة البدنية الطبيعية لهذا الرجل.

«يقول المهرِّب إنّنا سنغادر في غضون يومين».

فكَّر إلياس في الأمر مليّا حتى فرغ من سيجارته وأشعل واحدة أخرى وقال: «لا أريد أن أذهب. سأبقى هنا».

«ألم تدفع للمهرّب سلفًا؟ أين ستبقى؟».

«سأجد مكانًا ما. لا تقلق عليّ. لا أريد أن أتابع الرحلة، فقد قطعت مسافات كبيرة سلفًا. شبعت من الترحال». كانت عيناه حزينتين ولكن ابتسامته باتت مختلفة الآن؛ فثمّة حياة في وجهه وقوة داخلية. وقفنا كلانا هناك، صامتَين، مدة طويلة، نصغي إلى أصوات الليل؛ صرير الريح وزعيق السيارات ونباح الكلاب.



5

عندما تستيقظ عفراء في الصباح تسألني عن السرِّ الذي يجعلها تشمُّ رائحة زهور. فأقول لها:

«ربّما تكون رائحة عطرك».

«ولكنّ هذه ليست ورودًا. إذ تفوح منها رائحة خفيفة، مثل روائح الزهور المتفتِّحة». تمدُّ يدَها إلى المنضدة التي بجانب السرير فأتذكّر وعاء المفاتيح. تتلمَّس حواليها إلى أن تلامس الوعاء ومن ثم تعتدل في سريرها وتضعه في حضنها، منحنية فوقه، وهي تشمُّه بعمق، واضعة يدَيها كلتيهما داخله، وفي تلك اللحظة أدرك أنّ الوعاء ليس مملوءاً فقط بالمفاتيح ولكن بحفنات من الزهور البيضاء المتفتّحة، فتقول:

«هل قطفت هذه الزهور لي؟».

«نعم».

«هدية أخرى!» عيناها مفعمتان بضوء الصباح. لا أريد أن أرى هذا. أكره أن أراها على هذه الحال ولستُ متيقّنًا من سبب ذلك.

أنهضُ وأغلق الفجوة بين الستائر وأراقب ظلّ الستائر وهو يتحرَّك على وجهها، ثم تقول: «لم تُهْدِني زهرة منذ مدة» ثم ترفع الزهور قبالة وجهها، تشمُّ عبيرها، وفي تلك اللحظة ترتسم ابتسامة صغيرة على شفتيها، ابتسامة خفيفة كرائحة الزهور، وتقول:

«شكرًا. أين وجدتَها؟».

«هناك شجرة في الحديقة».

«أهي حديقة كبيرة؟».

«لا، بل صغيرة مثل فناء وهي إسمنتية في معظمها، ولكن توجد فيها هذه الشجرة الوحيدة».

«حسبتك لن تهديني أي هدية مرة أخرى أبدًا».

تعيد الوعاء إلى منضدة السرير وتتأكَّد أنّ البِلْية في مكانها. آخذها إلى الحمام وأجلس على كرسي المرحاض بينما تفرش أسنانها، ثم أساعدها في ارتداء ثيابها. نازعًا العباية عن العلَّاقة، ثم أزلقها على ذراعيها، على جسدها، على انتفاخة بطنها، على ندبتها الناجمة عن عملية الولادة القيصرية -فما تلك الندبة سوى ابتسامة دائمة على بطنها- على الشعر الناعم على فخذيها. أشمُّها. رائحة ورود وعَرَق. الندبة وتغضنات بشرتها حول بطنها تذكارات دائمة لي بأنّها حَملت طفلنا، وجاءت به إلى هذا العالم، ولا أريد أن ألمسها. أربط شعرها وأعقد حجابها حول رأسها، واضعًا دبابيس الشعر في المواضع التي تريدني أن أضعها فيها. أحاول ألَّا أكون فجًا، وألَّا أبعد أصابعها.

الابتسامة لا تزال تبدو مستمرة على شفتيها ولا أريد أن أفسدها عليها. كم يفزعني أنَّ هدية منِّي يمكن أن تكون لها القدرة على جعلها تبتسم الآن، حتى ولو كانت ابتسامة خفيفة جدًا لتصير تقريبًا غير موجودة. في كلّ تلك المرّات أردتُ أن أكون قادرا على التأثير فيها، أن أجلب بعض الضوء إلى عينيها، والآن أكره أنني أستطيع ذلك؛ لأنّ ذلك يعني أنّها تحبّني وأنّها ما انفكّت تأمل منّي أن أحبّها. ولكنّي لم أعد بعد الآن أستحقّها، أو أستحقّ غفرانها.

تنتظرنا جلسةٌ أخرى مع لوسي فيشر لاحقا بعد الظهر، ولذا فإنّنا نجد أنفسنا مرة أخرى في الموضع الذي كنّا فيه من قبل، جالِسَين قبالتها إلى طاولة المطبخ. لا تزال عفراء غير راغبة في الجلوس أمامهَا وجهًا لوجه، بل تشبك يديها على الطاولة، وتبدو وكأنها تحملق عبر النافذة.

تبدو لوسي فيشر أكثر سرورا اليوم. فقد أحضرَت معها الأوراق لكي تثبت أنّنا نسعى لطلب اللجوء. وهي تفعل ذلك بكفاءة بالغة جدًّا -فهي تعلِّم الخانات المطلوبة وتدوِّن ملاحظات سريعة في إضبارة ذات حلقات.

«أنا مسرورة لأنّنا لسنا بحاجة إلى مترجم يترجم لك» تقول، وهي منهمكة، ناظرة إليّ نظرات خاطفة سريعة بعينيها الزرقاوين الكبيرتين. شعرها منسدل اليوم. وهي تتميّز بشعر جميل ناعم جدّا يذكِّرني بالرِّيش، على العكس من شعر عفراء، السميك والكثيف الذي كان

ذات يوم أسودَ كالقطران.

ثمَّة بهجةٌ تكتنف لوسي فيشر؛ بهجة أحبّها. فهي فخورة بنفسها لأنّها تحافظ على الأمور وَفق موازينها الصحيحة. وعندما لا تسير الرياح كما تشتهي سفنها، فإنَّ وجهها يتوهَّجُ وتصير جميلة. لا أدري إذا كانت تعرف هذا. ومع ذلك ففي هذه اللحظة، تبدو هادئة ووجهها طبيعي. إنها تذكِّرُني بإحدى مذيعات الأخبار، وصوتها يذكِّرُني بها أيضا. وأنا أتذكّر ردَّة فعلها في ذلك اليوم، أحاول أن أتخيّل عدد الناس الذين عَملَت على ملفّاتهم، وكم عدد الذين رحَّلَتْهُم من إنجلترا، وكم عدد الأسئلة التي طرحها الناس عليها، وكيف تشبَّثَ بها كل واحد منهم وكأنّها قارب نجاة في بحر هائج.

«هل ستُرحِّلينَ المغربي إلى خارج إنجلترا؟» أقول لها، فتقول:

«أيّ مغربي؟».

«العجوز».

«حازم؟» تقول.

«نعم».

«أخشى أن تلك معلومات سرّية، وغير مسموح لي مناقشة أيّ حالة من حالات المتعاملين معي، ولا حتّى حالتك أيضًا». تبتسم لي مرّة أخرى وتغلق إضبارتها قبل أن تردف قائلة: «إذن، ما عليك فعله هو أن تأخذ هذه الرسالة إلى عيادة الطبيب العام، والعنوان مكتوب على هذه الورقة»، ثم تشير إلى الورقة وتسترسل: «لن تعترضك أيّ

مشكلة، وعندما تصل إلى هناك يمكنك أن ترتِّب موعدًا لفحص زوجتك، وكذلك موعدًا لتفحَص نفسك. فربّما يستحسن أن تجري فحصًا طبّيًا سريعًا». ها هي تنظر نظرة خاطفة إلى عفراء، وأستطيع أن أرى الاضطراب باديًا على زوجتي.

«ومتى موعد المقابلة؟» أقول لها بحيث تعاود عيناها النظر إليَّ.

«سأتواصلُ معك مرة أخرى قريبًا بخصوص موعد إجراء مقابلة طلب اللجوء. وأقترح عليك أن تبدأ التحضير لها. فكِّر في قصّتك، كيف وصلتَ إلى هنا، وماذا حدَث على طول الطريق. سوف يسألونك شتَّى أنواع الأسئلة وعليك أن تكون مستعدًّا، لأنّها ستكون أسئلة تصعب الإجابة عنها من الناحية العاطفية».

لا أنبس ببنت شفة.

«هل فكَّرْتَ في ترتيب أحداث قصّتك؟».

«نعم، بالطبع. فأنا أفكّر فيها طوال الوقت»، ومن ثمَّ، أجد فيها مرة أخرى شيئًا حقيقيًا أكثر من مذيعة نشرة الأخبار التي تدخل مباشرة في لبِّ الموضوع.

تحكُّ بظاهر يدها اليمنى ما فوق عينها، ملطِّخَةً مكياجها قليلًا، بالطريقة التي قد تلطِّخ بها صبية شابة مكياجها وتقول: «السرّ كلّه يتعلَّق بأنهم ينقضّون بغتةً على أيّ تفصيل، خصوصًا إذا شابت قصتك الشوائب».

أومئ لها بالإيجاب شاعرًا بالقلق، ولكن لا يبدو أنّها تلاحظ

قلقي. تسترق نظرات خاطفة إلى ساعة يدها في رسالة مفادها أنّ الجلسة انتهت. أنهض وعفراء كي نغادر.

الشخص التالي لتراه هو ديوماندي. نتبادل الأماكن عند الباب ويدخل ثم يقعد، ونتوءا كتفيه المثنيان يلكزان قميصه من تحت. إنه ثرثار أكثر منّي بمراحل. يلقي عليها التحيَّة بحرارة بإنجليزيّته الركيكة ويبدأ من فوره الحديث عن البلد الذي جاء منه وكيف وصل إلى هنا. وقبل حتى أن تسأله أيّ سؤال، بدأ يُهَذْرِم. ما أزال قادرًا على سماع صوته حتى وأنا في آخر الممرّ، إسهاب شاردٌ مفعم بالحيوية مندفع، وجانب من طريقة حديثه يذكِّرُني بحصان يخبّ.

تقول لي عفراء إنّها متعبة، ولذلك أصطحبها إلى غرفة النوم فتجلس على طرف السرير، مواجِهَةً النافذة، مثلما اعتادت أن تفعل تماما في منزلنا في حلب. أنظر إلَيها برهة، وأنا راغبٌ في قول شيء ما لها، ولكن ما من كلمات تخطر في بالي، ولذا فإنّي أنزل إلى الطابق الأرضي.

المغربيّ ليس في غرفة الجلوس. أظنّه خرَجَ أثناء النهار وهو يجول على المحلّات، متحدّثًا مع الناس، متعلّمًا مفردات جديدة، ومراقبًا الأشياء المنتشرة على طول الطريق ليحفظ مواقعها. ثمّة بضعة أشخاص آخرين هنا: المرأة الأفغانية ذات الحجاب المنسوج يدويّا، والتي تصنع شيئًا ما من بعض الخيوط الزرقاء. ما من شيء كثير يقوم به المرء سوى الجلوس في غرفة الجلوس ومشاهدة التلفاز. ثمّة سياسيّ له وجه كوجه الضفدع يتحدَّث عبر الشاشة قائلًا:

لقد فتحنا، حرفيًا، الباب على مصرَاعَيه بصورة غير مشروطة، دون أن نكون قادرين على التحرّي أمنيًا عن أيّ شخص... لقد أُميط اللثامُ عن مؤامرة قَنبلة دوسلدورف، لا بأس، وهي خطّةٌ تبعثُ على القلق الكبير بخصوص شنّ هجمات شاملة على طريقة هجمات باريس أو بروكسل. كلُّ هؤلاء الناس جاؤوا إلى ألمانيا السنة الفائتة بصفة لاجئين.

يحمرُّ وجهي، ولذا أغيِّر القناة.

اعترف هذا الشخص بالغشّ ست مرات! ولكنه فعل ذلك فقط في فترات متقطعة! وتريدون التخلص منه! آشلي من برنامج جيريمي كايل أيّتها السيّدات والسَّادة!

أُطْفِئ التلفاز فتغرقُ الغرفة في الصمت. لا يبدو أن أحدًا يكترث.

أهيم على وجهي متقدِّما صوب طاولة الحاسوب وأقعد. تنقر على ذاكرتي ذكرى الحقل في حلب قبل الحريق، عندما حامت النحلات فوق الأرض مثل السحب وهي تطنّ بأغنيتها. ها أنا أرى مصطفى يُخْرِجُ قرص عسل من خلية نحل، ويتفحّصه من كثب، ويغمس إصبعه في العسل، ويتذوّقه. تلك كانت فردوسنا، عند التقاء الصحراء بالمدينة.

أنظر إلى انعكاس وجهي في الشاشة السوداء، أفكِّر بماذا أكتُب! سأكتب: يا مصطفى، أظنّني لست بخير. لم يعد في جَعبتي أيّ أحلام.

تأتي صاحبة المنزل وتشرع في تنظيف غرفة الجلوس بفرشاة صفراء لامعة. تحاول الوصول إلى شِباك العناكب في الزوايا، واقفةً على رؤوس أصابعها بحذائها العاليَ النعل وساقيها الفيليتين[1] الهزيلتين، لذا أنهض وأعرض عليها أن أفعل ذلك عوضًا عنها. أقضّي الظهيرة وأنا أمسح الجدران والطاولات والخزائن في غرفة الجلوس وأيّ من الغرف في الطابق العلوي التي تُركَت مفتوحة. ألقي نظرةً خاطفةً على بعض من حيوات النزلاء الآخرين. بعضهم رتَّبُوا أسرَّتهم، فيما ترك آخرون غرفهم تسبح في الفوضى. ووضَع بعضُهم مقتنيات زهيدة على المناضد التي بجانب الأسرَّة، أشياءَ غالية من حياة سالفة، صورًا على التسريحة مسنودة دون إطارات. لا ألمس أي شيء.

غرفة المغربي مرتَّبَة، وكلّ ما فيها مطويّ بأناقة، وثمَّة قنينة رغوة حلاقة على التسريحة، وشفرات حلاقة مصفوفة. يوجد صورة بالأبيض والأسود لامرأة في حديقة. الصورة ذابلة وابيضَّت أطرافُها، وثمَّة خاتم عرس ذهبي صغير على طاولة التسريحة قربها. أمّا الصورة المجاورة للصورة الأولى، فهي صورة للمرأة ذاتها، بعد عدَّة سنوات. لها العينان ذاتهما والابتسامة ذاتها؛ وهي تجلس على كرسيّ من الخيزران وتحمل طفلًا، طفلًا بلغ سنّ المشي يقف بجانبها. ثمَّة صورة أخرى، صورة مطبوعة على ورق صقيل لمّاع، بعد عدة سنوات، لأسرة: رجل، وامرأة وابنين في سنّ المراهقة. أمّا الصورة الأخيرة، فصورة لامرأة تقف على الشاطئ ومن ورائها البحر. أقلّبُها وأقرأ عليها الكلمات التالية المكتوبة باللغة العربية:

(1) مصابتان بداء الفيل، وهو تضخُّمٌ في القدمين.

بابا، مكاني المفضّل. أحبُّك يا X.

أنزل إلى الطابق الأرضي وأنا أشعر بوطأة ثقيلة أكثر من قبل وأقرِّر أن أتمشَّى. أتَّجهُ إلى البقالة؛ الموسيقى العربية تصلني وأنا أمشي في الشارع. على أنِّي لا أعرف ما الأغنية التي تُعزَف، فإنّ الموسيقى تنقلني إلى الوطن، إلى أنغامِه وألحانِه، وصوتُ لغتي يحيط بي ويريحني وأنا أدخل المحلَّ الصغير.

«صباح الخير» يقول البقَّال بالإنجليزية. لكْنَتُه جيِّدة وهو يقف منتصب القامة شامخًا، كأنَّه يحرس المكان، في خريف العمر، حليق الوجه حلاقة ناعمة. يخفض صوت الموسيقى ويتابعني بعينيه وأنا أتجوّل في المحلّ. أقف قرب طاولة الحساب محدِّقًا إلى الصحف غير المألوفة: التايمز، والتلغراف، والغارديان، والديلي ميل. ثم يقول لي:

«الطقسُ جميل اليوم».

أوشِكُ أن أردَّ عليه باللغة العربية، ولكني لا أريد الدخول في حديث مع هذا الرجل. لا أريد له أن يسألني من أي البلاد جئت وكيف وصلت إلى هنا.

«نعم» أقول بعد انتظار، فيبتسم.

تحت المجلّات بالضبط، في الصفّ الأخير من الأرفف، ألاحظ كُرَّاسَةَ رسم وأقلامَ تلوين خشبية. في جيبي بعض النقود المعدنية،

لذا أشتريها لعفراء. ينظر الرجل إليّ نظرات خاطفة بضع مرات ويهمُّ بقول شيء ما، ولكنَّ امرأة تناديه من الجزء الخلفي من المحلّ ثم أغادر المكان.

مع أواخر العصر يعود المغربيّ، يناديني حالما يدخل عبر الباب.

«يا نوري! يا سيِّد نوري إبراهيم! أرجوك تعالَ إلى هنا... توجد هدية لك!».

أخرُج إلى الممرِّ فأجده واقفًا هناك، وقد ارتسمت على محيَّاه ابتسامة عريضة، وهو يمسك صينية خشبية عليها خمسة أُصص زهور. أقول له:

«ما هذه؟».

«كان معي قليلٌ من المال الذي ادّخرته، فمضيت إلى البائع الذي في الشارع وابتعت منه هذه من أجل النحلة!». يرمي الصينية بين ذراعي ويلكزني بمرفقه وهو يمرّ عبر غرفة الجلوس صوب أبواب الفناء. يمسكُ طاولة بلاستيكية مقلوبة موضوعة في زاوية الفناء، ويمسح عنها القذارة والأوراق اليابسة بيده ثم يقول:

«حسنًا، ضعها هنا!»، ومن ثم، يقف هناك برهة مبديًا إعجابه بالزهور -زهور إكليل الملك والشوك والهندباء البرية- ثم يضيف: «نصحني البائع أيّ زهور أختار، أيّ زهور يحبّها النحل». يدخل المطبخ ويرجع ومعه صحنٌ فيه ماء. يعيد ترتيب أصص الزهور في

صف، بحيث يمكن للنحلة أن تنتقل من زهرة إلى أخرى دون طيران، ويضع الصحن في الصينية ويقول: «أظنّها ستعطش».

أعجز هنيهة عن الحركة. أراه يحملق فيّ وهو ينتظرني أن أُسْكِنَ النحلة في بيتها الجديد، وثمّة أثر من خيبة الأمل في عينيه بسبب قَلَّة حماستي. في هذه اللحظة، وأنا واقفٌ تحت الشجرة والزهور قربنا والشمس تلقي بأشعّتها علينا، أتذكَّر أبي. أتذكَّر النظرةَ التي ارتسمت على محيَّاه عندما قلتُ له إنني لستُ براغب في أن أستلم منه المحلَّ الذي تتعيّش منه العائلة، وإنّني لستُ شغوفًا ببيع القماش. أردتُ أن أصبح نحّالا مع مصطفى، أردت أن أعمل في الهواء الطلق، في أحضان الطبيعة، أردتُ أن أشعر بالأرض تحت قدميَّ والشمس تسفع وجهي، أردتُ أن أسمع غناء النحل.

كنت أراقب عدَّة سنوات والدي يعمل بجدّ في ذلك المحلّ المعتم الصغير، ومعه مقصّه وإبره وشريط القياس وبراجمه المتورّمة، وألوان الدنيا، ألوان الصحاري والأنهار والغابات، المصبوغة على أقمشة الحرير والكتان حواليه. «يمكنكم أن تخيطوا ستائر من هذا الحرير. أَلَا تذكِّرُكم ألوانه بألوان الحَمَادِ[1] عند غروب الشمس؟». هذا ما كان يقوله للزبائن، وكان يقول لي: «أسدل الستَائر يا نوري! أسدل الستائر حتى لا يخرّب الضوءُ الأقمشة». وكيف لي أن أنسى ملامح عينيه عندما قلت له إنّي لا أريد العمل في ذلك الكهف المعتم الصغير بقيَّة أيام حياتي!

---

(1) بادية الحماد هي المنطقة الممتدة من شمال السعودية مرورًا بغرب الأردن إلى الجنوب الشرقي من سوريا وشرقي العراق.

«لم تُعجبْك؟» يقول المغربي. ملامحه مختلفة الآن، وقد اكتست عبوسًا عميقًا. فأقول له:

«بل أعجبتني. شكرًا لكَ».

أمدّ يدي للنحلة فتزحف على إصبعي ثم أنقلها إلى بيتها الجديد. تتفحَّصُ الزهور، وتمضي في طريقها من أصيص زهور إلى الأصيص الذي يليه.

أقول للمغربي: «لماذا جئتَ إلى هنا؟ ما الذي تفعله هنا في المملكة المتحدة؟».

كتفاه تتصلَّبَان، فيبتعد خطوة عن الصندوق الخشبي. «لماذا لا ندخل وربّما يمكنك أن تأتي وتراها مرة أخرى في الغد».

في غرفة الجلوس يقعد في الكرسي ذي المساند ويفتح كتابه. «أظنّ أنّ الانتظار في الدَّور أمرٌ مهمّ جدّا هنا» يقول لي بنغمة الضحكة المعتادة التي ترنّ في صوته، فأقول له:

«ولكن أين أُسرتُك؟ تُهديني أصصَ الزهور فتذكِّرُني بسوريا، وعندما أسألك عن سبب وجودك هنا تتجاهلُني».

يغلق الكتاب عندئذ وينظر إليّ مباشرة في عينيّ ويقول:

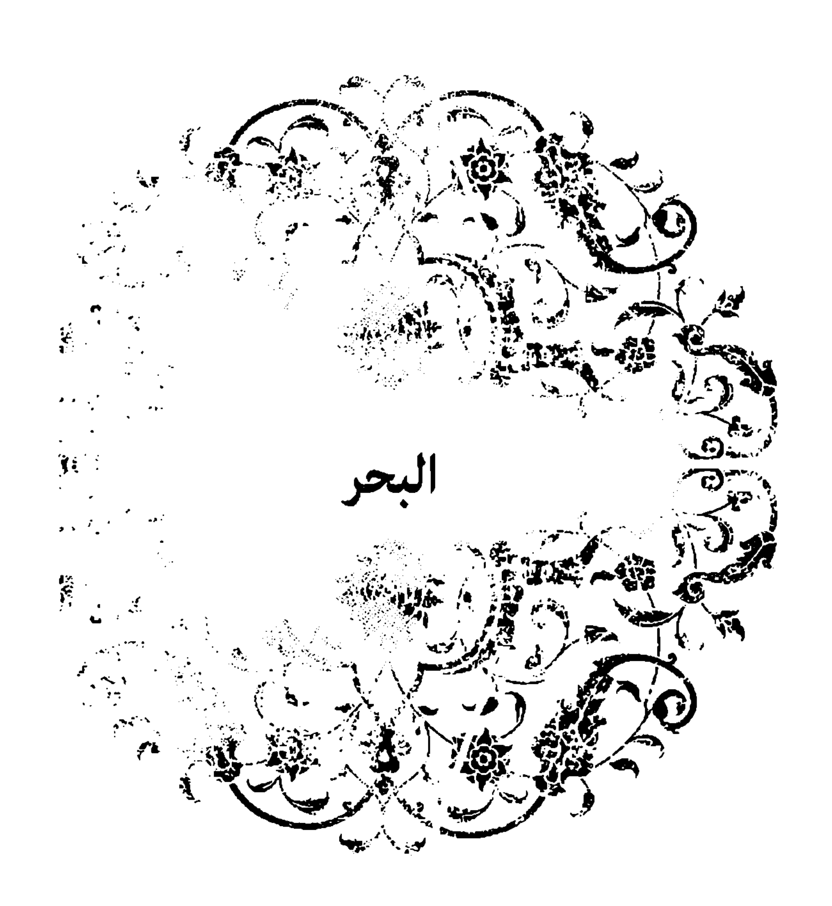
«حالما صعدت على متن ذلك القارب المتوجّه إلى إسبانيا علمت أنّي قد بعت حياتي، أيّا يكن عدد الأيام الباقية فيها. ولكن أبنائي أرادوا المغادرة؛ فقد كانوا يبحثون عن حياة أفضل. لم أشأ أن أبقى وحيدا هناك دونهم. لديهم أحلامهم. فالشباب لا يزالون يملكون أحلاما

في جَعبتهم. لم يستطيعوا الحصول على تأشيرات سفر وصارت الحياة صعبة جدّا في الوطن؛ فهناك مشكلات، عدد كبير جدًّا من المشكلات... ولذا فقد اضطروا للتخفّي، وهذا أمرٌ خَطِرٌ.

قرَّرنا كلّنا أن نغادر معًا، ولكنّ ابني وابنتي أُخِذُوا إلى سكن آخر يُسْمَحُ فيه للأبناء بالإقامة. وهما ينتظران أيضًا، وابنتي... ابنتي...». يتوقّف عن الكلام فأرى عينيه الصغيرتين، وقد اختفتا تقريبًا في تغضّنات وجهه، تأتلقان. إنه تائه خارج المكان. ولذا لا أسأله مزيدًا من الأسئلة.

ديوماندي في غرفته في الطابق العلوي. لقد ذهب إلى الأعلى بعد أن غادرت لوسي فيشر، وأغلق الباب ولم يخرج منذ ذلك الحين. وبعد أن يصعد المغربي وبقية النزلاء هنا ليناموا، أتّجه صوب الفناء. أقترب من المستشعر حتّى يشتغل فيسطع ضوؤه وأراقب النحلة تزحف على زهور الهندباء البرية، وقد استقرَّت في بيتها الجديد.

ومن ثم تلفت انتباهي الزهور على الشجرة. لا تزال ألوفٌ منها عليها. ألتفتُ إلى الخلف عساني أرى محمَّدًا في زاوية من الزوايا المعتمة في الحديقة. أنحني وأنظر عبر فتحة السور، محاولًا أن أرى خضرة الأوراق على الجَنَبَات والأشجار. ثم أجلس وظهري مقابل الشجرة وساقاي ممدوتان أمامي وأغمض عينيَّ. الجو هادئ، ما خلا صوت السيَّارات. أغمض عينيَّ بشدَّة، مركِّزًا، فأستطيع سماع الأمواج. عالية ترتفع، هسيس طويل كبير، ومن ثم تسقط ثانية. أحسُّ بالماء قربي، هنا تمامًا، وحشًا معتمًا، يلاطم قدميَّ. أسترخي على ظهري بينما جسدي وفكري مشدوهان بـالـ



البحر

معتم ومائج. كان محمَّد يقف قرب الشاطئ، بثيابه السوداء، لا يكاد يُرَىٰ في سماء الليل والماء الحِبْري القاتم. تقهقر عندما لاطمت الأمواج قدميه ودسَّ يده في يدي. كانت عفراء تبعد مسافة قصيرة عنا، مواجهةً اليابسة بدلًا من البحر. جيء بنا إلى هنا في حافلة، في رحلة استمرَّت ساعات ثلاث عبر البرِّ في تركيا، وكلُّنَا متشبِّثُون بسترات نجاتنا ومقتنياتنا القليلة. على أنه كان هناك عشرون شخصًا فقط في منزل المهرِّب، فقد زاد عدد المسافرين ليصل أربعين. كان المهرِّب يقف مع الرجل الذي عُيِّنَ قبطانًا للقارب الصغير.

القارب الذي أبحر الليلة الفائتة انْقَلَبَ وفُقِدَ ركابُه في البحر. سُحِبَ أربعة ناجين فقط من الماء، وعُثِرَ على ثمان جثث. تلك كانت الأحاديث التي سمعتها حولي.

قالت امرأةٌ تقف قربي لأحد الرجال: «على الأقل عبور هذا البحر ليس بسوء عبور البحر الفاصل بين ليبيا وإيطاليا. فذلك أكثر المعابر البحرية القاتلة في العالم!»، ثم أردَفَتْ: «وقد جرَف الماء بعض الجثث إلى الشاطئ في إسبانيا».

شدَّ محمد قبضته على يدي، وقال:

«لقد قلتُ لك ذلك. ألم أقل لك هذا؟».

«نعم، قد فَعَلْتَ، ولكن...».

«الأمر صحيح إذن. ربَّمَا نسقط في الماء؟».

«لن نسقط».

«وكيف تعرف ذلك؟».

«لأن الله يحمينا».

«ولماذا لم يحمِ غيرَنا ممَّن ماتوا؟ أيوجد على رأسنا ريشة؟».

كان الصبيُّ لبيبًا. فنظرتُ إليه وقلتُ:

«نعم».

رفع حاجبيه. ثمَّة ريحٌ عاتيةٌ وموجٌ مرتفعٌ. فقال محمَّد:

«إنّها مثل وحش».

«كُفَّ عن التفكير بها».

«وكيف أكفُّ عن التفكير بها وهي ماثلة أمام عينيَّ؟ الأمر يشبه أن تمسك بصرصور وترفعه قبالة وجهي وأرجله تتلوَّى ثم تطلب مني ألَّا ألقِ له بالًا!».

«لا بأس إذن، تابع التفكير في العاصفة حتَّى تغوط في بنطالك ذعرًا».

«أنا لا أفعل ذلك لغاية في نفسي».

«تظَاهَرْ بأننا على ظهر سفينة».

«ولكننا لسنا كذلك. فنحن على متن قارب مطّاطي. وإذا سقطنا

في الماء، فربَّمَا نعلق في شباك الصيَّادين. وسيحسبون أنَّهُم اصطادوا سمكةً كبيرةً، ولكن حينئذ سيتلقَّون أكبر صدمة تعرَّضُوا لها في حياتهم كلِّها».

كانت عفراء تصغي لحديثنا، ولكنّها لم تشاركنا الكلامَ وأبقَتْ ظهرَها باتجاهنا.

انتظرْنَا هناك ساعةً على الأقلّ. بدأ القلق يعتري الناس. ثم قال محمد:

«قد تكون هذه آخر لحظات حياتنا على هذه الأرض. ليتَ معنا بعض البوظة، أو ربَّمَا سيجارة».

«سيجارة؟ ولكنَّك في السابعة من عمرك!».

«أنا أدرى بعمري. قال لي أبي ألَّا أجرِّب تدخين سيجارة قطّ لأنَّها قد تقتلني. وقد حسبت أنني قد أجرِّب التدخين عندما أبلغ السبعين. ولكن وأنا أرى أننا قد نموت الليلة، فالآن قد يكون الوقت المناسب لفعل ذلك. على ماذا تحبُّ أن تحصل إذا علمتَ أنَّك ستموت الليلة؟».

«لن نموتَ الليلة. توقَّف عن التفكير في ذلك».

«ولكنْ ماذا تريد؟».

«أودُّ الحصول على بعض من بول بعير».

«لماذا؟».

«لأنَّه مفيد للشَّعْر».

فغاب الصبي في الضحك.

لاحظتُ أنَّ امرأةً تقف قريبًا منا لم تكفَّ عن النظر إليَّ، عيناها تومضان صوبي ومن ثم تشيح بهما عنِّي، ومن ثمَّ تنظر مرة أخرى إلى الموضع الذي كان محمَّدًا واقفًا فيه. كانت امرأة شابّة، وعلى الأرجح أنّها في مطلعِ الثلاثينيّات من عمرها، شعرُها طويلٌ وأسودُ مثلُ شعر عفراء وينسدلُ على وجهها عندما تهبُّ الريح. أزاحتْه بيدها ونظرت إليَّ مرة أخرى، فقلت لها: «هل أنتِ على ما يرام؟».

«أنا؟» قالت.

أومأتُ بالإيجاب، فألقَتْ نظرةً خاطفةً مرَّة أخرى على محمَّد وخطت خطوة باتجاهي وقالت متردِّدَة: «كلّ ما في الأمر أنّي... كلّ ما في الأمر أنّي فقدتُ ابني أيضًا. كلّ ما في الأمر أنّي... أعرف. أعرف ماذا يعني الفقد. ماذا يعني الخواء. إنَّه أسود كالبحر». ومن ثمَّ أشاحت ببصرها عنِّي ولم تزد على ما قالته ولو كلمة، بيد أنّ الريح الآتية من البحر وصدى كلماتها تسلَّلَت تحت بشرتي وأكْمَدَتْ قلبي.

كان الرجل الذي عُيِّنَ قبطانًا قد صعد إلى القارب، وكان المهرِّب يريه شيئًا ما على هاتفه المحمول ويشير جهة البحر. كان الناس يتحرَّكون قريبًا إلى الماء، وقد أحسُّوا بأن أوان الرحيل قد حان، فبدؤوا جميعًا ارتداء سترات النجاة البرتقالية، وكنتُ مشغولًا في تثبيت أربطة سترة محمَّد ثم ساعدتُ عفراء في ارتداء سترتها.

لوَّح لنا المهرِّبُ بيده فاقترب كلّ واحد منّا من حافّة الماء، وصعدنا واحدًا واحدًا إلى القارب المترجرج. جلس محمّد قربي بأمان. عفراء لم تنطق بكلمة، لم تخرج من فمها ولا كلمة واحدة، ولكنّي أحسستُ بخوفها؛ روحُها قاتمةٌ كالسماء الآن، مضطربةٌ كالبحر.

طلب منّا المهرِّبُ إغلاق هواتفنا المحمولة وإطفاء مصابيحها. ينبغي لنا ألَّا نُحْدِثَ أيّ ضجة أو يصدرَ عنَّا أيّ ضوء حتى نصل المياه الدولية.

قال أحد الرجال: «وكيف سنعرف أننا وصلنا المياه الدولية؟».

«لأنّ الماء سيتغيَّر. سوف يصير مغايرًا» قال المهرِّب.

«ماذا يعني ذلك؟».

«سيتغيَّرُ لونُ الماء... سترى، سيصير لونُه لونًا غيرَ مألوف».

القبطانُ هو الوحيد الذي أبقى هاتفه شغَّالًا، من أجل استخدام الـ (GPS)[1]. ذكَّرَه المهرِّب أن يتْبَع الإحداثيات، وإذا ما حصل طارئٌ للهاتف، فعليه أن ينظر إلى الأضواء في البعيد ويسير باتجاهها.

شُغِّلَ المُحرِّك وانطلقنا في العتمة، وبَدَنُ القارب المطاطي يصرُّ فوق الأمواج.

سمعتُ طفلةً تقول: «الأمر ليس سيّئًا جدًّا. ليس سيّئًا على الإطلاق!». ثمَّة انتصارٌ في صوت الطفلة وكأنّنا قهرنا قبيل لحظات خطرًا عظيمًا.

(1) نظام تحديد المواقع الجغرافية (Global Positioning System).

«إشش!» هسَّت أمها ثم أضافت: «إشش! طلبوا منّا ألا نُحدِثَ ضجة!».

شرع رجلٌ يتلو آيةً من القرآن، وبينما أوغلنا داخل البحر، شارَكه التلاوة أناسٌ آخرون، وقد اختلطت أصواتهم بأصوات الأمواج والريح.

وضعتُ يدي في الماء وأبقيتها هناك، أتحسَّسُ حركة القارب، واندفاع البحر، ونشاطه، والطريقة التي تزداد فيها برودته ونحن نبتعد عن اليابسة. وضعتُ يدي الأخرى على ذراع عفراء ولكنّها لم تبدِ أيّ ردّ؛ شفتاها مزمومتان، مثل صدفة مُغْلَقَة.

أسنان محمّد كانت تصطك ثم قال: «لم نسقط في الماء بعدُ».

ضحكتُ قائلًا: «لا، ليس بعدُ».

اتَّسَعَت عينا الصبي، وقد امتلَأتا بخوف حقيقي. بدا أنّه ما فتئ يعتمد على تفاؤلي الجاهل بالأمور. فقلتُ له:

«لا تقلق، لن نسقط في الماء. فالناس يتضرَّعون إلى ربِّهم. والله سيسمعنا».

«ولماذا لم يسمع دعوات الآخرين ممّن سقطوا في الماء؟».

«لقد خضنا النقاش في هذه المسألة سلفًا».

«أعرف. لأنّه على رأسنا ريشة. قدماي رطبتان».

«وكذلك قدماي».

«قدماي باردتان».

«وكذلك قدماي».

نظر محمَّد نظرة خاطفة إلى عفراء وقال لي: «وهل قدما زوجتك باردتان؟».

«أظن ذلك».

«ولماذا لا تتفوَّه زوجتُك بأيّ كلمة؟».

حملق الصبي فيها برهة، ناظرًا إلى وجهها، حجابها، ثيابها، يديها، ساقيها، ثمَّ قدميها. تابعتُ نظرات عينيه، متسائلًا عما يجول في خاطره، ما الذي يحاول أن يستفهمه، وأين أمُّه.

«كم ستستغرق الرحلة؟».

«ست ساعات».

«وكم مرَّ منها سلفًا؟».

«ست دقائق».

«لا. مرَّ وقتٌ أكثر من ذلك!».

«إذن، لماذا تسأل؟».

«بل ست عشرة دقيقة!».

«كما تشاء، ست عشرة دقيقة».

«بقي على نهاية رحلتنا خمس ساعات وأربع وأربعون دقيقة. سأحسب الوقت».

«ابدأ الحساب».

ثم شرع يحسب، ولكن ما إنْ وصل إلى الدقيقة الخامسة إلّا وغطَّ في النوم ورأسُه على كتفي.

كانت إحدى يديَّ لا تزال على ذراع عفراء واليد الأخرى في الماء. نظرتُ في العتمة، في كلّ هذا الكمّ الهائل من البحر والسماء، ولم يكن بإمكاني أن أعرف أين ينتهي أحدُهما وأين يبدأ الآخر. أهذا ما تراه عفراء كلّ يوم؟ هذا الغياب لتكوين الأشياء؟

بدأت فتاةٌ البكاءَ. «إشش! إشش! لقد طلبوا منّا عدم إحداث أيّ ضجّة!». قالت أمّها.

«ولكنّنا صرنا في المياه الدولية. ومسموحٌ لي أن أحدث ضجّة الآن!».

وردًّا على ذلك بدأت الأمّ تضحك. ضحكت من قلبها وتحوَّلَت الفتاة بغتةً من البكاء إلى الضحك أيضًا. وبعد انتظار، التقطت الأم أنفاسها وقالت: «لا، لم نصلِ المياهَ الدولية بعد».

«وكيف عرفتِ؟».

«أعرف».

«حسنًا. عندما نصل المياهَ الدولية، هلَّا أبلغتني بذلك؟».

«حتَّى ترفعي عقيرتك بالبكاء؟».

«نعم. أنا بحاجة للبكاء بصوت عالٍ» قالت الفتاة.

«لماذا؟».

«لأنَّ ذلك يعبِّر عن مقدار خوفي».

«اذهبي إلى النوم الآن» قالت الأم.

ومن ثمَّ خيَّم الصمت. ما من دعوات، أو آيات ترتَّل، ولا همسات.

وربَّمَا خلدْتُ إلى النوم أيضًا، فقد تخايَلَتْ أمامي مجموعةٌ من الصور:

قطع ليغو ملوَّنة متناثرة فوق أرضية البيت؛

بلاط أزرق بزهور سوداء؛

عفراء ترتدي فستانًا أصفر؛

سامي يلعب بقطع الليغو في غرفة الجلوس، يبني بها منزلًا؛

المناحل في الحقل تحت شمس منتصف النهار؛

الخلايا المحترقة والنحل الميت؛

مصطفى جالسًا وسط الحقل؛

جثثٌ طافية في النهر؛

فراس مستلقٍ على الطاولة في محفظة عرض الجثث؛

مصطفى ممسكًا يد ابنه؛

عفراء في السوق وسامي على ركبتها؛

عينا سامي.

ومن ثم سادَت العتمة.

استيقظتُ مشدوهًا بسبب الذعر من حولي.

ازدادت الأمواج حجمًا.

أحد الرجال كان يصيح: «اغرفوا الماء! هناك الكثير من الماء!».

ثمَّة مصابيحُ هواتف تومض، وأيادٍ تغرف الماء، وأطفال يبكون. كان محمَّد دهشًا وقد اتسعت عيناه وهو يساعد في إفراغ القارب من الماء. تابعتُ المشهد بينما وثب الرجال إلى البحر، وقد طفا القارب من فوره مرة أخرى. قالت عفراء:

«نوري! أأنتَ على متن القارب؟». فقلت:

«لا تقلقي. نحن على متن القارب».

«ابقَ في القارب. لا تقفز إلى الماء».

كان محمَّد لا يزال يغرف الماء بيديه؛ وكل مَنْ في القارب يحذو حذوه. بدأت الفتاة بالبكاء والصراخ الآن. كانت تنادي على الرِّجال في البحر، تناديهم أن يعودوا إلى القارب.

تابع الماء ارتفاعه فقفز مزيد من الرجال عن القارب. كان الأطفال يصرخون كافَّة باستثناء محمَّد. رأيتُ وجهه، مكتسيًا الجدية والإصرار، بين ومضات الضوء.

حلَّت لحظة من العتمة الكاملة، وعندما ومض ضوء مصباح الهاتف مرة أخرى، لم أرَ محمَّدًا. ما عاد محمَّدٌ على متن القارب. أمعنتُ النظر في الماء، في الأمواج السوداء، قدر ما استطعت، ومن ثمَّ، ودونما تفكير، قفزتُ في الماء. كان الماء باردًا كالثلج ولكن الأمواج لم تكن عاتية مثلما تخيَّلتُهَا، فسبحت حول القارب، وأنا أومض بمصباح الهاتف فوق سطح الماء. صحت:

«محمَّد! محمَّد!» ولكن ما من جواب.

أمكنني سماعُ صوت عفراء من القارب، كانت تنادي، ولكنّي لم أسمع ما الذي كانت تقوله. تابعتُ البحث في الماء الأسود كسواد الحبر. كيف لي أن أرى محمَّدًا وهو يرتدي ثيابًا سوداء وشعره أسود؟ ناديتُ:

«محمَّد! محمَّد!».

أوْمَضَ المصباح فوق وجوه الرجال. نزلتُ إلى يمِّ الصمت الأسود، ولكن شقّت عليّ الرؤية حتى مع وجود المصباح. بقيت

تحت الماء أطول مدة استطعتها، متحسّسًا بيدي عساني أمسك شيئًا ما، ذراعًا أو ساقًا؛ وعندما لم يبقَ هواءٌ أتنفّسه في رئتيَّ، عندما ألقى شبح الموت ظلالَه عليَّ، عدتُ وأنا أشهقُ إلى حيث العتمة والريح.

كنتُ موشكًا على سحب نفس عميق والعودة إلى تحت الماء عندما رأيتُ رجلًا يُمسِكُ محمَّدًا، ويرفعُه إلى القارب. حَضَنَت النساء الصبيّ الذي كان يسعل ويدمدم، ونزعن أغطيةَ رؤوسِهِن ولففنَه بها.

بتنا في عمق المياه الدولية الآن؛ كان المهرِّب على صواب، فقد تغيَّر الماءُ فعلًا، وباتت الأمواجُ مختلفة، وإيقاعُها غريبًا. ومن ثَمّ، أضاء الجميع مصابيح هواتفهم المحمولة، أملًا منهم في أنَّ أحدَ خفر السواحل قد يراها، أملًا في أن نكون قريبين بما يكفي من اليونان بحيث يمكن لأحد أن ينقذنا. هذه الأضواء في العتمة كانت مثل دعوات؛ لأنّه لم يكن هناك أيّ علامة على قدوم أحد. لم يستطع الرجال العودة إلى القارب، فلا يزال الكثير من الماء داخله. أحسستُ بجسدي وقد صار خدرًا. أردتُ أن أنام، أردتُ أن أريحَ رأسي على الأمواج المتحرِّكة وأنام.

«نوري! نوري!» كان أحدهم ينادي.

رأيتُ النجومَ فوق رأسي، ووجهَ عفراء.

«نوري، نوري، هناك قارب!» ثم أحسستُ بيد على ذراعي. «عمِّي نوري، هناك قارب قادم!».

كان محمّد يحملق فيّ، ويشدُّني. بدأت سترة نجاتي تنتفخ ولكنّي بدأت أرفس بساقيَّ حتّى أبقى طافيًا على الماء، لكي أجعل الدم يسري في جسدي مرة ثانية.

في البعيد ثمَّة ضوءٌ لامعٌ يتّجه نحونا.



6

بعد أن نِمْتُ على أرضية الحديقة الإسمنتية، أستيقظُ هذه المرَّة لأجدَ المغربيَّ واقفًا سَلَفًا فوق رأسي وهو يمدُّ يدَه صوبي ليشدَّني حتّى أنهض وهو يقول بالإنجليزية: «كيف حالُك يا رجل؟». ثم يقول لي بالعربية إنَّ عفراء تنتظرني في الداخل، وهي تبدو حتَّى أكثر اضطرابًا ممّا كانت عليه في المرَّة السابقة. عندما أصعد إلى الطابق العلوي، أجدُها جالسةً في السرير، وظهرُها صوب الباب ووعاء الزهور في حضنها. ثم تقول لي: «أين كنتَ؟» قبل أن تتاح لي حتَّى الفرصة للحديث.

«غلَبَنِي النومُ في الطابق الأرضي».

«في الحديقة مرة أخرى؟».

لا أجيبها.

«لا رغبة لكَ في النوم بجانبي».

أغضُّ الطرفَ عن تعليقِها، وأعطيها كُرَّاسَةَ الرسم وأقلام التلوين وأضعها في حضنها، وأُدْنِ يديَها منها حتَّى يتسنَّى لها أن تتحسَّس ما تلك الأشياء.

«هدية أخرى؟» تبادرني قائلة.

«أتذكرينَ ما فعلتِ في أثينا؟» أقولُ لها، ومع أنّها تبتسم، إلّا أنها تضع الكرَّاسة والأقلام على الأرض بجانبها.

«أراكِ قد ارتديتِ ثيابك سلفًا، ولذا فأنا ذاهب أتمشَّى. أترغبين في المجيء معي؟».

أنتظر برهةً، واقفًا هناك مصغيًا إلى ردِّها الصامت، وعندما أجد بأنّها لن تردّ، أتّجه نازلًا إلى الطابق الأرضي ومن ثم أخرج إلى حيث الضوء. أذهب إلى المكان الذي بُنْيَتْ فيه القلعة الرملية. الرمل متكتِّل، وفيه قطع مختلفة منفصلة ملونة متداخلة فيه. أمسكُ قطعةً من بلاستيك وردي شفَّاف، على الأرجح أنها قطعة من كأس مكسورة، وأرميها في البحر فتبتلعها الأمواج.

ورائي بالضبط، ثمَّة عجوزٌ تجلس في كرسيّ شاطئي تقرأ كتابًا. تجلس تحت شمسيَّة وقد اعتمرت قبّعة واقية من أشعّة الشمس، وقربها قنينة واقٍ شمسي. لا يبدو أنّها لاحظت بأنَّ الشمس قد احتجبت وأنّ المطر قد يهطل حتَّى.

ثمَّة بضعة أشخاص ينزِّهُونَ كلابَهُم، والقيِّم على الشاطئ يجمع القمامة. الوقت هنا هو اللحظات التي تلي سطوع الشمس. أما اللحظات التي تلي الحرب فمسألة أخرى. ثمَّةَ إحساسٌ بالهدوء ها هنا، إحساسٌ بأن الحياة مستمرة. إحساسٌ بأمل في يوم مشمس آخر. في البعيد، إلى اليسار، يأتي صوتُ موسيقى خافت من مدينة الملاهي على رصيف الميناء، موسيقى لا تنقطع البتَّة.

الشمس تندفع عبر السحب ويلتمع البحر فجأة.

«المعذرة» يقول صوتٌ من ورائي. ألتفتُ وأرى المرأة عابسة، بشرتها جاسئة جدًّا وسمراء وتبدو وكأنّها كانت تستحم حمَّامًا شمسيًّا في سهول سوريا الترابية.

«نعم؟» أقول لها.

«هلَّا ابتعدتَ عن الضوء رجاءً، أرجوك؟ شكرًا لك». شكَرَتني على التحرُّك حتّى قبل أن أتحرَّك. من الصعوبة بمكان التعوُّد على الأخلاق البريطانية؛ ولذا أتفهَّم اضطراب المغربي. يبدو أنّ الانتظامَ في الدَّور مسألة مهمّة هنا. فالنَّاسُ هنا يشكِّلُون طابورًا واحدًا في أيِّ محلّ من المحلَّات. والأجدى بكَ أن تتَّخذَ مكانَك في الطابور وألَّا تحاول أن تتجاوز الدَّورَ إلى الأمام، لأنَّ هذا غالبًا ما يُشْعِر الناس بالضِّيق! هذا ما قالَتْه لي المرأة في تيسكو[1] الأسبوع الفائت. ولكنِّي لا أحبُّ طوابيرهم، ولا نظامَهم، ولا حدائقهم الصغيرة المرتَّبَة ولا شرفات منازلهم الصغيرة الأنيقة ولا نوافذهم الناتئة التي تأتلق ليلًا بوميض شاشات تلفازاتهم. فكل ذلك يذكِّرني بأنَّ هؤلاء القوم ما رأوا الحربَ قطَّ. يذكِّرُني بأنه هناك في الوطن لا أحد يشاهد التلفاز في غرفة جلوسه أو على شرفته، ويجعلني ذلك أفكِّر بكل ما طالتْهُ يد التدمير.

أسأل عن كيفية الذهاب إلى عيادة جراحة الطب العام، فأجدها على ربوة في أحد الشوارع الجانبية القادمة من البحر. العيادة تعج بالأطفال المصابين بنزلات البرد. هي ذي أمٌّ تضع منديلًا على وجه

(1) سلسلة محلات بريطانية كبرى متخصِّصة في تجارة التجزئة العامة تأسست عام 1919.

ابنها وتطلب منه أن يمخط أنفه. بعض الأطفال يلعبون بالدمى على سجادة صغيرة في زاوية صالة الانتظار. البالغون يقرؤون المجلَّات أو يتابعون شاشة عرض الأسماء، منتظرين دورَهُم.

أقف في الطابور إلى طاولة موظفة الاستقبال. أمامي خمسة أشخاص في الدَّور. ثمَّةَ خطٌّ أصفر على الأرض كتبت عليه الكلمات التالية: «انتظم في الدور خلف هذا الخطّ».

المرأة التي في رأس الطابور تناول موظّفة الاستقبال عيِّنةً من البول. فتسحب الموظّفة نظَّارةً ذات إطار أحمر من كتلة من خصال شعرها الصغيرة. تتفحَّصُ العبوة، وتُدْخِلُ معلومات في نظام البيانات، وتختم عبوة البول وتضعها في علبة سيلوفان وتنادي: «المريض التالي!».

أحتاج إلى خمس عشرة دقيقة لكي أصل إلى رأس الطابور وقد جهَّزْتُ رسالة طلب اللجوء. عندما أضعُها على الطاولة، تُنْزِل نظَّارتها فوق أنفها وتقرَأ ما في الرسالة.

«لا نستطيع أن نسجِّلَكَ» تقول لي.

«وما المانع؟».

«لأن رسالة طلب اللجوءِ ليس بها عنوان».

«ولماذا تحتاجين إلى عنوان؟».

«حتى نسجِّلكَ، نحن بحاجة لأن نرى عنوانًا مسجَّلًا».

«بإمكاني إعطاؤك العنوان».

«يجب أن يكون العنوان مكتوبًا على رسالتك. أرجو منك العودة إلى هنا عندما يكون في حوزتك كل الثبوتيات الصحيحة».

«ولكن زوجتي بحاجة لأن يفحصها الطبيب».

فتقول: «أنا آسفة يا سيِّدي. فتلك أنظمتنا».

«ولكن تعليمات الـ (NHS[1]) تنصُّ بوضوح على أنَّ عيادات الأطباء لا يمكن لها أن ترفض استقبال مريض في حال لم يكن معه أوراق ثبوتية أو دليل على عنوان واضح».

«آسفة يا سيِّدي» تقول واضعة نظَّارتها في خصلات شعرها، وفمُها خط مزموم ثم تردف: «تلك أنظمتنا».

المرأة التي ورائي تتأفَّفُ بأدب. تدفع موظفة الاستقبال الأوراق نحوي بصورة معتذرة. أقف هناك ناظرًا إلى الأوراق، وفي تلك اللحظة يهشِّمُنِي شيء ما. ليست سوى ورقة. وهذه ليست سوى موظّفة استقبال في عيادة طبيب. ولكن في عزِّ الهرج والمرج، والناس يموجون حولي، والهواتف ترنُّ من الحجرات الصغيرة الواقعة خلف الطاولة، وضحكات الأطفال... أسمعُ صوت قنبلة يشقُّ عنان السماء، أسمع تشظي الزجاج...

«أأنت بخير يا سيِّدي؟».

(1) (National Health Service) هيئة الصحّة الوطنية.

أرفع بصري. ثمَّة وميضٌ وصوت ارتطام. أنبطِحُ وأغطِّي أذنيَّ. أحس بيد على ظهري، ثم أحسُّ باقتراب كأس ماء.

«أنا آسفة حقًّا يا سيِّدي» تقول موظفة الاستقبال، وحالما أقف وأشرب الماء، تردف قائلة: «ليس باليد حيلة. هلَّا أحضرْتَ الأوراق الصحيحة كلها وعُدْتَ إلى هنا؟».

أمشي على الطريق الذي ينعطف مبتعدًا عن البحر، الطريق الذي ينتشر عليه صفٌّ من المنازل المبنية من القرميد البُنِّي المتماثل منزلًا حذاء آخر، وأطفق راجعًا إلى منزل الإقامة المؤقَّت.

أجد عفراء على سريرنا مرَّة أخرى، ومعها الآن بعض الزهور في يديها. أنحني أمامها وأنظر في عينيها.

«أريدُ أن أنامَ معك» تقول لي، وما تعنيه من مقالتها تلك هو: «أنا أحبُّك، أرجوك عانقني». ثمَّة نظرةٌ على محيَّاها أعرفها منذ سنوات خلت، نظرةٌ تجعل حزني يبدو مثل شعور ملموس، مثل نبض، ولكنه يجعلني خائفًا أيضًا، خائفًا من القدر والحظ، خائفًا من الأذى والأذيَّة، خائفًا من عشوائية الألم، وكيف يمكن أن تأخذ منك الحياة كل شيء على حين غرَّة. مع أن الوقت لا يزال في مطلع الظهيرة، فإني أستلقي إلى جانبها على السرير وأمكِّنُهَا من أن تحيطني بذراعها وتضغط براحة يدها على صدري، ولكني لا ألمسها. تحاول أن تمسك يدي فأسحبها بعيدًا. يداي تنتميان إلى زمن آخر، عندما كان إظهار الحبِّ لزوجتي مسألة هيّنة.

عندما أستيقظ أجدني في العتمة، عتمة مرتعشة. رأيتُ حُلمًا عن شيء غريب، ليس حلمًا عن القتل هذه المرة؛ في ذهني لمحةٌ من ممرَّات وأدراج وممَاشٍ تشكل شبكة، في مكان بعيد جدًّا عن هنا، وصورة للسماء في الصَّباح ونار حمراء



نار

حمراء، نار تلتمع على الشاطئ عند الفجر. مثل خشب قذفه التيار على الشاطئ، تُركْنَا على جزيرة فارماكونيسي العسكرية الصغيرة. أصابنا البللُ ونالَتِ منا الرجفة وكانت الشمس قد بدأت تشرق قبيل لحظات. كان وجه محمد أبيضَ وأزرقَ، ولا تزال أحجبة النساء ملفوفةً حول جسده وكان يمسك الآن يد عفراء لسبب ما. ومع ذلك لم يكلِّم أحدُهُما الآخرَ؛ ولا حتى كلمة واحدة. كل ما فعلاه أنهما وقفا هناك على الشاطئ والبحر من ورائهما والشمس ترتفع لكي تحييهما. وكان أحد الرجال قد جَمَّعَ سترات النجاة وأضرم بها نارًا ضخمة دفَّأَنَا لهيبُها فتحلَّقْنَا حولها.

«سقطتُ في الماء» قال محمَّد، وقد أمسك بيدي الآن.

«أعرف».

«متُّ برهة قصيرة».

«كنتَ قريبًا من الموت».

«ولكنّي متُّ هنيهة قصيرة».

«وكيف تعرف ذلك؟».

«رأيتُ أمّي. كانت تمسك يدي في الماء وتشدُّني ثم تشدُّني، وكانت تطلب منّي ألَّا أخلد إلى النوم؛ لأنّي إنْ فعلتُ ذلك فإنّي سأنام إلى الأبد ولن أكون قادرًا على أن أستيقظ مرة أخرى وألعب. لذا أظنُّ

أني متُّ هنيهة قصيرة ولكنّها طلبت منّي ألّا أموت».

تساءلتُ ما الذي حصل مع أمّه، ولكنّي لم أرغب في سؤاله. على ما يبدو أنَّ مركبًا آخرَ تابعًا لمنظّمة إغاثة غير حكومية سيأتي وينتشلنا ويأخذنا إلى جزيرة أخرى؛ وفي غضون ذلك اضطررنا لأنْ ننتظر هنا على الشاطئ. كان هناك مركبُ شحن ضخم، ولكنَّه كان ممتلئًا سَلفًا على بكرة أبيه بالبشر؛ والقصَّة التي سرت هنا أنّهم كانوا قد وصلوا باكرًا تلك الليلة قادمين من منطقة أخرى من تركيا، منطقة بعيدة على طول الساحل. كانوا يعتزمون الذَّهاب إلى جزيرة أخرى إلّا أنّ المحرِّك تعطَّل فانجرَف قاربُهم نحو فارماكونيسي. وقد عَثَرَ عليهم خفرُ السواحل، وأعادوهم إلى هنا. خرج بعضُ الرجال والأطفال ليتحدَّثوا معنا ويظفروا بدفء توفِّرُه النار لهم.

«عمِّي نوري!» قال محمَّد، وكشفت ابتسامةٌ عريضةٌ عن فراغات لأسنان سقطت من مكانها. «هذا المكان يدعى جزيرة البسكويت! الفتاة التي في المركب قالت لي ذلك!».

كان صباحًا باردًا وغطست النوارسُ والبَجَعُ في البحر. في ظلِّ الأمان الذي تمنحه هذه الأرض وفي ظلّ دفء النار والشمس، بدأ الناس يغطُّون في النوم. كان محمَّد مستلقيًا وقد تمدَّد على ظهره. لم يكن نائمًا؛ بل كان ينظر إلى الأعالي صوب السماء الزرقاء الواسعة، شبه مغمض عينيه بسبب الضوء المتوهّج. أمسك في يده بِلْيَتَه الصغيرة، وهو يدحرجها بين أصابعه. كانت عفراء جالسة بجانبي من الجهة الأخرى. وضَعَتْ رأسَها على كتفي ويدها تقبض على

ذراعي وكأنّي قد أنسلُّ من بين يديها. كانت تتشبث بي بإحكام حتّى إنَّ قبضتَها لم ترتخ، حتّى عندما غطَّت في النوم، وتذكَّرْتُ سامي إذ كان طفلًا، والطريقَة التي اعتاد أن يغطَّ فيها في النوم وحلمة عفراء في فمه، يده الصغيرة لا تزال متشبِّثة بحجابها. يا لَه من أمر مُذهل! يا لَه من أمر مُذهل كيف نحبّ الناس منذ يوم مولدنا، مذهلة هي الطريقة التي نتشبَّث فيها بذلك الحبّ! وكأنّنا نتشبَّث بالحياة ذاتها.

«عمِّي نوري؟» قال محمَّد.

«نعم».

«هلَّا حكيتَ لي حكايةً عساني أستطيع النوم على كلماتها؟ فقد اعتادت أمّي أن تحكي لي حكاية عندما يجافيني النوم».

تذكَّرتُ حكايةً اعتادت أمي أن تحكيَها لي عندما كنتُ صبيًّا صغيرًا في الغرفة ذات البلاط الأزرق. تذكَّرْتُ أمّي وقد دسَّتْ رأسَها في الكتاب، ومروحة حمراء تلتمع في يدها اليمنى، وهي تأكل حلوى «كول وشكور»؛ حلواها الحلبيّة الأثيرة على نفسها.

قال محمّد: «هيَّا يا عمِّي نوري! هيَّا وإلَّا فسأغطُّ في النوم وحدي دون سماع حكاية واحدة!».

أغاظني الصبي فجأةً. أردتُ أن أخلوَ بفكري، مستمعًا لصوت أمّي، والمروحة تأتلق في ضوء المصباح.

«إذا كنتَ تستطيع النوم، فلماذا تريدني أن أحكيَ لك حكاية؟».

«حتّى أنام نومًا أكثر هناءة». فقلتُ:

«حسنًا، كان يا مكان في قديم الزمان؛ كان هناك أحدُ الخلفاء الحكماء؛ وقد أرْسَل رجاله -ولا أستطيع أن أتذكّر بالضبط كم كان عددهم- في مهمّة ليعثروا على مدينة النحاس الغامضة الواقعة في أقاصي مجاهل الصحراء، المدينة التي لم يدخلها إنسيٌّ قطّ. استغرقت الرحلة سنتين وبضعة أشهر وكانت رحلة مليئة بالصعاب. وقد أخذ الرجال معهم ألفَ جمل وألفي فارس. هذا ما أتذكَّرُه».

«يا لَه من عدد ضخم! ماذا يمكن لامرئ أن يفعل بألف جمل؟».

«أعرف، ولكن هكذا جرت أحداث الحكاية. ثم عبَرُوا أرضًا مأهولة وخرائبَ وصحراءَ، تلفحُهم رياح ساخنة ولا ماء فيها ولا صوت».

«كيف يمكن ألَّا يكون هناك صوت؟».

«لم يكن هناك صوت. هذا كلّ ما في الأمر».

«عجيب! لا طيور ولا ريح ولا ناس يتحدَّثون؟».

«لا شيء من ذلك».

وقَفَ محمَّد. باتَ أكثر يقظةً من قبل. ربّما اخترتُ الحكاية الخطأ لأحكيها له.

«أيعقل ذلك!».

تابعتُ الحكاية: «حسنًا، وذات يوم، بلغ بهم المقام سهلًا واسعًا. رأوا شيئًا في الأفق، رأوا شيئًا طويلًا وأسودَ يتصاعد منه دخانٌ يطاول عَنان السماء. عندما اقتربوا تبيَّنَ لهم أنّها قلعة، مبنيّة من الحجارة السوداء ولها باب من الفولاذ».

«مذهل!» اتَّسَعت عينا محمَّد الآن، وقد فاضتا فضولًا ودهشة.

«لا أحسبُك نعسانَ الآنَ؟».

«لا» قال وهو يشدُّ على ذراعي علَّنِيْ أتابع سردَ الحكاية.

«حسنًا. وهكذا كان وراء الباب مدينة النحاس، يحميها سورٌ شاهقٌ. خلف السور فردوسٌ متلألئ من المساجد والقباب والمآذن والأبراج العالية والأسواق. أيمكنك أن تتخيَّل ذلك؟».

«أجل. مكان جميل!».

«جميل جدًّا ويلتمعُ بالنحاس والجواهر والأحجار الكريمة والرخام الأصفر. ولكن... ولكن...».

«ولكن؟».

«ولكنَّ المكانَ خاوٍ على عروشه. لا حركة فيه، ولا صوت. لم يجد الرجال أيّ بشرٍ. في الدكّاكين، في البيوت، على نواصي الشوارع... لا شيء سوى الخواء. لا حياة في هذا المكان. حياة بلا جدوى شأنها شأن الغبار. لا شيء يمكن أن يعيش هنا. لا شيء يمكن أن يتغيَّر».

«لماذا؟».

«اسمعني. في وسط القلعة سرادقٌ كبيرٌ جدًّا له قبّة ترتفع عاليًا في السماء. وصلوا موضعًا فيه مائدةٌ طويلة حُفِرَت على سطحها الكلمات التالية: (على هذه المائدة أكَلَ ألف ملك ممن كانت عيونهم اليمنى عمياء، وألف ملك ممن كانت عيونهم اليسرى عمياء، وألف ملك ممن كانت كلتا عينيهم عمياء، وكلُّهم رحلوا عن العالم وباتوا في القبور والسراديب). كان كل الملوك الذين حكموا هذه الأرض عميانًا، بطريقة أو بأخرى، ولذا فقد تركوها مليئة بالثروات وخالية من الحياة».

تمعَّنْتُ وجهَ محمَّد، فرأيتُ الأفكار تستعر وراء عينيه. سادَ صمتٌ، وكأنه كان يحبس أنفاسه. ومن ثم زفر قائلًا:

«إنّها حكاية حزينةٌ جدًّا».

«بلى، إنّها حكاية حزينةٌ جدًّا».

«أحقيقية هي؟».

«إنَّهَا حقيقية دائمًا، ألا تظن ذلك؟».

«حقيقية مثل الوطن الذي تركناه؟».

«نعم، إنها مثل الوطن تمامًا».

استرخى محمد والتفت صوب النار المتوهّجة وأغمض عينيه.

وأنا أرى الدخان يصَّاعَدُ إلى سماء الصباح، تذكَّرتُ مصطفى وهو ينفث الدخان في خلايا النحل أثناء موسم جني العسل؛ فقد استخدمنا الدخان لنحميَ أنفسَنا ونحن نجمع العسل. وبتلك الطريقة فإنّ النحل لن يستطيع شمَّ الفيرومونات التي تصدر عن رفاقه من النحل وستقلُّ احتمالية قيامه بلسعنا دفاعًا عن النفس.

ملأنا علبةَ صفيح بقطع الخشب ونشارته وأوقدنا نارًا، وحالما اشتدَّ أوارها قليلًا، نفخنا على اللهب المنطلق وسكبنا عليه مزيدًا من الوقود من الأعلى. لسنا بحاجة إلى لهب شديد؛ لأنهّ إذا أصاب المنافيخ فإنها تصير مثل قاذف لهب ما سيتسبّبُ في حرق أجنحة النحل.

عندما كان عندنا عددٌ كبيرٌ جدًّا من المستعمرات لم نستطع إدارتَها وحدَنا ولذا استأجرنا عمالًا يساعدوننا في إنشاء خلايا جديدة، وتربية ملكات النحل، وفحص المستعمرات بحثًا عن أيّ عدوى طفيلية وكذلك في جني العسل. في الحقل الذي وقف فيه مصطفى، كان عمّالنا أيضًا ينفثون الدخان في المستعمرات، ودوائر الدخان تنطلق من علب صفيحهم ومن ثم إلى السماء الزرقاء حيث لفَحَنَا لهيب الشمس جميعًا. حضَّر مصطفى غداءً للجميع -غداءً مكوَّنًا عادة من العدس أو البرغل مع السلطة أو الپاستا أو البيض بالطماطم، وبعد ذلك جبنة بلدية طرية مع العسل. كان عندنا كوخ صغير فيه مطبخ، وفي الخارج سُدَّة لها مراوح لكي توفّر بعض الراحة من الحرارة. جلسنا معًا لنأكل، مصطفى على رياسة المائدة الخشبية، واضعًا الطعام في فمه بعد عمل الصباح الشاقّ، ومن ثم يغمسُ الخبز في

صلصة الطماطم. كان يشعرُ بشديد الفخر، فخورًا وممتنًا لما أنجزناه معًا، ولكنّي كنتُ أتساءلُ في سرِّي دومًا إذا ما كان امتنانه نابعًا أيضًا من الخوف، الخوف من المجهول، الخوف من كارثة مستقبلية ما.

فَقَدَ مصطفى أمه عندما كان في الخامسة، فقد ماتت مع طفلها أثناء الولادة. أظنّه عاش إلى الأبد على شفير الكارثة الوشيكة، وكان يقدِّرُ كلّ شيء بفرح وفزع كطفل. كان يقول وهو يمسح الصلصة عن ذقنه: «نوري، انظر إلى عظيم صنيعنا! أليس ذلك مدهشًا؟ أليس ذلك مدهشًا فحسب؟» ولكن كان في عينيه بريق شيء آخر، عتمةٌ تبيَّن لي أنها كامنة في قلبه إبَّان طفولته.



7

في الصَّباح، عندما أستيقظ للذهاب إلى الحمَّام، أجدُ بابَ غرفة ديوماندي مُشْرَعًا وأراه يجمَع أوراقًا مبعثرة عن الأرض. القرآن مفتوحٌ فوق سريره غير المرتَّب. يَضَعُ رزمة الورق في دُرج، ثم يفتح الستائر فيغمرُ ضوءُ الشمس الغرفةَ، ليجلس بعدها على حافّة السرير. لا يرتدي سوى سروال بذلته الرياضية، جسده محدودب ويمسك قميصَه بيديه كلتيهما.

لم يلحظ أنِّي واقفٌ في مدخل الباب، فذهنُه سارحُ في مكان ما، ثم يلتفت بدرجة خفيفة صوب النافذة ولذا أرى تشوُّهًا غريبًا بارزًا من بشرة ظهره حيث يفترض أن تكون فيه عظام فراشات ظهره. وكأنَّه خرج منذ لحظات من بيضة بعد أن فُقِسَتْ، وثمَّة نتوءان أبيضان صغيران، مشدودان وعضلاتهما قوية، مثل قبضات مُكوَّرَة. يستغرق عقلي لحظة حتى يدركَ ما رأتْه عيناي. ثم فجأة يسحب قميصه فوق رأسه. أنقل قدميَّ من موضعهما ويلتفت ليصير قبالتي.

«نوري، أهذا هو اسمك؟» تفزعني نبرة صوته المفاجئة، ثم يقول: «التقيتُ لوسي فيشر، وهي سيِّدةٌ لطيفةٌ جدًا. أظنُّها قلقةً عليَّ ربَّمَا. لقد قلتُ لها ألَّا تقلق: يا سيِّدة فيشر، لا تقلقي! ثمَّة فرصٌ في هذا

البلد. سأجدُ عملًا! قال لي صديقي إنَّه إذا أردتُ أن أكون في مأمن وأنْ أبقى حيًا فعليَّ القدوم إلى المملكة المتحدة. ولكنَّها تبدو قلقةً أكثر من قبل، وأنا الآن قلقٌ أيضًا».

أقفُ مكاني محملقًا فيه. لا أستطيع العثورَ على صوتي لكي أجيبه.

«عندما توفي أبي، واجَهْنَا وقتًا عصيبًا جدًّا، لم يكن هناك عمل، والمال قليلٌ جدًّا، ولا يوجد من الطعام ما يكفي لسدِّ رمق أُخْتَيْن، فقالت لي أمّي: (يا ديوماندي، سأجدُ بعض المال وسوف تذهب، سوف تذهب من هنا وتجد طريقة لمساعدتنا!)».

ها هو يحدودب أكثر إلى الأمام الآن بحيث ترتفع الانتفاخات التي في ظهره، ويضعُ أصابعَه الطويلة على ركبتيه ويدفع جسده حتى يقف.

«في الليلة التي سبقت يوم مغادرتي، حَضَّرَتْ لي أفضل طعام في العالم: طبق الكيدجينو[1]!». يلعق أصابعه ويبرم عينيه. «لم أكن قد أكلتُ الكيدجينو منذ عدَّة شهور، ولكن في تلك الليلة حضَّرَت لي طبقًا خاصًا منه».

أنظر إلى ظهره، إلى حركة نتوءيه تحت قميصه وهو ينحني ليحاذي فردتي صندله، ثم يدسُّه فوق جواربه. يبدو أنه يتألَّم. أقول له:

(1) مرقٌ متبَّلٌ يُطْهَى على نارٍ خفيفة أو على الفحم ويتألف من الدجاج والخضار. وهو طبق تقليدي معروف في ساحل العاج.

«ما مشكلة ظهرك؟». فيقول:

«انحنى عموديَ الفقري منذ كنتُ طفلًا».

لا بدَّ أني كنتُ أحملق فيه بطريقة غريبة لأنه توقَّف لحظةً ونظر إليَّ. إنه فارع القامة حتى إنَّه عندما يقف فإنَّ ظهره يحدودب أكثر، وعندما تلتقي نظراتُه نظرَاتي ألاحظ أنَّ له عيني عجوز. ثم يقول لي:

«هل ستأتي لنشرب الشاي بالحليب؟ فأنا أحبُّه جدًّا».

«نعم» أقولُ له، ويصير صوتي أجشَّ وأنا أردفُ: «أراكَ في الطابق الأرضي قريبًا».

أُقْفِلُ عليَّ بابَ الحمَّام حتى لا يدخلَ المغربي مرَّة أخرى، ثمَّ أغسلُ وجهي ويديَّ حتّى المرفقَين وأمسح رأسي وقدميَّ حتّى الكاحلَين. أنا أتعرَّقُ ولا أستطيع أن أكفَّ عن التفكير بالنتوءين لكي أفكِّر بكلمات الصلاة. بينما أقف على سجّادة الصلاة لأقول «الله أكبر»، أرى وجهي في المرآة فوق المغسلة وأتوقَّف ويديَّ محاذيتان لأذنيَّ. أبدو مختلفًا جدًّا الآن، ولكنِّي لا أستطيع معرفة مكمن الاختلاف. نعم، ثمَّة تجاعيد غائرة لم تكن هناك من قبل، وحتَّى عيني يبدو أنّهما تغيَّرتا فهما أشدُّ سوادًا وأوسعُ، ومتأهِّبتان دومًا، مثل عيني محمَّد، ولكنَّ التغيير لا يكمن في العينين، فقد تغيَّر شيءٌ آخر، شيءٌ ما، شيءٌ لا تسبَر أغواره.

تتأرجح قبضة الباب. «جيزير!».

لا أردُّ ولكنّي أترك الماء يجري حتّى يمتلئ الحمَّام، آملًا أن أرى

محمَّدًا، ولكنّه ليس هنا.

أُلْبسُ عفراء ثيابَهَا دونما استعجال. لستُ متأكّدًا لماذا لا تلبس ثيابها بنفسها، ولكن ها هي واقفةٌ هناك، وعيناها مغمضتان أحيانًا، بينما أنزل فستانَهَا على طول جسدها، وألفُّ حجابَهَا حول رأسها. هذه المرة لا تأخذُ بأصابعي عندما أثبّت دبابيس الشعر، بل تلوذ بالصمت لا أكثر ولا أقل. أرى في المرآة بأنَّ عينيها لا تزالان مغمضتين، وأتساءل لماذا هما مغلقتان، ما دامت لا تستطيع أن ترى على أيّ حال، ولكنّي لا أسألها. كانت تمسك البلْيَةَ بإحكام شديد حتَّى إنّ براجمها صارت بيضاء. ومن ثم تضطجع على السرير، وتمدُّ جسدَها صوبَ كُرَّاسة الرسم على المنضدة التي بجانب السرير، ثم تضَعُهَا على صدرها وتبقى على ذي الحال صامتة، في عالمها الخاصّ، وهي تتنفّس ببطء.

عندما ننزل إلى الطابق الأرضي، لا نجد المغربيَّ وديوماندي هناك. تقول لي صاحبة المنزل إنَّهُمَا خرجا ليستمتعا ببعض أشعّة الشمس. ها هي تنظِّف مرَّة أخرى، وهي تضع الكثير من المكياج، رموشًا سوداء طويلة تبدو كبيرة جدًّا عن أن تكون حقيقية وأحمرَ شفاه لامع لونُه بلون الدم النَّضِر. ولكن، وبصرف النظر عن الكمّية الكبيرة من ذلك الملمِّع الذي ترشُّه، وبصرف النظر عن كمّية الفرك الذي تفركه، فهي لا تستطيع التخلّص من الرطوبة والعفونة والرائحة الناجمة عن رحلات اللاجئين الرهيبة المملوءة بالخوف. أتساءل كيف وصل بها الحال لأنْ تأتيَ إلى هذه البلاد. وأحسبها وُلدَت هنا بسبب لُكْنَتِهَا البريطانية الممتازة، وأعرف أنَّ لديها الكثير من الأقارب لأنّي أسمع في الليالي ضوضاءَ كبيرة من غرفتها القريبة، أطفال وأقارب

آخرون يأتون ويروحون. تفوح منها دائمًا روائح التوابل والمُبَيِّض، وكأنّها منهمكة دائمًا إمّا في التنظيف أو الطبخ.

أَتَّصِلُ بلوسي فيشر وأُعْلِمُهَا بالمشكلة التي حصلت معي في عيادة الطبيب العام، فتعتذر وتقول إنَّها ستحضر الوثائق الجديدة في الغد. امرأة هادئةٌ وتؤدِّي عملها وَفق الأصول، ويروق لي أنَّ لوسي فيشر تتولَّى شأننا. ولكنَّ ذعرها، مع أنه ذعرٌ طفيف، يذكِّرُني بأنَّها بشر، وأنَّ لقدراتها حدودًا، وهذا ما يبثُّ الذعر في أوصالي.

عفراء جالسةٌ على الأريكة وهي تصغي إلى التلفاز. وبالإضافة إلى الجلسات مع لوسي فيشر، فهذه هي المرَّة الأولى التي توافق فيها على الخروج من غرفة نومها، وأن تفسح لنفسها المجال بصورة صغيرة أن تكون جزءًا من العالم. أجلسُ معها برهةً، ولكن في آخر المطاف أنطلق إلى الخارج إلى داخل الفناء الإسمنتي وأنظر انطلاقا من السور إلى حديقة صاحبة المنزل. كان محمَّدٌ على صواب! فهي خضراء جدًّا، ومليئة بالشجيرات والأشجار والزهور، وفيها سلَّةٌ معلَّقةٌ ومعلف طيور وبعض ألعاب الأطفال -درَّاجة زرقاء صغيرة يركبونها وحفرة رمل يلعبون فيها. ثمَّة أيضًا بركة فيها نافورة على شكل ملاك صبيّ يحمل محارة، ولكن لا ماء يخرج منها. الفناء أجردٌ ورمادي مقارنة بأرض الحديقة، ولكنّ النحلة مستقرة على إحدى الزهور، نائمة. الصينية الخشبية تذكِّرُني فجأةً بالمناحل وكيف كانت الخلايا مثل أعشاش النحل البرّي. أتذكَّر إخراجَ إطارات العسل كلًّا على حدة لأتحرَّى قرص العسل. كانت مهمتي تتمثَّل في أن أتأكَّد من أنَّ أعداد نحل العسل متوافقة مع كمّيات الرحيق. وكان عليَّ أن أعرف مواضع

تجمُّع النحل بأعداد كبيرة، ومواقع المحاصيل، ومن ثم أعد الخطط حتّى يَتسنّى لي إدارة المستعمرات وتحقيق أهدافي؛ لأن العسل لم يكن المنتج الوحيد الذي ننتجه، ولكنّنا أنتَجْنَا أيضًا حبوب اللقاح والعكبر وغذاء الملكات.

«عليكَ أن تُخْرِجَ سريرك إلى هنا»، ألتفتُ فأجد المغربيَّ واقفًا هناك وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، «ما أجملَ هذا اليوم!» يضيف وهو يرفع بصره إلى السماء، ثم يردف: «ويأتيك من يقول إنَّ هذه البلاد ليس فيها سوى المطر؛ لا شيء سوى المطر».

في غرفة الجلوس، في المساء، يلعب المغربي وديوماندي لعبة الكلمات والمشنقة مستَخْدِمَين كلمات إنجليزية. يلعبانها بأسلوب كارثي كله أخطاء! ولكني لا أنبس ببنت شفة، ولا أصحِّحُ لهما أخطاءَهما الإملائية، وسرعان ما يشاركهما النزلاءُ الآخرون اللعبَ. المرأة الأفغانية منافسةٌ لا تلين عريكتها وتصفِّقُ بصخب عندما تفوز. الرجل الذي تتحدَّث معه دائمًا، وقد عرفتُ الآن أنه أخوها، أصغرُ منها بقليل ويضع الكثير من الجل على شعره وله سكسوكة غير منتظمة. كلاهما ذكيَّان جدًا. وفي الليالي التي جلستُ فيها أستمع إليهما يتحدَّثان، سمعتُهما يتحدَّثان العربية والفارسية والإنجليزية؛ لا بَلْ وحتى قليلًا من اليونانية.

أنظرُ إلى ظهر ديوماندي، والنتوءين اللذين حسبتهما خطأً فراشتي ظهره، والطريقة التي يتحرَّكان بها تحت قميصه، والطريقة التي يحرِّك بها يدَه إلى عموده الفقري بين الفينة والأخرى، وهي عادة ما انفكَّ

يواظب عليها طوال حياته على الأرجح. هذا الشابُّ دائم الشكوى من الألم. ولكنّ ابتسامته وضحكته تشعَّان نورًا. إنه يحاجج المغربي عن أسلوب تهجئة كلمة (mouse)، إذ يظنُّ المغربيُّ أنَّ فيها حرفَ (w)، ويضرب ديوماندي بيده على جبهته.

عيناي تغمضان وتبدأ الأصوات في الاندماج بعضها في الآخر وعندما أفتحهما مرة أخرى أسمع النحل، ألوفًا منه تعمل مثلما اعتادت أن تعمل. هذه الضوضاء آتية من الخارج. الغرفة هادئة الآن، ما خلا صوت البِلْيَةِ تتدحرج على ألواح الأرضية. هو ذا محمَّد يجلس على الأرض.

يقول عندما يسمعني وأنا أتحرَّك: «عمِّي نوري! لقد نِمْتَ مدة طويلة».

الساعة على الحائط تشير إلى الثالثة فجرًا.

«هل وجدتَ المفتاح؟» يقول.

«لم يكن هناك مفتاح. فقد تبيَّن لي أنها زهور».

«لقد ذهبْتَ إلى المكان الخطأ. ليست تلك الشجرة، فالشجرة المقصودة تقع في الحديقة الأخرى. الحديقة الخضراء. إنها إحدى الأشجار الصغيرة. المفتاحِ معلَّق عليها هناك. أستطيع أن أراه عبر فتحة السور». فأقول:

«وما حاجتك إلى المفتاح؟».

فكان كل ما قاله: «أنا بحاجة لأن أخرج، هلَّا وجدتَ لي المفتاح؟».

أفتَحُ أبوابَ الفناء، فيتردَّد في أذني طنين النحل. الهواء سميك وشديد الوطأة، ولكنِّي لا أرى حتَّى ولو نحلةً واحدةً. العتمة خاوية. يتبعني محمَّد خارجًا إلى الفناء. فأقول له:

«أتسمع ذلك؟ من أين يأتي ذلك الصوت؟».

«ابحث فحسب في الحديقة الأخرى يا عمِّي نوري، وسوف تجد المفتاح».

أنظر من الفتحة، ولكن العتمة حالكة جدًا وأستطيع بصعوبة رؤية الأشجار، فما بالك بمفتاح!

«عليكَ أن تقفز من فوق السور» يقول لي بصوت يتعالى فوق صوت الضجيج، فوق هذا الطنين المستمر الآتي من أعمق مكان في السماء. مثل أمواج أو ذكرى. أُحْضِرُ السلم النقَّال وأتسلَّق السور إلى حديقة صاحبة المنزل. أجدُ نفسي محاطًا فجأةً بنعومة الأشجار والزهور المعتمة، والأشكال الغَبشَةُ التي تجلجل في النسيم. الدرَّاجة الصغيرة مسنودة إلى الجدار، وأَرى حافة حفرة الرمل وأسيرُ حولَها. أستطيع أن أسمع محمَّدًا يرشدني الآن، وهو يطلب منّي الانعطاف يسارًا، وفي آخر الأمر أرى ما الذي يتحدَّث عنه، أرى شجيرةً صغيرةً، وهذه المرة ثمَّة مفتاحٌ معلَّقٌ بغصن شجرة، مفتاحٌ يلتمعُ في نور القمر. عليَّ أن أشدَّه بقوة حتّى أنتزعه، فهو متشابك مع أوراق الشجر، لذا أضع الدرَّاجة بجانب السور بحيث يمكن لي أن أقف عليها لأتسلَّق

في طريق عودتي.

عندما أصير مرة أخرى في الفناء، لا أجد محمَّدًا. أُغْلِقُ أبواب الفناء درءًا للضوضاء وأصعد إلى الطابق العلوي وأنسلُّ إلى السرير. عفراء نائمة ويداها كلتاهما مستريحتان تحت خدِّها وهي تتنفّس ببطء وعمق. أضطجع على ظهري هذه المرة وأمسك بالمفتاح قريبًا من صدري. الطنين بعيدٌ الآن. أحسبني أسمع



الأمواج

في بحر إيجه هادئةٌ في مدة ما بعد الظهر. أُطْفِئت النارُ، وصرنا على متن سفينة بحرية متّجهة صوب جزيرة ليروس.

قال محمَّد: «هذه هي المرَّة الثانية التي أصعد فيها على متن سفينة. المرَّة الأولى كانت مخيفة بعض الشيء، ألَا تظنّ ذلك؟».

«مخيفةٌ بعض الشيء لا أكثر». تذكَّرْتُ سامي من فوري. فقد صعد سامي ذات مرة على متن قارب عندما أخذته ليزورَ جدَّيه في الساحل السوري، في بلدة صغيرة تتفيَّأ ظل جبال لبنان. كان خائفًا من الماء، بكى، فحضنْتُه بين ذراعيَّ وهدَّأتُ من روعه بالإشارة إلى السمك في الماء، ومن ثم حملق في شرائط الأسماك الفضية تحت سطح الماء وقد اغرورقت عيناه بالدموع وارتسمت ابتسامة على محيَّاه. كان دائمَ الخوف من الماء؛ حتى عندما كنّا نغسل له شعره، إذ لم يكن يريد للماء أن يدخل أذنيه أو عينيه. كان صبيًّا من صبيان الصحراء، ولم يعرف سوى الماء الذي في الجداول المتبخرة وبرك الري. كان ومحمَّدٌ في السن ذاته، ولو كان سامي هنا لصارا صديقين. وسيعتني محمَّدٌ بسامي لأن سامي كان صبيًا أكثر حساسية وخوفًا، وكان سامي سيسرد القصص على مسامع محمَّد. فما أشد حبَّه لسرد القصص!

«ليت أمّي كانت هنا»، قال محمَّد، فوضعتُ يدي على كتفه وتابعته بنظراتي بينما التمعت عيناه، وهو يتتبع بهما الأسماك في البحر. كانت عفراء تجلس خلفنا على إحدى الكراسي؛ فقد أعطاها أحد العاملين في منظّمة الإغاثة غير الحكومية عصًا بيضاء تمسك بها، ولكنّها لم

تحبها فتَرَكَتْهَا بجانبها على الأرضية.

عندما نزلنا من السفينة، كان المتطوعون ينتظروننا سلفًا. يمكنني القول إنَّه ثمَّة نظام هنا . فقد عبر الكثير من الناس قبلًا، وكانت منظمات الإغاثة غير الحكومية على أتمِّ الاستعداد. أُخِذْنَا بعيدًا عن الميناء، صاعدين تلة صغيرة، إلى مركز تسجيل القادمين الجدد، وما المركز سوى خيمة ضخمة. المكان يفيض باللاجئين والجنود وضبَّاط الشرطة الذين كانوا يضعون نظارات ذات عدسات عاكسة زرقاء. مما استطعت رؤيته، كان هناك أشخاص من سوريا، وأفغانستان، وبلاد عربية أخرى وأجزاء من إفريقيا. قسَّمَنَا رجالٌ يرتدون بزّات وقد اكتست وجوههم بملامح الجدّية والصرامة إلى مجموعات تضمُّ الإناث العازبات، والقُصَّر الذين ليس معهم مرافقين، والرجال العازبين ممَّن معهم جوازات سفر، والرجال العازبين ممَّن لا يملكون جوازات سفر، والعائلات. لحسن الحظ فقد بقينا ثلاثتنا معًا. أرشدُونَا كي نقف في أحد الطوابير الطويلة ثم أعطَونا بعض لفائف الخبز بالجبن. ضاق الناس ذرعًا وهم ينتظرون ليصار إلى إثبات هوياتهم. أرادوا أوراقهم بحيث يتسنَّى لهم أن يكون لهم وجودٌ رسمي في نظر الاتحاد الأوربّي. وأولئك الذين ينتمون إلى الجنسية الخطأ لن يحصلوا على أي أوراق ، ما خلا تذكرة عودة إلى المكان الذي قدموا منه.

أخيرًا، بعد ساعات من الوقوف في الصف، وَصَلْنَا رأس الطابور. كان محمَّد قد خرَّ نائمًا على أحد المقاعد في الطرف البعيد من الخيمة فيما اتَّخَذْتُ وعفراء مقعدنا قبالة رجل كان يقلِّبُ بعض الأوراق على

الطاولة. كانت عفراء لا تزال تمسك لفافة الخبز بيدها. نظر الرجل إليها واسترخى راجعًا في كرسيه، كرشه كبير بما يكفي لوضع طبق عليها دون أن يسقط. على أنَّ الجو كان باردًا في الخيمة، فقد سالت على جبينه قطرات من العرق وثمَّة ظلال تحت عينيه الواسعتين اتساع ابتساماته. أنزلَ نظَّارَته الشمسية من على رأسه وأسندها فوق أنفه وقال:

«من أين أنتم؟».

«من سوريا» قلتُ.

«أمعكم جوازات سفر؟».

«نعم معنا».

أخرجتُ جوازات السفر الثلاثة من حقيبة ظهري ووضعتُها مفتوحةً على الطاولة. رفع نظَّارته، متفحصًا الجوازات.

«من أي مكان في سوريا؟».

«من حلب».

«أهذا ابنكَ؟» أشار إلى صورة سامي.

«نعم».

«كم عمره؟».

«سبع سنوات».

«وأين هو؟».

«نائمٌ على المقعد. فقد هدَّه التعب بعد الرحلة الطويلة».

أومأ الرجل برأسه ووقف، وحسبتُ للحظة بأنه سيذهب ويجد محمَّدًا ليقارن وجهه بالصورة، ولكنه سار عبر الخيمة نحو صفّ من آلات التصوير، ومن ثم عاد، تنبعث منه رائحة سجائر كريهة، ونفخ خدَّيه وطلب منا بصمات أصابعنا. بعدها نُقِلَت بياناتنا إلى ملفات يمكن طبعها والتحقق منها، ثم سألته:

«أتريد بصمات أصابع سامي؟».

«لا، ما من حاجة إذا كان عمره أقل من عشر سنوات. أيمكنني أن أرى هاتفك المحمول؟».

أخرجتُ الهاتف من حقيبتي. كانت بطاريته قد نفدت. قال الرجل:

«ما الرقم السرِّي لهاتفك؟» كتبتُ الرقم ومضى في سبيله، مرَّة أخرى في اتجاه آلات التصوير.

قالت عفراء: «لِمَ قلتَ له إن لدينا ولدًا؟».

«الأمر أسهل على ذلك النحو. فلن يطرحوا عددًا كبيرًا جدًّا من الأسئلة».

لم تقل ولا كلمة، ولكني استنتجتُ من الطريقة التي كانت تحك بها بشرتها، وهي تضغط عليها بشدة كبيرة حتى تشكَّلت آثار خطوط حمراء على معصميها، بأنها لم تكن مرتاحة. بعد مدة طويلة عاد

الرجل، لاهثًا، تفوح منه رائحة أشدُّ وطأةً؛ رائحة السجائر والقهوة هذه المرَّة.

«ماذا كانت مهنتكَ في سوريا؟» قال وهو يجلس مرة أخرى، وكرشه تنوء بثقلها بارزةً فوق بنطاله.

«كنتُ نحَّالًا».

«وأنتِ يا سيِّدة عفراء إبراهيم؟» نظر إلى عفراء حينئذ، فقالت:

«كنتُ رسَّامة».

«اللوحات التي في الهاتف، أأنتِ من رسمها؟».

أومأت عفراء بالإيجاب.

استرخى الرجل في كرسيه مرة ثانية. بسبب وجود نظارته على عينيه كان صعبًا معرفة إلامَ كان ينظر، ولكن بدا أنه كان يحملق في عفراء، فقد رأيتُ انعكاس صورتها في عدستي نظارته كلتيهما. على أن الخيمة كانت تعج بكثير من الضوضاء، بدا أنها سقطت في غابة الصمت.

«إنها لوحات متميزة جدًا» قال الرجل. ومن ثمَّ انحنى إلى الأمام، كرشه الضخم تضغط على الطاولة ما تسبَّبَ في دفعها قليلًا نحونا.

«ماذا حدث لها؟» قال لي، ثمَّة نبرةٌ لا يخطئها المرء، نبرة من الفضول في صوته. تخيَّلتُه فجأة يجمِّع قصصَ رعب... حكايا حقيقية عن الفقد والدمار. نظَّارته باتت مثبتة عليَّ الآن. فقلتُ:

«حدث لها ذلك بسبب قنبلة».

عادت نظارة الرجل لتركِّز على عفراء.

«وإلى أين تأملون الذهاب؟». فقالت عفراء:

«إلى المملكة المتحدة».

«هاه!».

«لدينا أصدقاء هناك»، قلتُ، محاولًا تجاهل ضحكته المستهزئة.

«معظم الناس أكثر واقعية» قال الرجل، وهو يعطيني جوازات السفر وهاتفي، موضحًا لنا أنه ينبغي لنا الانتظار في الجزيرة حتى تمنحنا السلطات إذنًا بالمغادرة إلى أثينا.

أُخِذْنَا من هناك، مع أسرتين أخريين أو ثلاثة، صوب مخيَّم مسوَّر قرب الميناء. تشبَّث محمَّدٌ بيدي، وهو يسألني إلى أين نحن ذاهبون.

وجَدْنَا أنفسنا محاطين بالأسلاك الشائكة، وأمامنا قرية موحشة لها ممرات مشي إسمنتية نظيفة جدًّا، وأسوار متشابكة من الأسلاك والحصى البيضاء. ثمَّة صفوفٌ وصفوف من الكبينات المربَّعَة، ليجلس فيها الناس حتّى الحصول على أوراقهم الثبوتية. كمٌّ هائلٌ من الأوراق الثبوتية!

الهدف من وضع الحصى امتصاص الماء، ولكن الأرض كانت مبلّلة، على الأرجح من المطر الهاطل سلفًا. في الأزقَّة الواقعة بين الكَبِيْنَات توجد ثيابٌ معلَّقةٌ على حِبال الغسيل، وعند مدخل كلّ

كبينة، مدفأةُ غاز، وعلى هذه المدافئ وضَع الناس أحذيتَهم وجواربَهم وقبّعاتِهم حتّى تنشف. في البعيد، خلف الكبينات وعبر البحر، أرى تخوم تركيا الخافتة وعلى الجهة الأخرى، تلال الجزيرة المعتمة.

بينما وقفتُ هناك مع عفراء ومحمَّد والأسر الأخرى، شعرتُ بالضياع، وكأنّي كنت في الخارج وحيدًا في بحر بارد معتم ولا شيء أتمسك به. هذه هي المرة الأولى منذ مدة طويلة التي أشعر فيها بقليل من أمان، بقليل من أمن، ومع ذلك شعرتُ في هذه اللحظة بأنَّ السماء كبيرة جدًّا، الغسق الطالع تكتنفه عتمة غامضة. حملقت في الوهيج البرتقالي الصادر عن مدافئ الغاز، وشعرتُ بثبات قدميَّ على الحصى. ولكن في مكان قريب ثمَّة صراخ بلغة لم أفهمها، تلاه بكاءٌ مديد -كان الصوت يائسًا وجاء من مكان عميق وأجوف فأجفلَ الطيورَ محلِّقَةً في سماء برتقالية.

كل كبينة مقسَّمة سلفًا، ومقطَّعة الأوصال بالملاحف والملاءات لكي تتّسع لمزيد من الأُسَر. أُعْطِيْنَا قسمًا في كبينة من هذه الكبينات وقالوا لنا إنَّه يوجد طعام في مركز اللجوء القديم قرب مركز التسجيل، وإنَّ البوابات تُغْلَقُ في الساعة التاسعة مساءً، ولذا علينا الذهاب فورًا إذا ما رغبنا في الأكل. ولكن محمَّدًا كان يترجرج من قدم إلى أخرى، وكأنه على متن قارب، وحالما سنحت له الفرصة استلقى. فغطَّيْتُه بلحاف.

قال، فاتحًا عينيه قليلًا: «عمِّي نوري، أيمكنني أن آكل شوكولا غدًا؟».

«إذا تيسَّرَ لي إيجاد بعض منها».

«أريد شوكولا من النوع القابل للدَّهن. أريد أن أدهنها على الخبز».

«سأحاول أن أجد لكَ بعضًا منها».

حلَّ المساء وكان الجوُّ بـاردًا. اضطجعتُ أنا وعفراء أيضًا، ووضعتُ راحة يدي على صدرها فأحسَسْتُ بدقَّات قلبها وإيقاع أنفاسها. «نوري» قالت ونحن مضطجعان هناك.

«نعم؟».

«هل أنتَ على ما يرام؟».

«لماذا؟».

«أظنَّك لستَ على ما يرام».

كانت قريبةً مني ولذا أمكنني أن أحسَّ بالتوتر يعتري جسدَها.

«لا أحد منا على ما يرام» قلتُ لها.

«الأمر يتعلَّق بـ...» تردَّدَتْ.

«يتعلَّق بماذا؟».

تنهَّدَتْ ثم قالت: «الأمر يتعلّق بالصبي...». فقلتُ:

«إنّنا جميعًا متعبُون جدًّا. فلنخلد إلى النوم الآنَ، وسنتحدَّث في الأمر غدًا».

تنهَّدَت مرة أخرى وأغمضت عينيها.

نامت بسرعة وحاولتُ أن أتحسَّس نفَسَها، الذي كان بطيئًا وثابتًا، بحيث يتسنّى لي أن أُرْتِجَ باب فكري على انشغاله بها، ولكنّ نبرةَ حديثها كانت كئيبةً جدًّا، وكأنَّها عرفَت شيئًا لا أعرفُه، ولذا لم أستطع النوم. كلماتها المكبوتة أحدثت جرحًا غائرًا، انبثقت منه صورٌ بَرَقَتْ مثل أحلام -عينا محمَّد السوداوان، وعينا سامي اللتان تشبهان عيني عفراء. وحتّى عندما ترنَّحْتُ من النعاس، ارتجَّ جسدي بسبب ضجيج مفاجئ في رأسي، ضجيج كصرير باب مفتوح، وهناك، في الجهة الأخرى، رأيتُ ظلّ صبيّ. «هل سنسقط في الماء؟» سمعتُه يقول. «هل ستبتلعنا الأمواج؟ لا تنهار المنازل هناك مثلما تنهار هذه المنازل». صوت سامي. صوت محمّد.

ثم غرق ذهني في العتمة والصمت. أشحتُ بناظريَّ عن عفراء وركَّزْتُ على الأشكال المرسومة على الملاءات الفاصلة بين الكبينات. بقيتُ متيقظًا بفعل الهمهمات والهمسات القادمة من الجهة الأخرى، حيث كانت فتاة صغيرة تتحدّث إلى أبيها. وبينما زاد اضطرابها علَت أصواتُهما.

«ولكن متى ستَأتي؟». قالت الفتاة الصغيرة.

«عندما تنامين ستداعِبُ شعرَك. مثلما اعتادت أن تفعل، أتذكرين؟».

«ولكنّي أريد أن أراها».

«لن تريها، ولكنّك ستحسين بها. ستحسين أنّها قريبة منك، صدِّقيني». أستطيع سماع انكسار في صوت الرجل.

«ولكن عندما أخذَها هؤلاء الرجال...».

«فلنكفَّ عن الحديث في ذلك الأمر».

أطلقت الفتاة الصغيرة نشيجًا وقالت: «ولكن عندما أخذوها كانت تبكي. لماذا أخذَها هؤلاء الرجال؟ إلى أين أخذوها؟ لماذا كانت تبكي؟».

«فلنكفَّ عن الحديث في هذا الأمر الآن. اذهبي إلى النوم».

«قلتَ إنَّهُم سيعيدونها. أريد العودة إلى البيت واسترجاعها. أريد العودة إلى البيت».

«لا يمكننا العودة إلى البيت».

«أبدًا؟».

لم يجب الرجل.

ثم صدحت صرخةٌ في الخارج، صوتُ رجل، صوتُ خبط خفيض. أصوتُ ضرب هو؟ أصوتُ ضرب جسد؟ أردتُ النهوض لأستجلي الأمر، ولكني كنت خائفًا. ثمَّة وقع أقدام خارج الكبينة وناس يركضون، ومن ثم ساد الهدوء، وفي آخر المطاف استدْرَجَتْنِي

أصوات الأمواج البعيدة، وذهلت بفكري بعيدًا عمّا كنت فيه، فأخذتني بعيدًا إلى عرض البحر.

استيقظتُ على صوت الطيور. ثمة أصواتٌ ووقع أقدام ولاحظتُ أن محمَّدًا ليس في الكبينة، وعفراء لا تزال نائمة.

خرجتُ لأبحث عنه. وقد انطلق الناس خارج كبيناتهم ليتلمَّسُوا دفء الشمس، فيما كان آخرون ينشرون الثياب على حبال الغسيل في الزقاق. كان الأطفال يتقافزون فوق برك الماء أو يضربون النفَّاخَات على الأسلاك الشائكة بقبضاتهم، مثل كرة الطائرة، مُتَضَاحِكِين إذ فَقَعَتْ. لم أستطع أن أجد أثرا لمحمّد بينهم.

لاحظتُ جنودًا يجولون في المنطقة، وقد تزنَّرُوا بمسدَّساتهم. مضيتُ صوب مبنى مركز اللجوء القديم؛ فقد قيل ليَ إنَّ فيه خدمات ومركزًا للأطفال. ثمَّة شيءٌ مريب يكتنف أمر هذه الجزيرة -يتجلَّى ذلك في البيوت المتهالكة التي لم يكتمل بناؤها، وواجهات المحلَّات الفارغة- وكأنَّ المكان فرغ من ساكنيه أنفسهم على حين غرّة وفي عجالة، فتركوه يتداعى، فالنوافذ مثل عيون مفتوحة تفضي إلى مبانٍ معتمة غير مأهولة، ودرفاتها شبه معلَّقة بمفاصلها. مركز اللجوء القديم يشبه تلك الأمكنة التي يراها المرء في كابوس. في البهو موقدٌ ضخم خمدت نيرانه، يرقد خلف قضبان من حديد الصب؛ ودَرَجٌ يفضي إلى الأعلى صوب أصوات يتردَّد صداها هنا وهناك قادمة من الغرف الأخرى الواقعة في الطوابق الأخرى.

«ماذا تريد؟» سمعتُ صوتًا من ورائي.

التفتُّ، فإذا بفتاة في مطلع العشرينيات، لها وجنتان قبَّلَتْهُما الشمس فاسمرَّتَا، وفي إحدى أذنيها قرطٌ له عدة حلقات وكذا خزام في أنفها. كانت تبتسم وإن بدت متعبة، البَشَرة أسفل عينيها أرجوانية. وشفَتَاها متشققتان.

«قيل لي إنه توجد مؤونة هنا. وأردتُ الحصول على بضعة أشياء لزوجتي».

«الطابق الثالث، إلى اليسار». قالت.

تردَّدْتُ وأنا أضيف: «كما أنّي أبحث عن ابني». نَظَرْتُ والقلقُ يعتصرني وكأنَّ محمَّدًا ربَّمَا يظهر خلفي لحظتئذ.

«وكيف شكله؟» قالت الفتاة، متثائبة. غطَّت فمها. وجالت عيناها وقالت: «آسفة، فلم أنم جيّدًا. حدثت المشكلات الليلة الماضية».

«المشكلات؟».

هزَّت رأسها بالإيجاب، وهي تكبح جماحَ تثاؤبة أخرى وقالت: «المخيَّمات مكتظّة بساكنيها، فبعض الناس وصلوا إلى هنا منذ مدة طويلة، ومن الصعب أنـ...». وهنا لاذت بالصمت ثم أردَفَت: «ما الهيئة التي يبدو عليها ابنك؟».

«ابني؟».

«قلتَ من فورك إنّك تبحث عن ابنك».

«عمره سبع سنوات، شعره أسود، وعيناه سوداوان».

«هذا الوصف ينطبقُ على معظم الصبيان هنا».

«ولكنَّهم ذوو شعر بنيّ وعيون بنّية. عينا هذا الصبيّ سوداوان. سوداوان مثل الليل. لا يمكنهما إلَّا أن تلفتا انتباهك».

بدت مشغولةً وقتئذ، وهي تخرج هاتفًا محمولًا من جيبها الخلفي، وتنظر فيه بإمعان بحيث أضاءت شاشته ورسمت ظلالًا على وجهها.

«وأين تقيم؟» قالت.

«في الكبينات التي بجانب الميناء».

«من حُسن حظِّك أنّك لست في المكان الآخر».

«المكان الآخر؟».

«أزوجتكَ بحاجة إلى ثياب؟ ثمَّة مركزٌ لتوزيع الثياب في الأعلى. سأصطحبك إلى هناك». زاد زحام الناس وأنا أسيرُ في الممرّ. خلقٌ من بقاع عديدة جدًّا من العالم. سمعتُ لهجات عربية، وقد امتزجت بإيقاعات وأصوات غير مألوفة من لغات أخرى.

«لغتكَ الإنجليزية جيِّدة جدًّا»، قالت بينما صعدنا الدَّرَج.

«علَّمنيها أبي عندما كنتُ طفلًا. كما كنت رجل أعمال في سوريا».

«أيَّ نوع من الأعمال؟».

«نحَّال. كان عندي خلايا نحل أبيع منها العسل».

راقبتُ خفيها وهما يلاطمان عقبي قدميها. ثم قالت:

«كانت هذه الجزيرة منفًى للمجذومين ذات يوم. ومركز اللجوء هذا كان مثل معسكر اعتقال نازي. حُبِسَ الناس وشُدَّ وثاقهم بالسلاسل دون أسماء أو هويات. وانتزع الأطفال هنا من أسرِهم، بعد أن قيِّدوا في أسرَّتِهِمْ طوال اليوم».

توقَّفَتْ عن الحديث فجأة إذ مررنا بشرطي نازل الدرج. لم يكن يضع نظَّارة، وكانت الظلمة حالكة جدًا هنا، فأومأ برأسه وابتسم لها بعينين بشوشتين. حالما صار أبعد من أن يسمعنا تابَعَتْ قائلة:

«الطابقان الثاني والرابع مركزا لجوء. في الفناء في الليل يوقدون نارًا كبيرة ويطبخون؛ لأنهم إنْ لم يفعلوا ذلك فلن يأكلوا سوى لفائف الخبز بالجبن، وربّما يحظون بموزة. وأحيانا تأتي العجائز بالخضار من حدائقهن لطبخ المرق. يوجد في هذا الطابق مركزان لتوزيع الثياب، واحدٌ للنساء والأطفال، وواحدٌ للرجال. ربّما تريد أن تحصل على بعض الثياب لابنك أيضًا. ثمَّة كميةٌ كبيرة من الأغراض اليوم وقد جئتَ باكرًا، وهذا أمر حسن».

أرشَدَتني إلى مركز توزيع ثياب النساء وتركَتْنِي هناك، وبينما دخلتُ سمعتُ رجلًا في الممر يقول لها: «تعرِفين القواعد. اسأليهم فقط عمَّا يريدون. ولا تتحدَّثي معهم».

لازمتُ مكاني مُنَاورًا في مدخل الباب بضع ثوانٍ لأسمع ردَّها. توقَّعْتُ أنّها ستعتذر، ولكنّي سمعت عوضًا عن ذلك ضحكةً جشَّاء، ضحكةً مليئة بالتحدّي. كانت مفعمةً بثقة جاءت بها من مكان آخر. لم يلِ ذلك سوى وقع أقدام ما لبثَ أن توارى وأنا أدخل المركز. جدرانه

رطبة ومخضرَّة، والضوء يدخله عبر نافذة طويلة ذات قضبان، وقد أشرق الضوء على رف من رفوفه. وقفت امرأة على أهبة الاستعداد ويداها وراءَ ظهرها. وما لبثت أن قالت:

«أيمكنني مساعدتكَ؟ ما الذي تحتاجه؟».

«أحتاج بعض الثياب لزوجتي وابني».

سألَتْني بعض الأسئلة عن مقاسات ثيابهما وهيئتي جسميهما، وهي تزيح العلَّاقات على طول السكّة حتى أخرجت بضع ثياب مناسبة.

غادرتُ المكان بعد أن حصلت على ثلاث فُرش أسنان، وبضع شفرات حلاقة، ولوح من الصابون، وكيس مليء بالثياب والملابس الداخلية، وحذاء إضافي لمحمّد؛ فقد خطر في بالي أنّه راغبٌ في أن يركض كثيرًا هنا مع بقيَّة الأولاد. وربّما كان قد سمعهم يلعبون في الصباح ونهض ليشاركهم اللعب؟ ربّما نزل بعضهم واتجه صوب البحر للترحيب بالقادمين الجدد؟ انتشرت المحلّات على طول الميناء -ڤودافون، ويسترن يونيُن، مخبزٌ، مقهى، بائع صحف- محلَّات كتبت كلٌّ يافطاتها المعلَّقة في الخارج باللغة العربية: بطاقات شرائح هواتف محمولة، خدمة واي فاي، اشحن هاتفك المحمول.

دلفتُ إلى المقهى. كان يعجّ باللاجئين وهم يشربون الشاي أو الماء أو القهوة، في استراحة من أجواء المخيَّمات. ثمَّة أشخاص يتحدَّثون الكردية والفارسية. وأمامي رجل وصبي يتحادثان باللهجة السورية. خرجت نادلة من المطبخ الواقع في آخر المقهى وهي

تحمل دفتر تسجيل الطلبات، وسألتني عمّا أرغب في شربه. تبعتها امرأة أكبر سنًا، تحمل صينية عليها كؤوس ماء في كلّ ركن منها. وضَعَت الكؤوس على الطاولة، وهي تتحدَّث إلى الزبائن، وتلقي عليهم التحية بأسمائهم. فقد تعلَّمَتْ نزرًا يسيرًا من اللغات الثلاث التي يتحدَّثون بها.

طلبتُ قهوةً، فقد قيل لها إنَّها تقدَّم مجانًا، واتخذت لي مقعدًا إلى إحدى الطاولات، وعندما أحضرت لي القهوة استطيبتها، رشفة إثرَ رشفة. لم يخطر في بالي قطّ بأنّي سأجلسُ في مكان ما، قرب الأسر الأخرى، وأنا أشرب القهوة، دون سماع صوت القنابل، دون الخوف من القنّاصة. في هذه اللحظة، عندما توقّفت الفوضى، تذكّرت سامي. ومن ثمَّ داهمني إحساس بالندم، الندم لأنّي قادر على التلذّذ بالقهوة.

«أأنتَ وحدك هنا؟».

رفعت بصري فألفيتُ المرأة الكبرى سنّا تنظر إليّ مبتسمة.

«أتتحدّث الإنجليزية؟» سألَتني.

«نعم، أتحدَّثُها. ولستُ وحدي هنا، فمعي زوجتي، وابني. وأنا أبحثُ عنه. وهو بهذا الطول، ذو شعر أسودَ، وعينين سوداوين».

«يبدو أنّ هذه الصفاتِ تنطبقُ على كلّ الصبيان!».

«أتعرفين مكانًا أشتري منه شوكولا؟».

شرحت لي أنّه ثمة بقالةٌ على الطريق. ثم لاحظتُ أنّ بعض روّاد

المقهى طلبوا طعامًا. لقد أحدث اللاجئون نشاطًا تجاريًّا في هذا المكان؛ إذ عادةً ما كانت الجزيرة شبه مهجورة في شهر مارس.

عندما غادرتُ اتَّجَهْتُ إلى البقالة الواقعة على الطريق، حيث اشتريتُ منها علبة نوتيلا ورغيفًا من الخبز الطازج. سيحبُّهما الصبي! لم تسعني الأرض وأنا أتشوَّق لرؤية الفرحة ترتسم في عينيه.

وجدتُ مقهى إنترنت لأنّي أردتُ أن أرى فيما إذا كان مصطفى قد ردَّ على رسالتي البريدية الإلكترونية. كنتُ متوتّرًا وأنا أكتب اسم الدخول وكلمة السرِّ إلى بريدي الإلكتروني -نازَعَنِي جزءٌ من إرادتي؛ جزءٌ لم يكن يريد أن يعرف، لأنّه إن لم يكن قد وصلتني رسالة منه فعندها سأجدُ أنّ متابعة المشوار في حدِّ ذاتها ستكون صعبة، ولكنّي كنت سعيدًا إذ رأيتُ سيلًا من الرسائل بانتظاري.



4 |2 |2016

عزيزي نوري،

لم يتمكَّن مصطفى من الوصول إلى بريده الإلكتروني. لقد كلَّمْتُه اليوم، وقد وصل إلى فرنسا وطلب منّي أن أطَّلع على رسائله وأردَّ عليها. وكان يأملُ أن تكونَ من ضمنها رسالة واردة منك، إذ ما فتئ يأملُ ذلك كلَّ يوم. لا أستطيع حتّى أن أبدأ شرح مدى سروري العظيم لأتلقى أخبارًا منك. كنتُ ومصطفى قلقَينِ جدًّا. وحاوَلَ ألَّا يتخيَّلَ

أمورًا سيئة ولكنّه لم يستطع مقاومة ذلك، فأنت أدرى بطباعه.

عندما أكلِّمُه مرة أخرى سأنقل له الأنباء السارة. سيكون في قمّة السعادة. أنا وآية في إنجلترا. ونعيش الآن في منزل مشترك في يوركشير وننتظر إذا ما كنَّا سنُمْنَحُ حقَّ اللجوء.

أنا سعيدةٌ أنك وصلتَ إلى إسطنبول يا نوري، وآمل أنك ستصل بأمان إلى اليونان وما بعدها.

تقبّل محبتي

ذَهَب

* * *

28/ 2/ 2016

عزيزي نوري،

لقد نجحتُ أخيرًا في لقاء ابنتي وزوجتي في إنجلترا. وقد تحقَّقَ مرادي بعد أنْ خُضْتُ غمارَ رحلة رهيبة عبر فرنسا وليست بي رغبة في الكتابة عن أهوالِها الآن، ولكني سأحكي لك عنها عندما تصل. فأنا أعرف أنَّك ستنجح في الوصول إلى هنا، ونحن بانتظارك. ولن يهنأ لي بالٌ حتى تصل إلى هنا. فأنتَ مثل أخي يا نوري. ولن تكتمل أسرتي دونك أنت وعفراء.

ذَهَب ليست سعيدة على الإطلاق يا نوري. فقد كانت تحاول أن تتحلَّى برباطة الجأش من أجل خاطر آية، ولكن ما إن وصلتُ إلى هنا

إلَّا وشرعت تمضي اليوم بطوله نائمةً والأضواء مطفأة، ضَامَّةً صورة فراس. قد تبكي أحياناً، ولكنَّها تلوذ بالصمت في معظم الأحيان. وما انفكَّت تتجنَّب ذِكرَ سيرته. فكل ما تقوله إنَّهَا باتت سعيدة لأنِّي إلى جانبها الآن.

فهمتُ من رسالتك الأخيرة بأنَّك كُنْتَ في إسطنبول. وآمل أنَّك نجحتَ في بلوغ اليونان الآن. لقد سمعتُ أنَّ مقدونيا أغلقَت حدودَها ولذا سيكون من الصعب المرور عبر أراضيها، مثلما حدث معي، ولكن لا بدَّ لكَ من الاستمرار. وعندما تصلني رسالةٌ منك في المرَّة القادمة آمل أنْ تكونَ قد اقتربْتَ من البلاد التي نحن فيها الآن.

ليتني لم أُطِل البقاء في حلب! آه كم تراودني تلك الأمنية عدَّة مرات، ليتني غادَرتُها مع زوجتي وابنتي لأنَّ ابني كان سيكون عندئذ معنا. إنَّ هذه الفكرة تقرِّبني من الموت. ولكننا لا نستطيع العودة؛ لا نستطيع تغيير القرارات التي اتَّخَذْنَاها في الماضي. كمَا أنِّي لم أقتل ابني. أحاول أن أتذكر هذه الأحداث لأنِّي إن لم أفعل فسأضيع في غياهب العتمة.

إنَّ اليوم الذي أسمع فيه أنَّك وصلتَ إنجلترا سيبثُّ النور في روحي.

مصطفى

جلستُ هناك وقرأتُ الرسالة وأعدتُ قراءَتها: فأنت مثل أخي يا نوري. وعادت بي الذاكرة إلى منزل والد مصطفى في الجبال. كان المنزل محاطًا بأشجار الصنوبر والتُّنوب وتنتشر الظلمة

والنسيم البارد في الداخل، حيث الأثاث العتيق المصنوع من خشب الماهوغاني والسجَّاد المنسوج يدويًا، وعلى منضدة مثبَّتة إلى الجدار في آخر المنزل، تحت نافذة، ثمَّة موضعٌ وضعت فيه بإجلال صورُ الأم-الزوجة التي رَحَلَتْ وتركتْهُما. ثمَّة صورٌ لها وهي فتاة صغيرة ومن ثمَّ عندما صارت شابة، شابة طويلة وجميلة بعينين متألِّقَتَيْن. ثمَّة صورُ حفل زفاف وصور لها وهي تحضن مصطفى بين ذراعيها، وصور أخرى لها وهي حامل بالطفل الذي ماتت معه لاحقًا. لقد كبر مصطفى في رعاية أبيه وجده وكنفهما، وما من امرأة تبث اللطافة في المنزل أو تدخل النور فيه، ولا إخوة يلعب معهم، ولذا فقد وجَد سلواه في الضوء الرائع والأصوات الجميلة والروائح الصادرة عن المناحل.

لقد بلغت علاقته بالنحل مبلغًا صار وكأنَّه إخوته، فقد كان يراقبه وتعلَّم كيف تتحدَّث كل نحلة مع الأخرى، واتبع مسارات رحلتها في أعماق الجبال لتجد مصدر رزقها، وتفيَّأ ظلال الشجر، وراقَبها وهي تَجْمَعُ الرحيق من زهور الأوكاليبتوس والقطن وإكليل الجبل.

كان جدُّ مصطفى رجلًا صنديدًا، يداه ضخمتان مثل يدي مصطفى، وأيضًا تميَّزَ بنظر ثاقب وبحسٍّ الفكاهة، كما شجَّع مصطفى على حب الفضول، وخوض المغامرات بين أحضان الطبيعة. كان يروق له أن أزورَهما حيث اعتدت أن أقطف الطماطم والخيار لنأكلها، وكأننا أطفال، وكأنني أصبحتُ الحلقة المفقودة في أسرتهما. كان يدهن الخبز الناعم بالزبدة والعسل النضر المستخرج من الخلايا، ومن ثم يجلس معنا ويحكي لنا قصصًا عن أيَّام طفولته، أو عن كَنَّتِه المحبوبة قائلًا:

«كانت امرأة لطيفة. وقد اعتَنَتْ بي جيدًّا، ولم تكن لتطلب مني أن أخرس قطُّ عندما أثرثر». وحتى بعد مضي كل تلك السنوات كان يمسح عينيه بيده المبقَّعة بالتصبُّغَات الجلدية الناجمة عن التقدُّم في السن. جالسِين في غرفة الجلوس تلك، الغرفة الهانئة، بدا أننا كنَّا مُحَاطِيْنَ بابتسامة أمِّه الصافية أبدًا، ابتسامة أحاطت بنا وحبكت نسيجها حولنا، وهي تشبه بدرجة خفيفة صوت النحل العذب.

ومن ثم يدبُّ فيه النشاط ويقول: «حسنًا، والآن افعلا أنتما الاثنان شيئًا مفيدًا. اذهب واشرح لنوري كيفية استخراج العسل، وأعطِه بعضًا من غذاء الملكات حتى يأكله، فهو بحاجة إليه بعد أن حُبِسَ في المدينة كما كان حاله».

وكان مصطفى يأخذني إلى المكان الذي يغنِّي فيه النحل. ثم يقول لي:

«يمكنني القول إننا سنؤسِّس مشروعنا في تربية النحل معًا. فأحدنا يسند الآخر، أنا وأنت. ومعًا سوف نجترح المعجزات».

* * *

3/ 3/ 2016

عزيزي مصطفى

طالما كنتَ أخًا لي. وأتذكَّرُ الأيام التي زرْتُ فيها منزل أبيك في الجبال، أتذكَّرُ صورَ والدَتك، وأتذكَّر جدَّك... يا لَه من رجل عظيم! كانت حياتي ستتخذ مسارًا مختلفًا دونك. لقد اجترحنا المعجزات معًا، تمامًا مثلما قلتَ إننا سنفعل. ولكن هذه الحرب اختطفت منَّا

ذلك، اختطفت منّا كلّ ما حلمنا به وكلّ ما عملنا في سبيله. لقد سلبتْنَا بيوتَنا، وأعمالَنا، وأولادَنا. لستُ على يقين كيف لي أن أستطيع العيش على ذي الحال. وأخشى أنّي متُّ من الداخل. الشيء الوحيد الذي يبقيني صامدًا هو رغبتي في الوصول إليك والالتقاء بك وبذَهَب وآية.

أنا في قمّة السعادة إذ بلغني نبأ وصولك أخيرًا لتلتقي زوجتك وابنتك. فهذا النبأ وحدَه؛ نبأ معرفتي أنك صرت معهما، يبعث على الفرح في هذه الأوقات الكئيبة.

وصلتُ وعفراء إلى ليروس ونأمل في أن نغادرها إلى أثينا قريبًا. وإذا كانت الحدود المقدونية مغلقة، عندئذ سأجد طريقًا آخر. لا تقلق يا مصطفى، لن أتوقّف حتى أصل إلى حيث أنتَ.

نوري

طفقتُ راجعًا إلى المخيّم، راجعًا إلى المعدن اللامع والحصى البيضاء والإسمنت وصفوف لا تعد ولا تحصى من الحاويات المربَّعَة، وكلُّها محاطةٌ بأسلاك شائكة. كانت عفراء تقف في مدخل باب كبينتنا ممسكة عصاها البيضاء كمن يحمل سلاحًا. فقلتُ لها:

«ماذا تفعلين؟».

«أين ذهبتَ؟».

«ذهبتُ للحصول على بعض الأغراض».

«كان هناك ضجيج. ضجيج صاخب. فقلتُ لهم أن يبتعدوا من هنا».

«من هُم؟» قلتُ.

«الأولاد».

«وهل عاد الصبيُّ؟».

«أيّ صبي؟».

«محمَّد».

«لم يعد أحد» قالت.

أنزلتُ الكيس وقلتُ لها إنِّي خرجتُ مرَّة أخرى للبحث عن بعض الطعام لنأكله على العشاء، وإنِّي بحثْتُ هذه المرَّة في الشوارع عن محمَّد، متتبعًا ضحكات الأطفال عند زاوية كلّ شارع، في الحقول المفتوحة، وتحت الأشجار. ثم عدتُ إلى مركز اللجوء، وبحثْتُ في الغرف واحدةً إثرَ أخرى، بما فيها مركز الأطفال وغرفة الأمهات والرُضَّع والمصلَّى. ثم ما لبثت أن سلَكْتُ الدَّرب متجهًا إلى شطّ آخر، صوبَ شاطئ هادئ حيث تَرَكَ الأطفال آثار أقدامهم في الرمل، ولكنّ الجميع كانوا قد غادروا وكانت الشمس تغرب. وقفتُ هناك برهةً، متنسِّمًا الهواء العليل، وأنا أشعرُ بضوء الشمس البرتقاليَّ على وجهي.

ما إنْ فتحتُ عينيَّ إلَّا ورأيتُ منَظَرًا في قمَّة الغرابة؛ رأيتُ حوالي ثلاثين أو أربعين أخطبوطًا معلَّقةً بحبل حتى تجفَّ، وملامح أجسادِها

المنعكسة في الشمس الغاربة جعَلَتْهَا تبدو مثل شيء منبثق من حُلم. فركتُ عينيَّ، وقد حسبت نفسي ربّما غططتُ في النوم، ولكنّ الأخطبوطات لا تزال معلَّقة هناك، وقد تدلَّتْ أذرُعُها بفعل الجاذبية، واتَّخَذَتْ شكلًا غريبًا، مثل وجوه رجال ملتحين بلحًى طويلة. لمستُ لحم أجسادها الطري، وشممتها لأرى إن كانت طازجة، وأخذتُ منها أخطبوطًا أطهوه على النار. أمسكته بين ذراعيَّ كمن يحضن طفلًا وطفقت راجعًا إلى الكبينات، واشتريتُ ولَّاعةً من محل الحلويات وجَمَعْتُ بعض الغصينات وفروع الأشجار المنتشرة على طول الطريق.

عندما عدتُ إلى المخيم، وجدتُ عفراء جالسةً على الأرض، وهي تدوِّرُ شيئًا بين أصابعها. تبيَّن لي أنَّهَا بِلْيَة محمَّد الصافية ذات العِرْقِ الأحمر.

كنتُ موشكًا على أن أسألها عن محمّد، ولكنّي لاحظتُ أن وجهها امتقع فجأة بخيبة الأمل ولم تعُدْ عيناها خاليتين من المشاعر؛ بل دبَّت فيهما الحياة وامتلأتا حزنًا. فقلتُ لها:

«ما الأمر؟ فعيناك حزينتان».

«أأنا كذلك؟».

«نعم» قلتُ لها.

«ما سبب حزني سوى أنّي اكتشفتُ أنِّي أضْعتُ سواري البلاتيني؛ أنتَ تعرفُه، السوار الذي أهدَتْنِي إيَّاه أمي؟».

«نعم، أتذكَّر ذلك» قلتُ لها.

«السوارُ ذو النجوم الصغيرة».

«أتذكَّره».

«لقد وضَعْتُه في معصمي قبل أن نغادر. ولا بدَّ أنّي أضَعْتُه على متن القارب. صار في البحر الآن».

جالسًا على الأرض قربها، أحطتها بذراعيَّ فأراحت رأسها على كتفي، مثلما فعلت تمامًا في المخبأ في الحديقة قبل أن نغادر حلب. لم تبكِ هذه المرَّة؛ أستطيع أن أحسَّ بنَفَسِهَا على رقبتي وبحركة رموشها على بشرتي، وبقينا على ذي الحال مدة طويلة، وكأن الكبينة أظلمت ولا يُرَى فيها سوى وهج نار مدفأة الغاز. ثمَّ حَدَثَ أن صدحت ضوضاءٌ حولنا: أناس يصرخون، أطفال يركضون، ريح عاتية تهبُّ في الأشجار قادمة من البحر، تأتي إلينا بصورة أمواج. تساءلت إذا كان محمَّدٌ لا يزال يلعب، أو أنّه في طريق عودته إلى الكبينة.

ومن ثم خرجتُ لأطهو الأخطبوط. وضعتُ الغصينات وأغصان الشجر في كومة على الأرض؛ وأدنوته منها، وقد ثَبَّتُّه على غصن، فوق النار. استغرق نضجه وقتًا أطول ممّا توقّعت، مع أنّه كان قد طهي سلفًا قليلًا بسبب تعليقه على الحبل ليجفَّ تحت أشعة الشمس.

عندما طري لحمه ونضج بما يكفي، قطَّعْتُه إلى قطع وأخذته إلى عفراء. فالتَهَمَتْهُ، لاعقةً أصابعَها، وشكرتني لأنّي طهوته لها، وهي تسألني أين عثرت على مثل هذا الشيء.

«هل اصطدته من البحر بنفسك؟».

«لا» قلتُ ضاحكًا.

«ولكن لا يمكن أن تكونَ اشتريْتَه، فهو باهظ الثمن!».

«وجدتُه» قلت لها.

«عجبًا! كنتَ تمشي على الشاطئ، غير مكترث بما يدور حولك، ثم حدَثَ أن وجدتَ أخطبوطًا؟».

«نعم» قلتُ لها، فضَحِكَت من أعماق قلبها، وضَحِكَت معها عيناها أيضًا.

نظرتُ عبر مدخل الباب، قلقًا، منتظرًا محمَّدًا.

ألقَت عفراء برأسها على بعض الملاحف وأغمضت عينيها دون أن تقول كلمة أخرى، ثم اضطجعتُ قربها، وبعد برهة سمعتُ البوّابات تفتح وتغلق، وأبوابٌ بعيدة تقفل. في الجانب الآخر من الغطاء الفاصل داخل الكبينة كانت الطفلة تبكي، وأبوها يدمدم بكلمات ليطمئنها.

«لا، الرجال الذين يحملون البنادق لن يقتلونا. لا تقلقي على الإطلاق! لا، لن يقتلونا. صدِّقيني».

«ولكنّهم ربَّمَا يطلقون النار علينا».

ضحك الأب عندئذ وقال: «لا، فَهُمْ هنا لمساعدتنا. والآن

أغمضي عينيك فقط. أغمضي عينيك وفكِّري في كلّ الأشياء التي تحبينها».

«أشياء مثل درَّاجتي التي في البيت؟».

«نعم، هذا جيِّد. لا تكفِّي عن التفكير بدراجتك».

خيَّم صمتٌ مدة طويلة وبعد برهة سمعتُ الفتاة تتكلَّم مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان صوتها أَنْعَمَ وأَهْدَأ. ثم قالت:

«بابا».

«نعم؟».

«لقد شعرتُ بها».

«شعرتِ بمن؟».

«شعرتُ بماما وهي تداعب شعري».

لم ينبس أيّ منهما ببنت شفة إثر ذلك، ولكنّي شعرتُ بدرجة كبيرة بقلب الأب يعتصر ألمًا في الصمت. بعيدًا عنا ثمَّة أصوات مزاح، مزاح لأناس يتحدَّثون ويضحكون. ما من صراخ هذه الليلة.

نظرتُ إلى الأخطبوط والنوتيلا والخبز، وقد وُضِعَت كلُّهَا على الأرض تحسّبًا لعودة محمّد في الليل، فإن عاد فسيرى الطعام ويعرف أنه تُرِكَ له. ولكن المخيَّم مغلقٌ الآن. لقد حُبِسْتُ داخل المخيم وحُبِسَ محمَّدٌ خارجه. نهضْتُ ومضيت في طريقي عبر شبكة

الكبينات وسط العتمة، صوب طرف المخيَّم حتّى وجدتُ المدخل. كان هناك جنديان واقفان عند البوّابة، يحملان البنادق. قال أحدهما:

«كيف يمكنني أن أساعدك؟».

«أريد الخروج».

«تأخَّر الوقت كثيرًا الآن. يمكنك أن تخرج في الصباح».

«أنا محبوسٌ إذن؟ محبوسٌ مثل سجين؟».

لم يقل الجندي شيئًا في ردِّه عليَّ ولم يشح ببصره عنِّي حتَّى.

«أريد البحث عن ابني!».

«يمكنك أن تبحث عنه في الصباح».

«ولكن ليست عندي فكرة أين هو».

«وكم تظنّ المسافة التي ابتعد فيها؟ فهذه ليست سوى جزيرة!».

«ولكن ربَّما يكون وحيدًا وخائفًا».

لم يلقِ الجنديان بالًا لما قلتُه. بل أمراني بالرجوع من حيث جئت فحاولت العودة إلى الكبينة، ولكن شقَّتْ عليَّ العودة في العتمة، فكلّ زاوية تشبه الأخرى، ولم أُحصِ الشوارع الفاصلة بين الكبينات بحيث يمكنني أن أهتدي السبيل. ربّما يكون هذا ما حصل مع محمَّد؟ ربّما غامر بالخروج دون أن يعد الشوارع ولذا لم يستطع أن يعرف طريق العودة؟ وربما تكون عائلة أخرى قد آوته؟ قرّرْتُ أن أستلقي على

الأرض قرب مدخل كبينة أخرى، بحيث يتسنَّى لي أن أكون قريبًا من الدفء الذي تبثُّه مدفأة الغاز.

استيقظتُ في الصباح على صوت هطل المطر على سطوح الكبينات المعدنية. تبلَّلْتُ شديدَ البلل فنهضتُ واستطعتُ نوعًا ما أن أجد طريق العودة إلى عفراء. لاحظتُ ملاءة سرير وردية تتدلَّى من أحد حبال الغسيل. كان المطر يدكُّ الأرض دكًا. ألفيتُ الذباب قد دخل وأحاط بالأخطبوط من كل حدب وصوب.

كانت عفراء مستيقظة سلفًا وقد اضطَجَعَت على ظهرها، محملقة في السقف وكأنّها تنظر إلى النجوم، وهي تدوِّر البِلْيَةَ بين أصابعها، تمامًا مثلما كان يفعل محمَّدٌ.

«إلى أين ذهبتَ؟» قالت.

«خرجتُ من الكبينة ثم ضللتُ طريقَ العودة».

«لم أنم الليلة الفائتة. بدأ هطلُ المطر، وكلّ ما استطعتُ سماعه وتخيُّله كان صوت هطل المطر».

ذَبَبْتُ بيدي عن الأخطبوط فتفرَّق الذباب، وهو يطنُّ في أرجاء القسم المخصَّص لنا في الكبينة، وقد طارت كلّ ذبابة راسمة دوائر حول الأخرى ومن ثم عادت إلى الأخطبوط مثل مغناطيسات.

«هل أنتِ جائعة؟» قلتُ لها.

«تريدني أن أشاركَ الذبابَ في أكل الأخطبوط؟».

«لا» ضحكتُ وأضفتُ: «فعندنا خبزٌ وشوكولا للدَّهن».

أخرجت الخبز من الكيس الورقي وقطّعته إلى شرائحٍ، وتركْتُ بعضًا منه لمحمّد. ومن ثم فَتَحْتُ برطمان النوتيلا، وأنا أفكِّر بكيفية دهنها على الخبز دون استخدام سكين. قالت عفراء إنَّه يمكننا غمس الخبز في الشوكولا.

لاحقًا صباح ذلك اليوم، عندما توقَّف المطر أخيرًا، خرَجْتُ مرة أخرى بحثًا عن محمَّد. في البَدء تجوَّلتُ حول الساحة المسوَّرة، وسرتُ بين حاويات البشر، عبر صفوف وصفوف من المجمَّع، على الدروب المخصّصة للمشي، تحت الثياب المنشورة على حبال الغسيل، مناديًا محمَّدًا. الأرض مبلّلة بالماء؛ حتّى الأحذية خارج عتبات البيوت كانت مليئة بالماء. ولم تستطع الحصى البيضاء امتصاص سوى كمّية محدَّدة من الماء. ولكن هذا المطر يعطيك شعورًا كأنّه كان قادمًا من البحر. بات السلك الشائك، وكلّ شيء الآن، مغطًّى ببريق من الفضّة، مثل معدن سائل برَّاق، مَا جعل المكان حتَّى أشبه بسجن أكثر من قبل، ونظرًا لأنّ الشمس قد طلعت الآن، فثمّة انعكاساتٌ وصليات من الضوء.

مضيتُ في سبيلي صوب مركز اللجوء القديم. ثمَّ رأيتُ فتًى مراهقًا يجلس على الدَّرج وقد وضع سمَّاعات على أذنيه ورأسه مستند إلى الجدار، وعيناه مغمضتان. لكَزْتُه فاستيقظ لأسأله إذا ما كان قد رأى أيَّ طفل قد يكون محمَّدًا. ولكنّ رأس الفتى تهزهز فوق كتفيه، ولم

يفتح عينيه قطّ إلّا بدرجة خفيفة جدًّا. أمكنني سماع الأولاد يلعبون في أحد الطوابق العلوية، وسمعتُ أصداء ضحكات خافتة، فتتبَّعتُ مصدرَها عبر الممرات صعودًا صوب غرف الطابق الرابع، ناظرًا فيها واحدة واحدة، فرأيتُ في الداخل ملاحف معلّقة بمثابة فواصل بين كلّ قسم وآخر، والأحذية مصفوفة صفوفًا مرتبة، وهنا وهناك لمحتُ رأسَ أحدهم أو ساقه أو ذراعه. ناديت: «يا محمَّد!» فأجابَنِي عجوزٌ بصوت حاد النبرات: «نعم!» ومن ثمَّ تلاه صوت يقول: «ماذا تريد؟ أنا هنا! هل جئتَ لتأخذني؟».

كنتُ ما أزال أسمعه وأنا أشقُّ طريقي عبر الممرّ. كان الأطفال في آخر غرفة، وهي غرفة مليئة بالألعاب والنفَّاخَات وألواح لعب الشطرنج والنرد وما شاكلها. ثمَّة بضع موظَّفات من منظّمات الإغاثة غير الحكومية جاثيات قرب الأطفال. أمسَكَتْ إحداهنَّ طفلًا بين ذراعيها. عندما رأتني أنظر إليها جاءت ترحِّبُ بي.

«هذا مركز الأطفال» قالت وهي تلفظ الكلمات لفظًا بطيئًا. فقلتُ:

«هذا واضح. أنا أبحث عن ابني».

«ما اسمه؟».

«محمَّد».

«كم عمره؟».

«سبع سنوات».

«وكيف يبدو شكله؟».

«له شعر أسود وعينان سوداوان. شعرُه ليس بنّيًا. بل أسودَ كسواد السماء في الليل».

رأيتُ أنّها تحاول أن تتذكّر للحظة، ولكنّها بعدئذ هزَّت رأسها وقالت: «حاول ألا تقلق، سوف يعود، فهم يعودون دائمًا، وعندما يعود يمكنك أن تُعطيَه هذه»... بيَدِها الأخرى، غير الممسكة بالطفل، بَحَثَتْ في وعاء بلاستيكي فأخرَجَتْ علبةً من الأقلام الملوَّنة المتصلة بكرَّاسة رسم. شكَرْتُهَا وغادَرْتُ. في هذه المرة، وأنا أطفق راجعًا عبر الممرّ ثم أنزل الدَّرج، أكاد أرى أشباح هؤلاء الناس، لم تبارح هذا المكان منذ مدة طويلة جدًا، مكمَّمِين ومقيّدين بالسلاسل إلى أسرَّتِهم. سمعتُ أصداء أصوات الآن، ليست أصداء ضحكات الأطفَال، بل أصواتٌ أخرى، عند تخوم الخيال، حيث لا يعودُ البشر بشرًا.

حَثَثْتُ الخطى خارجًا من هناك بسرعة عبر الـدَّرَج، ومن ثم خارجًا إلى الضوء الفضِّي وبعدها إلى الميناء. كان المَقهى يعجُّ بالناس، فجلستُ برهةً لأشحن هاتفي المحمول وأشرب فنجانًا من القهوة، وأنا أراقب النادلتَين، وقد اتَّضَح لي أنَّهُمَا أمٌّ وابنتها، وهما تُحْضِرَان كؤوس الماء والشاي والقهوة، وتتحادثان مع اللاجئين، محاوِلَتَين التواصل بأقصى ما تستطيعان بالنزر اليسير من اللغة العربية أو الفَارسية الذي تعلَّمَتَاه. في هذا اليوم، كان الأب وابنه هناك أيضًا، الابن نسخة مصغرة عن أبيه، باستثناء الشاربين. منحتُ الفرصة لنفسي

لأن أرتاح قليلًا، واسترخيتُ في الكرسي وأغمضت عينيَّ، مصغيًا إلى الأحاديث الجارية حولي وإلى هزيم الرعد البعيد فوق البحر.

انتظرتُ هناك حتَّى العصر، ولكن ما من أثر لمحمَّد. في الساعة الرابعة ذهبتُ إلى مركز التسجيل لأرى إذا ما كانت السلطات قد تحرَّت أمر الأوراق ومنَحَتْنَا الإذن. كان هناك مئات من الناس متجمهرين حول رجل مرتبك جالس على كرسي لا مسند له ولا ذراعين، رافعًا بطاقات ومناديًا إيّاهم بالاسم. لم ينادِ أسماءَنا، ولكنِّي كنت سعيدًا لأنّي لم أكن أريد المغادرة دون محمد.

مرَّ اليوم اللاحق على المنوال ذاته؛ نشَّفَت الشمسُ المطرَ وباتت الريح أكثر دفئًا. بدا وكأنَّ العتمة جُرفَت بعيدًا. وعلى أن المزيد من الناس كانوا يتدفّقون إلى الجزيرة، وقد قذَفَتْهُم الأمواج، وقليلٌ منهم يغادرون، فقد بدا المكان نوعًا ما أكثر طمأنينة. لا يعيبه سوى الضوضاء الكثيرة جدّا لدرجة امتزجت بعضها فيها ببعض، وأصبحت مثل هطل المطر أو هدير الأمواج أو طنين الذباب حول الأخطبوط. وبعيدًا عن موقع المخيَّم فاحت رائحة نضرة وعذبة من التراب، وبدأت الأشجار الإزهارَ وصارت حبلى بالفاكهة.

ومع ذلك فما من أثر لمحمّد.

بحلول مساء اليوم اللاحق بدأتُ أفقدُ الأمل. فأخرجْتُ الأقلام الملوّنة من علبتها.

«ما ذاك؟». قالت عفراء، وقد أدارتْ أذنها صوب الصوت. «ما هذا الذي تفتحه؟».

«أقلام».

«أقلام تلوين؟».

«نعم».

«أمعها أوراق؟».

«نعم. معها كراسة رسم».

«أيمكنني أن آخذها؟».

وضعْتُ أمامها الأقلام كافَّة في صفّ وأمسكتُ يدَها وأرشدتها إلى مكانها. ثمَّ فتحتُ كُرَّاسَة الرسم ووضَعْتُهَا في حضنها».

«شكرًا لك» قالت.

اضطجعتُ على ظهري وحملقتُ في سقف الكبينة، ناظرًا إلى العناكب والحشرات وشبكات العناكب المتجمِّعة في الزوايا. أصغيتُ إلى الأحاديثِ الناعمة الخافتة المارَّة عبر الشراشف وفي الخارج في الأزقة، والأقلام تَصِرُّ فوق الورق.

بعد ساعات، وعندما أوشكَتْ العتمة على اجتياح المكان، تكلَّمَت عفراء أخيرًا وقالت:

«لقد رسمتُ هذه لكَ».

كانت اللوحة التي رسمَتْهَا مختلفةً جدًا عن أعمالها الفنية المعهودة، فقد رَسَمَت حقلًا مليئًا بالزهور تطل عليه شجرة واحدة.

قلتُ لها:

«ولكن كيف رَسَمْتِ هذه اللوحة؟».

«أستطيع الإحساس بملامسة القلم للورق».

نظرتُ إلى اللوحة مرة أخرى. الألوان شاذَّة، فالشجرة زرقاء، والسماء حمراء، والخطوط متكسرة، وأوراق الأشجار والزهور لا تنتمي إلى المكان... ومع ذلك ففيها جمالٌ يأسر الألباب؛ جمالٌ عصيٌّ على الوصف، مثل صورة في حُلم، مثل صورة لعالم يتجاوز تخوم خيالنا.

نُودِيَ اسمي ظهيرة اليوم الموالي في مركز التسجيل، وأعطيتُ البطاقات والإذن بمغادرة الجزيرة متّجهًا صوب أثينا: بطاقات بأسماء نوري إبراهيم، وعفراء إبراهيم، وسامي إبراهيم. داهمني الهمُّ والغمُّ عندما نظرتُ إلى اسم سامي، مطبوعًا بوضوح على الورقة التي بيدي. سامي. سامي إبراهيم. وكأنَّه لا يزال معنا.

لم أخبر عفراء بأنّنا منحنا الإذن بالمغادرة. ولم أذهب حتَّى إلى وكالة السفر لشراء تذاكر العبّارة. مرَّت الأيام والليالي وكانت عفراء تشعر بالقلق. قالت:

«تأتيني كوابيس أثناء النوم؛ أرى نفسي ميّتة وثمَّة ذبابٌ يحوم حولي وأنا عاجزة عن الحراك لكي أذبَّه عني!».

فقلتُ لها: «لا تقلقي، سنغادر هذه الجزيرة قريبًا».

فقالت: «لا أحبُّ هذا المكان، فهو مليء بالأشباح».

«أيّ نوع من الأشباح؟».

قالت: «لا أعرف. أشباحٌ غير آدمية».

أعرف أنّها على صواب. أعرف أنّه علينا الذهاب، ولكنّي لم أشأ المغادرة دون محمَّد. فماذا لو عاد الصبي وتساءل أين ذهبتُ؟ أعرف أنّه عائد، لا بدَّ أنّه عائد. فكما قال ضابط الشرطة: هذه ليست سوى جزيرة، ولا يمكن أن يكون قد ذهب بعيدًا.

هطل المطر مرَّة أخرى في الليلة الموالية، وأصيبت عفراء بحمَّى رهيبة. فقد ارتفعت حرارة رأسها، وبردت يداها وقدماها حتى صارتا مثل ماء البحر. فركتُ جبينَها وصدرَها بقطعة قماش رطبة؛ ولم تكن تلك القطعة سوى قميصي مبللًا بالماء.

«إنه يلعب».

«مَنْ؟».

«سامي، أستطيع أن أسمع صوتَه. قلْ له أن يتوخَّى الحذر».

«سامي ليس هنا» قلتُ.

«لقد ضاع». قالت.

«مَنْ الذي ضاع؟».

«سامي. دُمِّرَت كلّ المنازل وضاع سامي».

لم أنبس ببنت شفة. بل فَرَكْتُ يديها بين راحتيَّ عساني أدفئهما، وأنا أتأمَّل وجهَها الجميل. رأيت كم كانت خائفة. ثم قالت:

«أريد أن أغادر هذا المكان».

«سنغادر».

«متى؟ ولِمَ استغرق الأمر كلّ هذه المدة الطويلة؟».

«نحن بحاجة للحصول على الوثائق».

في اليوم الموالي زادت حُمَّاهَا سوءًا. كانت ترتجف وتشتكي من ألم في ظهرها وساقيها.

«قلْ له أن يَدْخُلَ ويتناول عشاءه» قالت وأنا ألّفها بإحدى الملاحف.

«سأفعل».

«لقد ذهب لكي يلعب طوال النهار».

«سأبْلغُه بذلك» قلتُ لها. وجدتُ بعض الليمون لأعصر لها منه شرابًا ملطِّفًا حتّى تشربَه، ولكنّ صحة عفراء ازدادت سوءًا مع مرور الأيام. حسبتُ أنّها كانت تفقدُ الأمل. أعرف أنّه بات لزامًا علينا مغادرة هذا المكان، ولذا فقد قلت لها بأنّنا مُنِحْنَا الوثائق اللازمة. انتظرْتُ عدَّة أيام حتّى تتحسّن صحّتها قليلًا، حتّى استطاعت على الأقلّ أن تقف بنفسها وتخرج لتشعر بالشمس تسطع على وجهها. بعدئذ اشتريتُ التذاكر وكتبتُ ملحوظةً أقول فيها:

محمَّد،

مرَّ على انتظاري عودتك الآن شهرٌ واحد. وليس عندي أيّ فكرة عمّا حصل لك، أو أين أنت أو حتّى إذا كنتَ ستعود لتجد هذه الملحوظة، ولكنّي ما فتئت أبحث عنك كلّ يوم، وأدعو الله أن يحميك ويكلأك برعايته. خذ هذا المال والبطاقة. عليكَ أن تستخدم الاسم ذاته الموجود على البطاقة؛ سامي (هذا اسم ابني) ثم اذهب إلى وكالة السفر (ستجدها قرب مقهى سيڤن غيتس) واشترِ لنفسك تذكرة سفر في العبّارة إلى أثينا. لا تفوّت على نفسك موعد انطلاق العبّارة؛ لأنه لن يبقَ في جَعبتك مزيد من المال لشراء تذكرة أخرى. ستكون أمامك فرصة واحدة، ولذا تأكّد من موعد انطلاق العبّارة.

ستكون هذه رحلتك الثالثة على متن قارب! عندما تصل أثينا، حاول أن تجدنا. وإليك رقم هاتفي المحمول: ------0928. تذكَّر أنّ هاتفي قد يكون مغلقًا. اسمي الكامل نوري إبراهيم. وأنا أخطِّطُ للذهاب من أثينا إلى المملكة المتّحدة، فإذا ما وصلتَ أثينا ولم تعثر علينا، أرجوك تابع البحث. أرجو منكَ أن تحاول الوصول إلى إنجلترا، وإذا ما التقيْتَ أيّ شخص تبدو عليه سيماء اللطف، فأعطه اسمي وآمل أنّه سيساعدك في العثور عليَّ.

آمل أن أراك قريبًا. في أثناء ذلك توخَّ الحيطة والحذر، وتأكّد من أن تتغذّى جيدًّا ولا تستسلم. فمن السهولة أحيانًا على المرء أن يستسلم. لن أكفَّ عن التفكير بك والدعوة لك حتّى وأنا أخوض البحار وأعبر الجبال، وإذا ما دعتك الحاجة لعبور مزيد من المعابر

المائية، فحاول ألّا تخاف. سأدعو لكَ في كلّ يوم.

العمُّ نوري

طويتُ الرسالة والمالَ ووضعتُهما في مظروف وتركته على الأرض، في زاوية الكبينة، تحت عبوّة النوتيلا.

* * *

كانت عبّارة البضائع كبيرةً جدًّا، وملوّنةً بنجوم صفراء؛ ثمّة شاحنات وسيّارات مركونة في عنبرها في الأسفل. في الميناء كان الناس يودّعون موظفي منظمات الإغاثة غير الحكومية، وكان من المقرّر للعبّارة أن تنطلق صوب أثينا في التاسعة مساءً وستستغرق الرحلة زهاء ثمان ساعات. كان هناك كَرَاس للنساء والمسنّين، وكان الهواء دافئًا والبحر هادئًا تلك الليلة. حتّى اللّحظة الأخيرة كنت أترقّب رؤية محمّد، ولكن لم يمضِ وقت طويل إلّا وصعد كلّ المسافرين العبّارة وصدح بوقُهَا عاليًا وصافيًا. ثم انطلقت بنا إلى عرض البحر، تاركةً وراءها جزيرة الأشباح. سحَبَتْ عفراء أنفاسًا عميقة، مستنشقة هواء البحر. دخَلَت العتمة الآن رأسي من البحر والسماء، وراودني ذلك الشعور مرة أخرى؛ الشعور بالضياع: بدا كلّ شيء كبيرًا جدًّا؛ السماء والبحر والعالَم. أغمضتُ عينيَّ ولهجتُ بالدعاء لمحمَّد، الصبي الضائع الذي لم يكن ابني البتة.



8

أستيقظُ فأجدُ يدَ عفراء تتوسَّدُ صدري، وأشعرُ بأصابعها فوق أصابعي، ولكن ثمَّة أيضًا شعورًا آخر يداهمني. أتذكَّر محمَّدًا والمفتاحَ الذي وجدْتُه في حديقة صاحبة المنزل. ولكن ما إن أُحرِّك يديَّ إلَّا وأكتشف أني ممسكٌ بأقحوانة.

«أأحضرْتَ لي هديةً أخرى؟» تقول، ثمَّة سؤالٌ في نبرة صوتها.

«بلى» أقول لها.

تُمرِّر أصابعها على بتلات الأقحوانة وساقِها ثم تقول:

«ما لونُها؟».

«برتقالي».

«أحب البرتقالي... حسبتُكَ ستبقى في الطابق الأرضي طوال الليل. بعد أن نِمْتَ ساعدَنِي حازمٌ في الصعود إلى الأعلى، إذا لم يرغب في إيقاظِكَ».

ثمَّة نبرةٌ يائسةٌ في صوتها، واختبأت فيه أسئلة لم تسألها، ولا

أستطيع أن أتحمَّلَ رائحة عطر الورد على جسدها. ثم أقول:

«سعيدٌ أنَّكِ أحببْتِهَا» ثم أزيح يدها عن صدري، متيحًا المجال للزهرة حتى تسقط على السرير.

فيما بعد، وبعد أن صلَّيْتُ وألبَسْتُ عفراء ثيابها، تصل لوسي فيشر وهي في عجلة من أمرها اليوم، تحمل حقيبَتَيْ ظهر وكأنها مرتحلة إلى مكان ما. هذه المرة، ترافقها امرأة أخرى أظنُّها مترجمة؛ وهي سمراء البشرة ربلةٌ وتحمل حقيبة يد قديمة الطراز.

نجلس في المطبخ عشر دقائق فحسب. تعطيني الرسالة الجديدة حيث طُبِعَ عليها بوضوح عنوان منزل الإقامة المؤقَّت وتبلغني بتاريخ يوم مقابلة طلب اللجوء وساعتها. ثم تقول لي:

«أمامك خمسة أيام للتحضير».

«وكأنّي سأتقدَّم إلى امتحان» أقول، وأبتسم. ولكن ملامح وجهها في غاية الجدّية. ثم توضِّح بأنَّ عفراء وديوماندي سيكون معهما مترجم، كما أنَّ مترجمًا سيكون على أهبة الاستعداد معي أيضًا.

«مقابلة ديوماندي في اليوم نفسه؟» أسألها.

«نعم، يمكنكم الذهاب إلى مكان المقابلة معًا، فهو يقع في جنوبي لندن».

تواصل حديثَهَا، وتفتح خريطة، وتشير إلى الموقع، ثم تفتحُ خريطةً أخرى فيها خطوط القطارات، موضِّحةً لي الأمور، ولكني

لا أصغي إليها فعليًا. أريد أن أحكي لها عن نتوءَيْ ظهر ديوماندي. أريد أن أحكي لها عن محمَّد والمفاتيح، ولكني خائف من ردِّ فعلها. ومن ثمَّ، من النافذة، يلفت نظري شيء ما. طائراتٌ بيضاء تكوي كبد السماء. عددٌ كبير جدًّا يستعصي على العدّ. أسمع صفيرًا يتبعه دويٌّ، وكأن العالم انشقَّ متصدِّعًا. أندفع صوب النافذة، فأرى القنابل تتساقط، والطائرات تدور. الضوء شديد جدًّا، فأدرؤه عن عينيَّ. الصوت عالٍ جدًا، فأسد أذنيَّ.

أشعر بيد تربِّتُ على كتفي.

«سيِّد نوري إبراهيم؟» أسْمَعُ صوتًا يقول لي.

ألتفتُ فأجد لوسي فيشر واقفةً ورائي.

«أأنتَ بخير؟».

«الطائرات». أقول لها.

«أي طائرات؟».

أشير إلى الطائرات البيضاء في السماء.

يسود صمتٌ... فأسمَعُ لوسي فيشر تسحب نفسًا وتقول بلطافة كبيرة: «انظر، انظر، يا سيِّد نوري. انظر بإمعان. إنها طيور».

أنظر مرَّة أخرى فأرى النوارس. لوسي فيشر على صواب. لا يوجد طائرات تحوم؛ لا شيء سوى طائرة ركاب بعيدة، تظهر من خلال خيط رفيع من السحب، ولا شيء يعلونا سوى النوارس.

«أرأيت؟» تقول.

أومئ برأسي بالإيجاب فتعيدني إلى كرسيِّي.

لوسي فيشر امرأة عملية جدًّا وتعود بصورة تكاد مباشرة إلى النقطة التي توقَّفَتْ عندها، تفعل ذلك بعد تردُّد طفيف ورشفة ماء فحسب. فهي تريد أن تتأكَّد بأنَّ كل شيء في موضعه الصحيح. وبينما تمرِّر رأس قلم رصاص على أحد خطوط القطارات على الخريطة، أشعر بالاطمئنان، وبهدوء أكبر. تلفظ أسماء أماكن لم أسمع بها في حياتي قط، وتنظر إلى الخريطة الأخرى فأتخيَّل الطرقات والمنازل والشوارع الفرعية والمتنزَّهَات والناس. أتخيَّل الشعورَ الذي سيخالجني إذ أوغلتُ عميقًا داخل هذا البلد، بعيدًا عن البحر.

* * *

في المساء نقعد في غرفة الجلوس. المغربيُّ يساعد ديوماندي في التحضير لمقابلة طلب اللجوء. وهما يجلسان إلى مائدة الطعام أحدُهما قبالة الآخر، وأمام ديوماندي ورقة وقلم حتَّى يتسنَّى له تدوين الملحوظات.

«أريدكَ أن تشرح لي سبب مغادرتك بلادك» يقول المغربيُّ. يشرع ديوماندي في الإجابة، ساردًا القصة ذاتها التي حكاها لنا من قبل، ولكن هذه المرَّة مع تفصيل إضافي، إذ يذكر أسماء أمه وأخواته، ويصف عمله في الغابون ووضعهم المالي ومن ثمَّ يخوض في التاريخ والسياسة، فيتحدَّث عن الاستعمار الفرنسي، والاستقلال في عام 1960، والقلاقل في عموم البلاد والحرب الأهلية، وازدياد نسبة

الفقر. ثم يصف كيف كانت ساحل العاج ذات يوم واحةً من الازدهار الاقتصادي والاستقرار، وكيف تغيَّرت الأحوال بعد وفاة أول رئيس للدولة. يتابع حديثه وأتوقَّفُ عن الإصغاء، إلى أنْ يقاطعه المغربي بقوله:

«أظنُّهم، يا ديوماندي، يودّون الاستماع إلى قصّتك».

«هذه قصّتي!» يصرُّ ديوماندي. «كيف لهم خلاف ذلك أن يفهموها إذا لم أحكِهَا لهم؟».

«ربَّما يعرفون هذه المعلومات».

«وربَّمَا لا يعرفونها. إذا كانوا لا يعرفون، فكيف سيفهمون سبب حاجتي للمجيء إلى هنا؟».

«احكِ لي قصَّتك. احكِ لي سبب مغادرتك بلادك».

«أنا أشرح هذه التفاصيل» ديوماندي غاضبٌ الآن، وأرى أنه يجلس بقامة منتصبة أكثر. فقد جعل غضبُه عمودَه الفقري مستقيمًا بعض الشيء.

يهزُّ المغربي رأسه ويقول: «هذا الغضب لن يساعدك في ملفّك. عليكَ أن تجهِّز عناصر قصتك أنتَ. كيف كانت حياتك؟ كيف كانت وطأة الحياة هناك عليك وعلى أخواتك وأمك؟ هذا فقط، يا ديوماندي! هذا ليس درسًا في التاريخ!».

يبدآن التدرُّب على محاكاة المقابلة مرَّة أخرى. عفراء تجلس

في الكرسي ذي الذراعين، في حضنها كرَّاسة الرسم وأقلام التلوين، وهي تدوِّرُ البِلْيَةَ بين أصابعها؛ أراقب عِرْقَ البِلْيَةِ، وهو يتلوَّى ويلمع في ضوء المصباح، ثم تذوي أصواتُهُمَا في خلفية المشهد. أحرف انتباهي عن حديثهما وأبدأ بالتفكير في النحل. ها أنا أرى النحل في سماء الصيف، يطير إلى الأعلى ويخرج من خلاياه بحثًا عن النباتات والزهور. أكادُ أسمع غناءه. أشمُّ رائحة العسل وأرى بريق أقراص العسل في ضوء الشمس. تبدأ عيناي في الإغماض ولكنّي أرى عفراء تفتح كُرَّاسة الرسم، وهي تمرِّر أصابعها فوق الورق الأبيض، ثمَّ تخرج قلمًا أرجوانيًّا من علبة الألوان.

أستيقظ على صوت البِلْيَةِ مرَّة أخرى، وهي تتدحرج على الأرضية الخشبية. أعرف من فوري أنَّ محمَّدًا هنا فيستغرقني الأمرُ لحظة حتى أفتح عينيَّ، وعندما أفتحهما أراه جالسًا على الأرض شابكًا ساقيه وبجانبه مفتاح.

«وجدتَ المفتاح يا محمَّد؟» أقول له.

«لقد وقع منك وأنت تتسلّق السور».

يقف الآن، قربي. يرتدي اليوم ثيابًا مختلفة، قميصًا أحمرَ وسروالًا قصيرًا من قماش الدينيم، ويبدو منشغلًا بأمر ما ناظرًا بانتباه عبر الباب المفتوح لغرفة الجلوس ومن ثَمَّ إلى الممر.

«ستصابُ بالبرد من جرَّاء ارتدائك هذه الثياب».

يبدأ السير مبتعدًا عنِّي فأنهض وأَتْبَعُه. نصعد الدَّرَج ونسير في الممر، ونتجاوز كلّ غرف النوم والحمَّام، حتّى نصل بابًا في آخر الممر لم أعرف سلفًا أنه موجود هناك.

«لماذا جئتَ بي إلى هنا؟» أقول له، فيعطيني المفتاح.

أضعُ المفتاح في القفل، ثم أديره وأفتح الباب. يبهر بصري ضوءٌ شديد، وعندما تتأقلم عيناي معه أجد نفسي في الأعالي في قمّة ربوة، ناظرًا إلى الأسفل إلى حلب. ثمَّة بدرٌ في السماء، بدرٌ قريبٌ من الأفق، بدرٌ مليء بألوان الصحراء. قمرٌ أحمر بلون الدم.

أستطيع أن أرى حتّى مسافة طويلة عبر المدينة، أرى الأوابد وقمم التلال، أرى الينابيع والشرفات. في الحقل الواقع إلى الشرق أرى مناحلًا، وجنبات شوكية وزهورًا برية. النحل هادئ في هذا الوقت، ولا يعمل في نور القمر سوى النحلات الممرِّضات. يفقد النحل القدرة على الرؤية في الليل قبل البشر. الهواء دافئٌ وعذب وفيه روائح الحرارة والتربة. ثمَّةَ دربٌ إلى يساري، يفضي إلى المدينة؛ أتبعه حتّى أصل النهر. ينَضُّ النهر خارجًا من حديقة المدينة ويعاني الأمرين وهو يعبر الشِّعْبَ، ويلمع نور القمر فيأتلق الماء تحته.

يركض أحدُهم أمامي، فأرى وميضًا من حمرة. أتبع الصوتَ داخل دروب الأزقة. العتمة الآن أشدّ والمصابيح مضاءة، ولكن في أكشاك السوق أهرامات ذهبية من البقلاوة. الطاولات منصوبة خارج المقاهي، قوائم الطعام والكؤوس ومعدات المائدة، وزهرة واحدة في مزهرية رفيعة على كلّ طاولة. الأحذية معروضة في واجهات

المحلَّات، وكذا حقائب نسائية تقلِّد أرفع الماركات، ثمَّة سجَّادٌ وصناديق ودِلالُ قهوة وعطور وجلود، وفي آخر الصف دكان مملوء بالحجابات المصنوعة من أكثر الأقمشة نعومة، ناعمة مثل دخان يصَّاعَدُ في ضوء المصباح، زرقاء ومغراء وخضراء.

كُتِبَ على يافطة معلَّقة بقنطرة فوق رأسي: المتحف. وأنا تحت القنطرة تمامًا، أرى بأني وصلتُ محلَّ أبي العتيق. البابُ مغلقٌ فأضغط بوجهي على البلُّور. لفائف القماش متجمّعة حتّى ارتفاع عال في آخر المحلّ، حرير وكتان من كلّ شكل ولون. في الأمام آلة دفع النقود وصندوق أدوات أبي الذي يحوي المقصَّات والإبر والمطارق.

ثمَّة وهجٌ أرجواني في آخر الحارة. عندما أعاود النظر، أرى محمَّدًا، أراه يتوارى عند زاوية الحارة. أناديه، وأطلب منه أن ينتظرني، وأن يكفَّ عن الهرب مني، وأسأله إلى أين هو ذاهب، ولكنه لا يبطئ من سيره، لذا أحثُّ الخطى مسرعًا حتى ألحق به، ولكن عندما أصل نهاية الحارة، ينفتح العالم أمامي، فأجد نفسي وقد عدتُ إلى النهر حيث القمر مرتفع في عنان السماء. لا أثر لمحمّد، لذا أجلس على الأرض، قريبًا من الماء وأنتظر



الشروق

كَشَفَ الغطاءَ عن پايريوس[1]، حيث تعجُّ السماء بالنوارس. نزلنا من السفينة في الميناء في أثينا وأُخِذْنَا إلى ساحة إسمنتية قرب الميناء تفيضُ بالخيام وتطل عليها رافعات البناء. الناس الذين لم يكن لديهم خيام التفوا بالملاحف، جالسين على الأرض. كانت الطيور تُقَمْقِمُ بين النفايات المنتشرة بينهم وفاحَتْ رائحةٌ قويةٌ من المجاري.

كنّا في ظل مبنىً مستطيل، امتلأت جدرانه على بكرة أبيها برسومات جدارية تصوِّر ميناءً مهلهلًا وأمواجًا بيضاء هائلة وسفينة قديمة ذات أشرعة رفعَتْهَا الرِّيح. على صخور الميناء المرسوم ثمَّة لوحةٌ لرافعة وتحتها أناس من زمن غابر. كان سامي سيحب هذه اللوحة. كان سيؤلف القصص حول أولئك الناس؛ وربما ستصير السفينة آلةً تسافر عبر الزمن، أو ستكون الرافعة هي الآلة التي تسافر عبر الزمن، وسوف تقوم برفع الناس من ياقاتهم وتُنْزِلُهُم في زمن آخر؛ فأنا أعرف أسلوب سامي في السخرية.

ليتني لم أكن مضطرًا إلى مغادرة هذا المكان؛ ليتني أستطيع أن أكون جزءًا من أجزاء اللوحة وأجلس إلى الأبد على صخور الميناء وأتأمل البحر.

وجدتُ وعفراء متسعًا للجلوس على إحدى الملاحف الممدودة على الأرض. قُدَّامِي امرأةٌ يتدلَّى منها ثلاثة أطفال: واحدٌ في حمَّالة من الأمام، وآخر مثبَّتٌ على ظهرها وثالثٌ بلغ سنَّ المشي ومتشبث

(1) ميناء في جنوب شرق اليونان، ويتاخم العاصمة أثينا.

بذراعها. عيناها لوزيتا الشكل، وثمة حجاب فوق شعرها بصورة مرتخية. إمَّا أنّ الأطفال كانوا توائمَ أو أنَّ واحدًا منهم ليس طفلها. كانت تتكلّم الآن، وهي تقول شيئًا ما للصبي بالفارسية، والصبي يهزُّ رأسه، ضاغطًا بأنفه على كُمِّها. ثمّة فتاةٌ قريبة منَّا على وجهها آثار حروق. لاحظتُ أنها فقدت ثلاثًا من أصابع يدها. التَقَتْ نظراتُهَا نظراتي، فأشحتُ ببصري عنها. أمعنْتُ النظر في عفراء عوضًا عن ذلك، وهي جالسةٌ هناك في صمت مطبق، آمنةً وسط كآبتها.

فجأة لمع وميضٌ وللحظة امتلأ رأسي بالضوء.

عندما تأقلمت عينايَّ مع الضوء، رأيتُ جسمًا مستديرًا أسود مُوجَّهًا مباشرةً صوبي. سلاحٌ. سلاحٌ؟ انحبَسَت أنفاسي في حنجرتي، عانيت الأمرَّين حتى أتنفَّس، وارتسمت غشاوة على عينيَّ، أما عنقي ووجهي فشعرا بالحرارة، وأصابعي بالخَدَر. لم يكن السلاح سوى كاميرا.

«هل أنتَ بخير؟» سمعتُ الرجل يقول. ثمَّ أنزَلَ الكاميرا إلى جانب جسده وبدا أنه ارتبك بصورة مفاجئة، وكأنه لم يخطر في باله أنه كان يصوِّر إنسانًا حقيقيًا. أشاح بعينيه، واعتذر بسرعة ومضى.

جاء قومٌ ليتحرَّوا وثائقنا، فأُخِذْنَا تلك الليلة في حافلة إلى وسط المدينة، إلى مركز مدينة أثينا، إلى مبنى متهالك، وهو مدرسة قديمة تطل نوافذها الطويلة على باحة. الباحة مليئة بالناس، بعضهم جالسٌ على رصيف مرتفع، وآخرون جالسون في كراسي المدرسة، أو واقفون تحت حبال الغسيل. لقد اختلط مع هؤلاء القوم موظفون من

منظمات الإغاثة غير الحكومية كافّة. جاء أحدُ هؤلاء الموظّفين، وهو رجل أبيض ذو ظفائر طويلة منكوشة، لكي يرحِّبَ بنا ومضى بنا إلى داخل المبنى، ثم صعد بنا درَجَيْن وأوصلنا إلى قاعة تدريس مهجورة. صعدت عفراء ببطء، صعودًا حذَرًا في كل خطوة تخطوها.

قال الرجل: «كم جميلٌ أن أستطيع تحدُّث الإنجليزية معك، ولكني أحاول تعلم اللغة العربية، وقليلًا من الفارسية أيضًا. إنها مهمة صعبة ترهق النفس». هزَّ رأسه، دون أن يزيح نظره عن عفراء ثم أردف: «إن القاعات التدريسية في الطابق الأرضي مخصَّصَةٌ للأنشطة. أتتكلَّم زوجتك اللغة الإنجليزية أيضًا؟».

«ليس كثيرًا».

«أيناسبها أن تصعد الدَّرَج؟».

«ستكون بخير. فقد مررنا بظروف أصعب من هذه» قلتُ له.

«أنت محظوظ. لو أنَّك جئت إلى هنا قبل شهرين لانتهى الأمر بك في الشوارع أسابيع لا انقطاع لها، وفي منتصف الشتاء. ولكنّ الجيش جاء ونقل الكثير من الناس، ولذا فقد نُصِبَت هذه المخيَّمَات. ثمّة مخيَّمٌ ضخم في إيلينكُن -المطار القديم- وفي المتنزَّه...». خفَّت نبرة صوته وكأنَّ ذهنه تشتَّت على حين غرة، وتشكل لدي انطباع بأنه لا رغبة لديه بقول المزيد عن الأمر.

أرشدَنا إلى إحدى القاعات التدريسية، وهو يقدِّمها لنا بذراع ممدودة وراحة يد مفتوحة وتلميحة ساخرة. داخل القاعة ثلاث خيام

مبنية من الشراشف. ارتَحْتُ له سلفًا. فثمَّة بريقٌ في عينيه، ولم يبدُ خائفًا أو متعبًا مثل الآخرين ممّن رأيناهم في جزيرة ليروس.

«بالمناسبة، اسمي نِيل» أشار إلى اسمه المكتوب على بطاقته التعريفية ثم أردف: «اختارا إحدى الخيام. ستتناولان العشاء لاحقًا في الساحة. تأكَّدا من الجدول الملصق على الجدار إلى اليمين حالما تدخلان، فثمَّة دروس وأنشطة بعد الظهر مخصصة للأطفال. أين ابنكما؟» وصلتني كلماته الأخيرة، بسرعة، على حين غرَّة، مثل الرصاص.

«أين ابني؟».

أومأ نيل برأسه وابتسم. «هذا المكان للعائلات فقط... حسبتُ أنَّ... إذ رأيتُ بطاقة خروجكما... هذه المدرسة مخصصة للعائلات التي معها أطفال».

«أضعتُ ابني» قلت له.

حامَ نِيل أمامي دون أن يمشي، وتغضَّن جبينه بصورة تجاعيد غائرة، فأطرق برأسه ناظرًا إلى الأرض، ثم نفخ ما في خديه من هواء وقال: «اسمعني. هذا ما أستطيع فعله. يمكنكما أن تبقيا هنا الليلة، وسأنظر فيما يمكننا عمله بشأن ليلة الغد أيضًا، لذا يمكن لزوجتك أن تنعم بالراحة والهدوء». ما إن قال جملته إلَّا وتَرَكَنَا في هذه القاعة القديمة في هذه المدرسة المهجورة، وما لبث أن عاد بعد بضع دقائق مع عائلة أخرى مكونة من رجل وزوجته وطفليهما الصغيرين.

لم أرغب في النظر إلى هذين الطفلين، وهما صبي وفتاة، وقد أمسكا أيدي والديهما. لم أرغب في أن أقيم وزنًا لحضورهما، ولذا لم أحييهما كما أفعل عادة. وبدلًا من ذلك استدرتُ، وصعدتُ وعفراء إلى إحدى الخيام، وأنزلتُ حقائبنا... ودون أن نقول كلمة واحدة، استلقينا كلانا على الملاحف، أحدنا قبالة الآخر. قبل أن نغطَّ في النوم قالت لي: «نوري، أيمكنك أن تحضر لي المزيد من الورق وأقلام التلوين غدًا؟».

«بالطبع» قلتُ لها.

سرعان ما استقرَّ المقام بالأسرة الأخرى أيضًا وخيَّم على القاعة صمتٌ يشي بالترحاب. كِدْتُ أصدِّق بأني نزيل فندق فخم وأنَّ الصرير الخافت والضوضاء التي فوقي ليست سوى أصوات نزلاء آخرين فيه. نقَرَت على ذاكرتي ذكرى منزل أهلي العتيق في حلب، وكيف كان الخوف يدبُّ في أوصالي من النوم حتى أسمع وقع خطوات أمي التي تبث فيَّ الطمأنينة وهي تطرق على العتبة خارج باب غرفتي. كانت تسترق النظر إلى غرفتي، وعندما أرى شقَّ الباب وقد ولج منه الضوء إلى غرفتي المعتمة، كنت أشعر بالأمان وأنام رويدًا رويدًا. في الصباح، كانت أمي تساعد أبي في محل القماش، وتقضي ساعات ما بعد الظهر في قراءة الصحف، ممسكة بالمروحة الحمراء التي أعطَتْهَا إيَّاهَا جدَّتُهَا. مروحة مصنوعة من الحرير وعليها صورة شجرة كرز وطير وثمَّة كلمة بالصينية مكتوبة عليها إذ ظنت أمي أنَّ معناها

القَدَر. قالت إنها كلمة عصيّة على الترجمة؛ لفظها في الصينية يوانْفِنْ، ومعناها قوة غامضة تتسبّب في تقاطع دروب حياة شخصين بطريقة ذات مغزى.

طالما ذكَّرني ذلك بالطريقة التي التقيتُ فيها بمصطفى. فبعد أن ماتت أمّه، أي خالتي، انقطع التواصل بين الأسرتين ومرَّت خمس عشرة سنة على الأقلّ دون تواصل. فقد عاش والد مصطفى حياةً منعزلةً في الجبال، بينما كانت أمي وأبي من سكّان المدينة، يعملان في حرِّ الأسواق وزحامها، حيث التجارة تروحُ وتجيء من بقاع العالم كافة. في الحقيقة من أعطى أمَّ جدتي المروحة الحمراء كان تاجرًا صينيًا مسنًّا. وهو نسَّاجٌ من بكين وكان يصنع الحرير ويلوِّنه يدويًّا بنفسه. ذات يوم أرسلني أبي في مهمَّة لجلب بعض الفاكهة فدخلْتُ في شارع فرعي ووقفت قرب النهر لأرتاح في ظلّ شجرة. كنتُ متعبًا من البقاء محبوسًا في المحلّ، وكان أبي متحمّسًا لأن أتعلَّم قدر ما أستطيع، وأن أقوم على تلبية طلبات الزبائن، وأن أتقن اللغة الإنجليزية، وهكذا حتّى عندما كان الصمت يضرب أطنابه في المحلّ كنت أجلس فيه وفي حضني كتاب قواعد اللغة الإنجليزية لأنّه، وحسب والدي، ذلك هو الطريق الذي ينبغي لي أن أسلكه.

كان الجوُّ حارًا ومُرْهِقًا؛ لأنّنا كنَّا في منتصف أغسطس، وقد شعرنا وكأنّنا نلهث في الصحراء. يا لَلراحة التي يبعثها الجلوس قرب النهر! تحت الظلّ الوارف لشجرة النَّارَنْج. لا بدَّ أنّه كان قد مرَّ على وجودي هناك خمس عشرة دقيقة عندما اقترب منّي شابٌّ، يكبرني بحوالي عشر سنوات وأشدّ سمرة مني، وكأنه أمضى حياته يعيش

ويعمل تحت أشعة الشمس.

«أتعرف الطريق إلى هذا المحل؟» قال وهو يشير إلى ورقة في يده حيث رسم عليها مخطط طريق ومحل وسهم وكلمات تقول: عسل حلب.

«محلّ عسل حلب؟» قلتُ.

أومأ برأسه بالإيجاب، ثم هزَّ رأسَه بسرعة كبيرة، وهي عرَّة أصبحت متآلفًا معها كثيرًا.

«لا تعرف مكانه؟» قلتُ له.

«لا أعرف» قال، مبتسمًا، وهو يهزُّ رأسه مرة أخرى.

«أنا ذاهب في ذلك الطريق. لم لا تتبعني؟ سأدلُّكَ على الطريق». وبينما مشينا بدأنا الحديث. لقد حكى لي من فوره عن المناحل في الجبال وأنَّ جدَّه أرسله إلى المدينة ليعاين أنواع مختلفة من العسل. قال لي إنه تقدَّم مؤخّرًا بطلب للالتحاق بجامعة دمشق ليدرس الزراعة، وأنّه أراد أن يتعلّم المزيد عن تركيب العسل. حدَّثته قليلًا عن محلّ أبي، على أنّي لم أحكِ كثيرًا جدًّا؛ لأني لم أكن كثير الكلام مثله، وأيضًا لأنّ العملَ في المحل لم يكن يروق لي إلى تلك الدرجة الكبيرة. دللته على المحل ونحن نمشي صوبه وأخذته إلى الباب الأمامي لمحل العسل، ثم توادَعنا.

بعد أسبوع جاء ووجدني في محل أبي، وقد أحضر معه برطمانًا ضخمًا من العسل. لقد عرف للتوّ بأنه قبل في الجامعة ولذا فإنه سيزور حلب أكثر من قبل، وأنه أراد أن يشكرني لأني اصطحبته إلى

المحل في ذلك اليوم. في اللحظة التي رأته فيها أمي، وهو واقفٌ في مدخل باب المحلّ حاملًا برطمان العسل في يده، سقَطَت منها مروَحَتُهَا ونهضت. سارت نحوه وحملقت فيه برهة، ومن ثم بدأت تنتحب وتقول:

«مصطفى، أنت مصطفى، أليس كذلك؟ كم كان عمرك عندما رأيتكَ آخر مرة؟ لم تكن سوى صبيّ صغير. ولكن ذلك الوجه، ذلك الوجه لم يتغير!». قالت لاحقًا إنَّ الأمر بدا لها وكأنّها رأت تجسُّدًا لأختها فيه. وهكذا بدأت صداقتنا، قرب النهر، ولاحقًا مع برطمان عسل. ثمَّة قوة غامضة لم أستطع فهم كنهها قطّ جاءت بابن خالتي إلى حياتي، قوة قادته لأن يجدني جالسًا قرب النهر بلا أمل في قلبي بالحصول على مهنة في المستقبل، ومنذ تلك اللحظة تغيَّرَت حياتي إلى الأبد. يوانفِن، يوانفِن، تلتمع في الحرارة اللاهبة، تحت عيني أمي.

أعدت تكرار المشهد في ذاكرتي مرّات ثلاث، مكرِّرًا إياها وكأنّي أكرِّر شريط فيديو وأعيد مشاهدته، حتى سلَّمْتُ أمري لسلطان النوم.

ولكني استيقظت في منتصف الليل على صوت صراخ، وصفير في السماء، وقنبلة تمزِّق حُجُبَ العتمة. انتفضت واقفا، جسدي مبتلّ، ورأسي يدور، والعتمة ترتعش حولي. رأيتُ معالم خافتة لنافذة من خلال الشرشف الفاصل، ونور القمر يتدفَّق عبره. رأيتُ وجه عفراء أغبش في العتمة وتذكّرت رويدا رويدا أين أنا. مددت يدي لأمسك يدها. ما من قنابل ولسنا في حلب. كنّا آمنين في أثينا، في مدرسة

عتيقة. خفقان النبض في رأسي انحسر، ولكن الصراخ استمر، وعندما توقّف بغتة بعد ذلك ببضع لحظات، سمعت أصواتا أخرى، أصداءَ من غرف أخرى في الطوابق الأخرى، نحيبُ كبارٍ يائس، صرير على الأرضية الخشبية، وقعُ أقدام وهمسات وضحك. بدا أن الضحك آتٍ من الخارج، من الباحة في الأسفل... ضحك امرأةٍ كان.

خطوت خارجا من الخيمة، ثم خرجت من القاعة ودلفتُ إلى الممر الطويل. في آخر الممر، قرب النافذة، ألفيت امرأة تذرع المكان جيئة وذهابًا، خفُّها يلطم الرخام، وعيناها صوب الأرض. توقّف جسدها، واهتزّ، ثم عاودَت حركتها الأولى مرَّة أخرى، مثل دمية ميكانيكية. اقتربتُ منها، مترددًا للحظة، ووضعتُ يدي على ذراعها أملًا منِّي في أن أهدِّئ من روعها، ولأسألها إذا كانت بحاجة لأي مساعدة، ولكنْ ما إن نظرت إليَّ نظرة خاطفة إلَّا وتبيَّن لي أنها كانت نائمة. نظرَت بصورة مباشرة إليَّ بعينين خائفتين مشدوهتين، تلتمعان بالدموع. وقالت: «متى عُدْتَ؟».

لم أُجِبْهَا. فأنا أعرف أنه لا ينبغي لكَ البتة أن توقظ شخصًا يمشي أثناء نومه، لئلا يموت من الصدمة. فتركتها هناك تُسَرْنِمُ[1] في كابوسها.

سمعتُ الضحكة مرة أخرى، ضحكةً حادَّة ومباغتة، اختَرَقت أصوات النِّيَام. في قاعة من القاعات التدريسية في الأعلى، كان أحدهم يشخر: وفي قاعة أخرى ثمَّة طفل يبكي. تَتَبَّعْتُ الضحكة نازلًا الدَّرَجَ ومن ثم خرجتُ إلى الباحة، وهالتني الصدمة إذ وجدتُ عددًا

(1) السَرْنَمَة هي المشي أثناء النوم.

كبيرًا جدًا من الناس لا يزالون مستيقظين. لا بدَّ أنها الساعة الثانية ليلًا. أول ما رأيته كان ثُلّة من الصبيان والبنات متجمِّعين في زاوية على كراسٍ خشبية تحت جدار مخصص لتمارين التَّسلُّق. كانوا يمرِّرون فيما بينهم كيسًا ورقيًا، وهم يستنشقون منه مادة ما.

حدجتنِي إحدى الفتيات، ولم تزح نظرتها عن نظراتي للحظة. ثمَّة خطبٌ ما يكتنفها، فحدقتا عينيها متوسعتان حتى إنّ عينيها صارتا شبه سوداوين. قريبًا منها جلس رجلان على الأرض وظهراهما قبالة الجدار يدخِّنَان. أمَّا على الرصيف، الذي لا بدّ كان يستخدم ذات يوم بمثابة منصّة في المدرسة، فثمَّة صبيَّان يركلان كرة تحت ضوء الكشَّاف الوحيد. وعند مدخل الباحة كان ثلاثة رجال يخوضون نقاشًا حامي الوطيس؛ كانوا يتحدَّثون لهجة عربية مختلفةً وكانوا ذوي بشرة أشدّ سمرةً. دفع أحدهم كتف الآخر، فهرع ثالثُهم وفصل بينهما، رفع صوته ومن ثم أنزل رتاجات المدخل، فاتحًا الباب الثقيل، ثمَّ غادروا ثلاثتهم.

عندما أُغْلِقَ البابُ مرَّة أخرى -وبعد أن خمد صوتُه المعدني الذي تردَّدَ صداه في أنحاء الباحة- بقيتُ وحدي أنظر إلى قلب أزرق ضخم مرسوم على الألواح المزدوجة، ورُسِمَ على كلتا جهتيه أجنحة حمراء. أعلى القلب كان مسطَّحًا، وثمَّة جزيرة ونخلةٌ وشمس صفراء طالعة منه. على الخلفية الخضراء الهادئة لجدران المدرسة العتيقة، كاد القلب يبدو خافقًا في ضوء الكشَّاف المرتعش.

ومن ورائي، مجدَّدًا، صدَح صوت الضحكة. أشحْتُ ببصري عن

القلب. في آخر الباحة، على الكرسي القابل للطي الذي لا ثاني له، تحت حبل غسيل، جلست المرأة الضاحكة.

كانت امرأةً شابةً سوداءَ جمَعَت ظفائر شعرها المصفّف على شكل تسريحة ذيل فرس مرتفعة. بينما سرتُ نحوها لاحظتُ بأنَّ ثدييها كانا ينزَّان حليبًا على كنزتها البيضاء. التقت نظراتنا فطَوَت ذراعيها حول صدرها وقد شعرَت بالحياء.

«سببُ ذلك أنَّهُم أخذوها» قالت بالإنجليزية.

«أخذوا مَنْ؟».

لم تجب أول الأمر. بل نظرَت حواليها نظرة مباغتة سريعة.

«أنا لا أعيش هنا. بل آتي إلى هنا في الليل أحيانًا أنشد الأمان».

جلستُ قربها على الأرض فالتفتَتْ إليَّ وأظْهَرَت لي ذراعها. ثمَّة عشرات الجروح الدائرية الصغيرة.

«إنه دمي. لقد سمَّمُوه»، قالت.

«مَنْ الذي سمَّمَه؟».

«كنت مقيمةً في غرفة، ومن ثَمَّ حاولَ قتلي. أمسك رأسي وخبَطَه بشدَّة على الأرض. وانقطَعَتْ أنفاسي، ثَمَّ انحبست بعدئذ، ولم أسترجعها. ليس فيَّ نَفَسٌ الآن. أنا ميتة».

ومع ذلك كانت عيناها مفعمتين بالحياة. ثم تابَعَت قائلة:

«أريد الذهاب إلى ألمانيا على الأغلب. أو الدنمَارك. أريد مغادرة هذا المكان. والأمر ليس سهلًا سيّما أنّ مقدونيا أغلقت حدودها. أثينا هي مركز التجمّع. فالجميع يأتون إلى هنا وهم في طريقهم إلى أيٍّ مكان آخر، ثم يَعلَقون هنا». بدت أكثر اضطرابا الآن، وقد ارتسم عبوسٌ غائرٌ بين حاجبيها. «هنا المكانُ الذي يموت فيه الناس موتًا بطيئًا؛ يموتون من الداخل. واحدًا إثر واحد، يموتُ الناس».

بدأتُ أشعر بالغثيان. ليتني لم أقترب البتة من هذه المرأة؛ المرأة ذات الثديين الَّلذَيْن ينزَّان حليبًا؛ المرأة المسمومة الدم.

الصبيَّان اللذان كانا يلعبا كرة القدم ذهبا الآن، لذا فقد صار المكان أهدأ، وسطع ضوء الكشَّاف على منصة فارغة. أمَّا الرجلان فما يزالان يدخِّنَان، ولكن الأولاد الجالسين على الكراسي تفرَّقُوا هنا وهناك. لم يبقَ سوى صبيين؛ وكانا ينظران إلى هاتفيهما المحمولين، ووجهاهما يلتمعان في الضوء.

«يقولون لي إني بحاجة إلى شرب الكثير من الماء، حتى يتعافى دمي، ولكني ميتة»، فقَرَصَتْ بشرَتها لحظتئذ. «أنا كاللحم. كما تعلم، أنا كاللحم النيء؟ كلحم ميّت. إنّ جسدي يؤكل الآن». قرَصَت ذراعها وأرتني الندوب مرة أخرى. لم تخطر في بالي أي فكرة أقولها إزاء أي مما قالته. كنت سعيدا أنّ ضحكتها توقّفت، توقّفت برهة على الأقل. ولكن بدا في الحال أن الصمت أشدُّ وطأةً ممَّا لو كانت تضحك.

«أين تسكنين؟» قلتُ لها.

«في المتنزَّه. ولكنِّي آتي إلى هنا أحيانا، فهنا أكثر أمانا، والريح

أخفّ، لأننا في المتنزّه في مكان مرتفع، قريب من الآلهة».

«وكيف أتقنت الإنجليزية كل هذا الإتقان؟».

«علمتني إيّاها أمّي».

«من أين أنت؟».

وعوضًا عن أن تجيبني، نهَضَت فجأة قائلة: «حان موعد الذهاب. علي أن أذهب الآن»، فتابَعْتُهَا بنظراتي وهي تزيح رتاج الباب وتفتحه، كاسرةً القلب الأزرق. وعندما أقفل الباب، خيَّم صمتٌ مطبق. كان الصبيَّان قد ذهبا في هذه اللحظة ولم يبقَ سوى الرجلين، مستندين إلى الجدار، وما يزالان يدخِّنان، ومن خلال نوافذ القاعة التدريسية أمكنني سماعُ أصوات الأطفال يبكون: صوت طفل وولد آخر أكبر منه.

طفقتُ راجعًا صاعدًا الدَّرَجَ ومن ثم سرتُ عبر الممر، لم أجد المرأةَ المُسَرْنِمَة، وخيَّم صمتٌ على المكان برمته الآن؛ صمتٌ أرسلَ الطمأنينة في بالي.

استيقظتُ على سطوع من ملاءات بيضاء، وعلى أصوات مشوَّشة صادرة عن محرِّكات سيَّارات وأناس يصرخون بالعربية أو اليونانية أو الفارسية، أو اللغات الثلاث جميعهاً في جملةٍ واحدة. كانت عفراء لا تزال نائمة.

عندما نزلتُ إلى الطابق الأرضي كانت الباحة مليئة بصناديق فيها موز شبه مسود وكراتين حفّاظات. ثمَّة رجلان يحملان أكياس بطاطا، وثلاثة آخرون يدخلون صناديق كُتب عليها شفرات حلاقة، فراشي أسنان، دفاتر، أقلام. وراء القلب المكسور المرسوم على الباب المفتوح ثمَّة بضع شاحنات صغيرة مغلقة بيضاء رُسمت على جوانبها شعارات جمعيّات خيرية. دخلت إلى القسم المخصّص للأطفال، حيث كانت امرأة تخرج ألعاب الأطفال وألعاب الشطرنج والنرد وما إليها والدفاتر وأقلام التلوين.

«المعذرة» قلتُ لها.

«أي خدمة؟» قالت المرأة بلغة إنجليزية ذات نبرة مختلفة.

«أعندك أوراق وأقلام تلوين؟».

«إنّها في واقع الأمر مخصّصة للأطفال». قالت.

«ابني في الطابق العلوي. وهو ليس بصحّة جيّدة؛ أظنّ أنّ الرسم قد يروق له».

بحثت المرأة داخل كيس وأخرجت كرّاسة وعلبة أقلام. أعطتني إيّاهما، على مضض، وإنْ بابتسامة.

«آمل أنّه يستطيع أن ينضمَّ إلينا عندما تتحسَّن حالتُه» قالت.

كانت عفراء لا تزال نائمة، ولكنّي دسستُ الدفتر والأقلام تحت يدها بحيث ستشعر بها عندما تستيقظ، ثم جلستُ مدّة طويلة قربَها،

محملقًا في بياض ملاءة الخيمة المملوءة بأشعة الشمس، وغاب ذهني برهة عن التفكير. ثم بدأت الصور تنبثق... هناك، إلى يساري، نهر قويق؛ وإلى يميني شارع رمادي فيه شجرة نارنج؛ وأمامي فندق بارون الشهير؛ وعلى مبعدة الجامع الأموي في حلب في حي الجلُّوم في المدينة القديمة، الشمس تغرب، صابغةً قباب الجامع بالبرتقالي، وفوق ذلك الطريق كانت أسوار القلعة، وهنا مبانٍ متهالكة؛ وهناك قنطرة متهدِّمة في سوق المدينة، وعلى مبعدة ثمّة شارعٌ في أحياء حلب الغربية، برج الساعة في باب الفرج، الشرفات والبلكونات والمآذن المهجورة. ثم حدَث أن هبَّت الريح عبر النافذة فتحرَّكت الملاءات وتلاشت الصور. فَرَكْتُ عينيَّ، والتفتُّ صوب عفراء. بدت مذعورةً في نومها؛ كانت مضطربة، تنفُّسُها سريع وكانت تقول كلمات ما، ولكنّي لم أستطع فهمها. وضعتُ يدي على رأسها، وداعبتُ شعرَها، فهدأ تَنَفُّسُهَا رويدًا رويدًا وتوقَّفَتْ هَمْهَمَاتُهَا.

استيقظتْ بعد ساعة، ولكنَّ عينيها بقيتا مُغمَضَتين. كانت تتحرَّك؛ أصابعها تتحرَّك فوق كُرَّاسَة الرسم ومن ثَمَّ فوق أقلام التلوين. ما لبثت أن قالت:

«نوري؟».

«نعم».

«هل أحضرْتَ هذه الأشياء لي؟».

«نعم».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على محيَّاها.

استوت من نومها ووضعت الكُرَّاسَة والأقـلام في حضنها، ومرَّرَت يديها في شعرها وعيناها لا تزالان مغمضتين. كانت بشرَتُهَا صافية جدًّا، وعندما فَتَحَتْ عينيها كانتا رماديتان برَّاقتان، قزحيتاها صغيرتان جدًا، وكأنَّهُما كانتا تحاولان درء الضوء.

«ماذا ينبغي لي أن أرسم؟» قالت.

«أيَّ شيء تحبّينه».

«قلْ لي. أريد أن أرسم شيئًا لك».

«المنظر الذي يطلّ عليه منزلنا».

تابعتها بنظراتي وهي ترسم، أصابعها تلاحق خطوط قلم التلوين، وهي تتبَع كل خط كمن يمشي على درب. عيناها تبرقان وهي تنظر إلى الورق ومن ثم تشيح بناظريها عنه مرة أخرى، وهما تغمزان كثيرًا الآن، وكأنَّ هناك ضوءًا يومض قريبًا جدًّا منهما.

«أيمكنك أن تري أي شيء يا عفراء؟».

«لا. اهدأ، فأنا أفكّر».

راقبتُ اللوحة إذ تشكَّلت ملامحُها، رأيتُ القبابَ تنبثق وكذا سطوح المنازل المستوية. في صدر اللوحة بدأتْ تضيف أوراقَ الشجر والزهور التي تَحَلْزَنَتْ متعرِّشة حول درابزين الشرفة. ومن ثم، ظلَّلَت السماء بالأرجوانيّ والبنيّ والأخضر؛ لم يكن عندها أيّ

فكرة عن الألوان التي كانت تستخدمها، بدا فقط أنّها تعرف أنها تريد أن يكون للسماء ثلاثة ألوان. تابعتُها بأنظاري وهي تسير وراء خطوط المشهد الطبيعي برؤوس أصابعها بحيث لا ينزف اللون إلى داخل المباني.

«كيف تفعلين ذلك؟» قلتُ لها.

«لا أعرف» قالت، وعيناها تبتسمان لحظة، ثم أَرْدَفَتْ: «أليست لوحة جميلة؟».

«إنّها جميلةٌ جدًّا».

لسبب ما، عندما قلتُ ذلك توقَّفَتْ عن الرسم، وهكذا بقي الجانب الأيمن من اللوحة دون تلوين. ومن الغرابة أنَّ هذا ذكَّرَني بالشوارع البيضاء المتهالكة حالما اندلعت الحرب. ذكَّرَني بالطريقة التي مُسِحَ فيها اللون من كل شيء. ذكَّرَني بالطريقة التي ماتت فيها الزهور. أعطتني اللوحة. فقلتُ لها:

«إنّها غيرُ مكتملة».

«بل مكتملة». ثمَّ دفَعَتْهَا نحوي. ومن ثمَّ استرَخَت إلى الوراء والتَزَمتِ الصمتَ وهي تريحُ رأسَها على يديها. لم أتحرَّك مدة طويلة. وكل ما فعلته أني اضطجعتُ هناك ناظرًا إلى اللوحة، إلى أن أطلَّ نِيل برأسه من الباب ليبلغنا أنه علينا المغادرة.



9

أنا محاطٌ بالقماش... يبدو أنّه قماش معاطف، وثمَّة أحذيةٌ على الأرض ومكنسة كهربائية محشورةٌ في الزاوية حشرًا. الجوُّ دافئ هنا وثمَّة سخَّانٌ فوق رأسي. إلى يساري، في آخر الممر، يقف المغربيُّ، محملقًا فيَّ. يمشي نحوي ويمدّ لي يدَه بصمت. لا ينبس ببنت شفة، ولكنّ ثمَّة نظرةً كئيبةً تجتاح وجهه، ثم يأخذ بيدي إلى غرفتي. عفراء ليست هناك، وقد رُتِّبَ السرير وعبايتها ليست على العَلَّاقَة. ولكن على الخزانة، على الجانب الذي أنام فيه من السرير، ثمَّةَ لوحة جميلة للمناحل؛ الحقل يمتدُّ امتدادًا بعيدًا واسعًا، والخلايا متناثرة في أرجائه، والشمس تشرق. لقد رَسَمَتْ في اللوحة أيضًا المطبخ والخيمة حيث كنَّا نجلس جميعًا لتناول الغداء. الألوان ليست صحيحة، والخطوط خشنة متكَسِّرة، ولكنّ اللوحة تضجُّ بالحياة؛ تتنفَّس، وأكادُ أسمع طنينَ النحل فيها. ثمَّةَ ورودٌ سوداء في الحقل وراء المناحل، وورود يتسلَّلُ لونُهَا إلى السماء.

يُجْلِسُنِي المغربي على السرير، ثم يحلُّ أنشوطة حذائي، ويخلعه من قدميَّ، ويرفع لي ساقيَّ. أضمُّ اللوحة إلى صدري.

«أين عفراء؟» أسأله.

«لا تقلق، إنها بخير، وهي في الطابق الأرضي. وفريدة تلازمها الآن».

«ومَنْ تكون فريدة؟» أقول.

«المرأة الأفغانية».

يذهب برهةً، ويعود ومعه كأس ماء. يرفعها قبالة فمي فأشرب كلَّ ما فيها. ومن ثمَّ يعدِّلُ الوسائد وراء رأسي، ويغلق الستائر ويطلب منّي أن أنعمَ ببعض الراحة. يغلق الباب ويتركني هنا في العتمة.

أتذكَّرُ دروبَ الحارة وصوت الركض وقميص محمَّد الأحمر، ولكن جسدي ثقيل، ساقاي وذراعاي مثل الصخر، وأشعر بحرقة في عينيَّ فأغمضهما.

عندما أستيقظُ أجد أن العتمة ازدادت حدتها عمَّا هو معهود. أستطيع سماع صوت ضحكة، ضحكة تنتشر عبر العتمة مثل قرع الأجراس. أنزلُ إلى الطابق الأرضي صوب غرفة الجلوس، حيث يلعب بعض النزلاء لعبةَ الدومينو. عفراء بينهم وهي تتكئ إلى مائدة الطعام، ثمَّةَ ستّة أحجار دومينو مرتَّبَة أمامها في صف، وبأصابع ثابتة ونظرة ملؤها التركيز الكامل تحاول أن تضع الحجر السابع بجانب الأحجار الستَّة. كل من حول المائدة يحبسون أنفاسهم وينظرون بتمعُّن. تتوقَّف وتهزُّ يديها وتضحك مجدّدًا. «حسنًا، لقد نجحت! لقد نجحت! أترون!».

هذه أول مرَّة أسمَعُها تتحدَّث مع أحد منذ أسابيع؛ أول مرَّة ترتسم

إشراقةٌ وضحكةٌ في صوتها منذ شهور.

يلمحني المغربيُّ واقفًا في مدخل الباب، «جيزير!» يقول بالإنجليزية، وقد ائتلقت عيناه. «تعال واجلس، ولنلعب. سأحضِّر لكَ الشاي». يسحب كرسيًّا لي ويقودني إليه ويدُه على كتفي، ومن ثم ينطلق إلى المطبخ.

يرمقني بقية النزلاء بنظراتهم للحظة خاطفة ويومِئُون برؤوسِهم أو يسلِّمُون عليَّ، ولكنَّ اهتمامَهُم يعود لينصبَّ على عفراء والدومينو. ها هي تعتدل أكثر في جلستها، يداها ترجفان قليلًا الآن، وأرى أنَّهَا التَفَتَتْ برأسها صوبي بصورة خفيفة. تضع حجرَ الدومينو قريبًا جدًا من الحجر السابق فتقعُ الأحجارُ جميعها.

الجميعُ يضحكون ويهتفون ويطلقون صيحات التأسُّف ثم تَجْمَعُ المرأة الأفغانية أحجار الدومينو وتسحبها نحوها. فهي ماهرة في هذه اللعبة. ما إن يعود المغربيُّ ومعه الشاي إلَّا وتكون قد صفَّت خمسة عشَرَ حجرًا في صفّ واحد، وهي تعدُّ الأرقام لعفراء التي تجلس بجانبها تمامًا.

أشرب الشاي، الذي كان شديد الحلاوة، ومن ثم أتّصل بعيادة الطبيب العام لأبلغهم بأنّ البياناتِ الصحيحةَ باتت معي الآن وأريد تحديدَ موعدٍ لعفراء لفحص عينيها.

عندما يجنُّ الليلُ أحرِص على أن أخلد إلى النوم مع عفراء. أتبعها صاعدًا الدّرج، محاولا ألَّا أنظر إلى الباب الواقع في آخر الممر. باب غرفة نوم ديوماندي مفتوحٌ مرَّة أخرى وهو يقف وظهره باتجاهنا،

ناظرا إلى الخارج من نافذته، وشكل التنوءين بارز تحت قميصه. ثم ما يلبث أن يلتفت ليواجهني وكأنّه عرف أنِّي كنتُ أنظر إليه.

«تصبح على خير»، يقول لي، ويبتسم، وأرى أنه يحمل صورة بين يديه. يأتي بها ليريني إيَّاها. «هذه أمي، وهؤلاء أخواتي». كلهنَّ نساء مبتسمات وقد بانت أسنانهنَّ الكبيرة.

في غرفة النوم أساعد عفراء على نزع ثيابها ثمَّ أضطجع بجانبها.

«هل قضيتِ يومًا سعيدًا؟». أقول لها.

«كان سيكون أسعد لو قضيْتُه معك».

«أعرف».

أسمع صوت صبي ينادي بكلمات ما بالعربية. يبدو أنه صوتٌ آت من إحدى الغرف الأخرى، ولكنني أعرف أنه لا يوجد أطفال هنا، هذا في حال لم يصل أناسٌ جددٌ اليوم. ولكن يبدو أنَّ الصوت آتٍ من الحديقة في الأسفل.

«ماذا تفعل؟» تقول عفراء. أقفُ قرب النافذة الآن، وأنا أنظر إلى الباحة المعتمة.

«هل سمعتِ ذلك؟» أقول لها.

«ما ذلك سوى صوت التلفاز في الطابق الأرضي. أحدهم يشاهد التلفاز» تقول.

«لا أقصد ذلك الصوت. بل صوت أحدهم ينادي باللغة العربية».

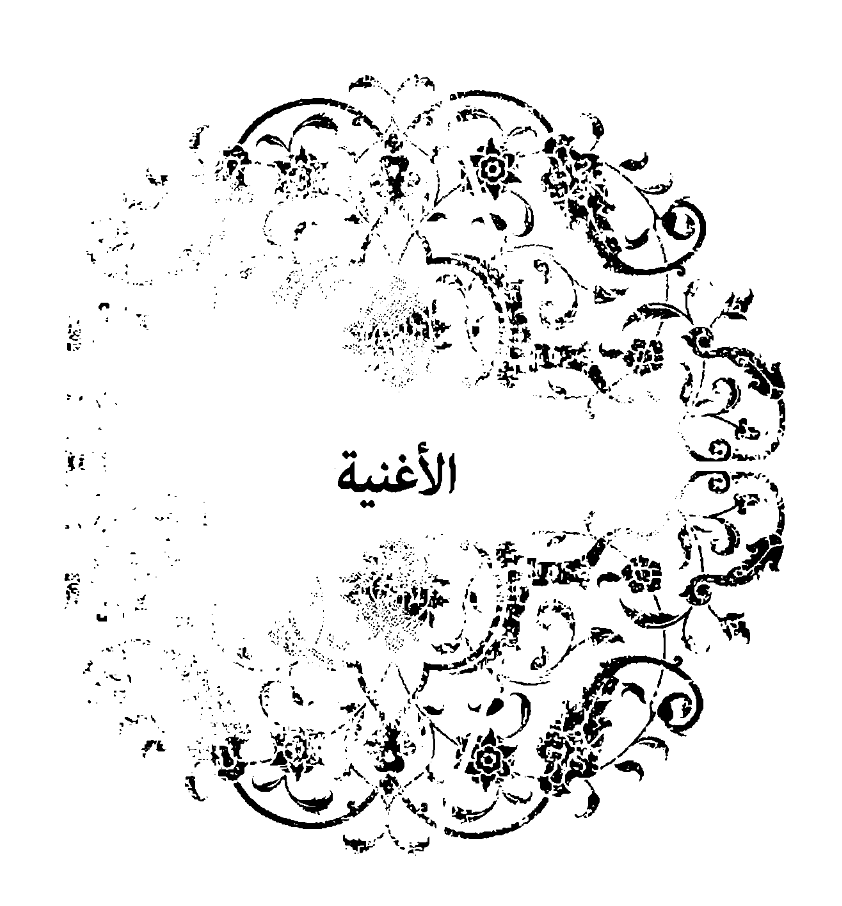
«وماذا يقول؟».

«تعالوا إلى هنا! تعالوا إلى هنا!».

أضغط وجهي على النافذة. مما أستطيع رؤيته، أجد أن الباحة خاوية؛ ما خلا شجرة الكرز وسلال القمامة والسلم النقَّال، لا وحش يسيرُ ولا طير يطير هناك، فتقول عفراء:

«تعال فقط واستلقِ. استلقِ وأغمض عينيك وحاول ألَّا تفكِّر بأيِّ شيء».

ها أنا أفعل مثلما تقول. أضطجعُ قربَها فأشعر بدفء جسدِها وأشمُّ رائحة الورود. أغمض عينيّ قبالتها وقبالة العتمة ولكنّي أسمع الصوت من جديد؛ صوت طفل، صوت محمَّد، فأنا أعرفه، يبدأ بغناء تهويدة، أميِّزُها، فهي تذكِّرُني بسامي. أضع يديّ على أذنيّ، ولكن ذلك لا يحجب



الأغنية

أغنية الجداجد رحَّبَتْ بنا حين وصولنا إلى بيديون تو آريوس. امتدّت الدرابزينات الحديدية المتآكلة على طول الشارع السريع الذي يفضي إلى وسط البلد في أثينا.

لم يبارح محمَّدٌ مخيّلتي، لا بل إنّي حسبْتُ أنّي ربَّمَا سمعتُ صوته يناديني، ولكنّي أدركتُ أنَّ تلك الأصوات ليست سوى أصوات المدينة. كان نِيل يتقدَّمُنَا. فقد أصرَّ، ربّما بسبب الإحساس بالذنب، على حمل كلّ حقائبنا، وهكذا حَمَلَ حقيبة ظهري على إحدى كتفيه وحَمَلَ حقَيبة عفراء على كتفه الآخر. قبل أن نغادر المدرسة، كان نِيل قد رَمى كلَّ حقائبنا القديمة وأعطانا حقائب جديدة وملاحف ذاتية التدفئة.

«لقد بنوا هذا المكان إحياءً لذكرى الثورة ضدَّ الحكم العثماني عام 1821!» أخبرنا نِيل. ثم مرَرْنا ببعض الكبينات الخشبية المفتوحة المنتشرة على الدرب، ولكنّه تابع سيره موغلًا في الغابة. ومن ثمَّ، رأينا، تحت نباتات السرخس والنخيل، قريةً صغيرة قوامها الخيام والناس وقد انسدحوا على ملاحف. كان المكان قذرًا، وحتّى في الهواء الطلق فاحت روائح رهيبة: روائح العَفَن والبول. ولكن نِيل تابع مسيره. بينما أوغلنا في المتنزَّه، تناثرت الحُفَرُ الفاغرة فاها على ممرات المشي ونَمتِ الأعشاب صاخبةً وشائكة. ثمَّة بضعةُ أشخاص يُمشُّون كلابَهم، فيما جلس المتقاعدون على المقاعد، أمَّا في أعماق المتنزَّه، فقد هيَّأ مدمنو المخدِّرات جرعاتِهم.

في آخر المطاف وصلنا إلى منطقة أخرى من الخيام ووجَدَ لنا نِيل بعضًا من متسع فوق بضع الملاحف بين نخلتين. قبالتنا تمثالُ محارب قديم، وعلى قاعدة هذا التمثال جلس رجلٌ هزيلٌ. ذكَّرتنِي عيناه بالأطفال الذين رأيتُهم الليلة الفائتة في المدرسة.

لم أتنبَّه إلا بعد مدة طويلة جدًّا إلى الإشكالية التي تكتنف هذا المكان؛ وذلك بعد أن غادر نِيل وأحاطت بنا العتمة من كل حدب وصوب. فقد لفت انتباهي أولًا تجمُّعُ الرِّجال في عصابات كقطعان الذئاب؛ بلغار ويونانيون وألبان. كانوا يراقبون وينتظرون شيئًا ما؛ رأيتُ ذلك في عيونهم. كانت عيونَ حيوانات مفترسة سِمَتُهَا المكر.

الليل بارد. كانت عفراء ترتجف ولم تنبس ببنت شفة. كانت مذعورة هنا. غطَّيتها بأكبر عدد استطعته من الملاحف. لم يكن لدينا خيمة، بل مظلّة كبيرة وحسب، مظلّة حجبت الريح القادمة من الشمال. كما مَنَحَتْنَا نارُ موقد قريبة قليلًا من الدفء، ولكنّه ليس بدفء كافٍ لمنحنا الراحة.

ثمّة ضوضاءُ وضحك وحركة من الجهات كافة. لعب بعض الأولاد كرة القدم في فسحَة مفتوحة بين الأشجار، صبيةٌ وبنات يركلون التراب إلى الأعلى. فيما لعب آخرون الورق، أو دردشوا خارج خيامهم، وتحلّقت مجموعة من المراهقين جلوسا على لحاف، كلّ منهم يحكي لأصحابه القصص والحكايات التي يتذكّرونها من أيام الطفولة. ثمّةَ فتاةٌ تتكلَّم، والبقيّة يصغون ملء آذانهم، أرجلهم مشبوكة، في عيونهم ينعكس ضوء النار المتضائل.

وأنا أنظر إليهم، اقترب منهم أحدُ موظّفي منظّمات الإغاثة غير الحكومية، شابٌّ أشقرُ يحملُ كيسَين بلاستيكيَين أبيضين، كيس في كل يد. توقَّفَت الفتاة عن الكلام والتفتوا جميعًا وصاروا قبالته، وأفراد المجموعة كلها متأجّجون فرحًا، وهم يتحدّثون أحدهم بعد الآخر. وضع الموظف الكيسين وانتظروا جميعًا يحدوهم الأمل وهو يُخْرِجُ علب الكوكا كولا التي تلقَّفَها المراهقون، واحدًا إثر واحد. ما إنْ ظَفَر كلٌّ منهم بعلبة، حتى فتحوها، وهم يضحكون فرحين على صوت فتحها وفورانها.

ثم شربوا جميعًا في الوقت ذاته.

«هذه أول رشفة كولا أشربها منذ ثلاث سنوات!» قال أحدُهم.

أعرف أن داعش حرَّمَت شرب الكوكا كولا لأنها ماركة لشركة أمريكية متعدِّدة الجنسيات.

«بل إن هذه أفضل من الطَّعم الذي أتذكَّر أني كنت أشربه!» قال آخر.

رآني موظّف الإغاثة أنظر إليهم. فأخرج آخِرَ علبة من الكيس وجاء صوبي. كان أصغر ممّا ظننت، ذا شعر أشقر مموج وعينين سوداوين صغيرتين. جلب معه الضحك والفرح وهو يعطيني العلبة، بابتسامة عريضة على محيَّاه.

«أمر مذهل، صحيح؟» قال لي.

«شكرا لك». فتحتُ العلبة وارتشفت رشفة خفيفة، متذوقًا

حلاوتها. أعطيتها بعدئذ لعفراء، التي لم تزل ترتجف، متدثرة باللحاف. فسحبت منها نغبةً مديدةً.

«واو، كوكا كولا؟» قالت. بدا أن ذلك ردَّ بعض البهاء إلى وجهها. ولذا تبادلنا العلبة فيما بيننا واستمعنا إلى القصص التي كان يرويها الصغار.

فيما بعد، وبعد منتصف الليل، عندما نامت عفراء أخيرا وتوقّف جسدُها عن الارتجاف، لاحظت بعض الرجال الأكبر سنًا يتجوَّلون حولنا، وهم يراقبون الصبيان والبنات. أحدهم كان يتوكأ على عكاكيز، قرمة ساقه المقطوعة عارية وواضحة حتى في العتمة. الرجل النحيل الجالس على قاعدة التمثال يعزف الآن على غيتار. يعزف أغنية حزينة وجميلة، أغنية ناعمة مثل تهويدة.

«جاؤوا بك إلى هنا أيضًا؟».

رفعتُ بصري فرأيتُ المرأة السوداء التي رأيتها الليلة الفائتة. كانت متدثّرة بلحاف حول كتفيها وفي يدها كسرة خبز. ثم قالت لي:

«احرص على أن تنال نصيبك من الطعام في الصباح. فهم يحضرون الطعام من الكنيسة ولكنَّه ينفد بسرعة. كما يأتون بالدواء أيضًا».

مدَّت اللحاف على الأرض وجلست بجانبي. كانت تضع غطاء رأس أخضر كخضرة الزمرد.

فجأة، ومن مكان غير معلوم، هبَّت ريحٌ شديدة اجتاحت المخيَّم،

وكأنَّ آلهة المكان استيقظت من سبُاتها. فتناثرت أوراق الشجر والتراب الجاف قربنا، ولكنَّ المرأة انتظرَتْهَا حتى تهدأ فحسب، وقد جعلني ذلك أظن أنها معتادة على هذه الصليات غير المتوقّعة والقصيرة الأمد من نوبات الطقس. ومن ثم أنزَلَتْ يدها في كيس قماشي صغير وأخرَجَتْ حاوية فيها بودرة الطّلق[1]، فأطلقت سحابة معطرة على راحتها، ثم كامل وجهها ويديها. فكان من شأن ذلك ترك أثر غريب جَعَلَ ملامحها شاحبة، وقد ذوت الحياة والبهاء من وجنتيها فجأة. لم تكفّ عن تتبّعِي بنظراتها طوال الوقت.

قالت: «إنهم يسرقون الأطفال هنا. يخطفونهم خطفًا».

من بين أوراق الشجر، التمعت عيون الرجال في نور القمر.

«ولِمَ يفعلون ذلك؟».

«لبيع أعضائهم. أو لتشغيلهم في الدعارة». مرّة أخرى قالت مقالتها بأريحية، وكأنّها صارت في حرز من هذه الأشياء. لم أرغب في الإصغاء لهذه المرأة، وتمنيت لو أنّي لم أرَ الظلال تتحرَّك في الغابة. لاحظت مجددًا أنّ ثديَيها ينزَّان حليبا، فثمَّة بقع رطبة نضرة على كنزتها البيضاء.

«إنّ عقلي سقيم» قالت، وهي تطرق على جبينها. بعدئذ، قالت وهي تقرص بَشَرَة ذراعها من الداخل: «لست سوى ميتة. فالسَّواد يغمرني من الداخل. أتعرف ماذا يعني ذلك؟».

---

(1) الطّلق: حَجَرٌ برّاقٌ شفاف ذو أطباق يتشظى إذا دُق صفائح، ويُطحَنُ فيكوُن مسحوقًا أبيض يُذرُّ على الجسد فيكسبه بردًا ونعومةً. (معجم المعاني الجامع الإلكتروني).

التمعت عيناها السوداوان في ضوء النار، وغشَّت بياضَهما صفرةٌ خفيفة. ثمَّة تكوّر في ملامحها؛ اكتمال، نعومة، شفافية؛ تجلَّى ذلك في ملامحها وفي حركات يدها، ومع ذلك أردتُ أن أهرب منها، لأنّي لم أرد أن أعرف. فرأسي الآن يكفيها ما فيها؛ ولا متَّسع لمزيد. لم تفارق أنظاري اللطخاتُ الرطبة المرتسمة على كنزتها، جهة اليسار هي الأسوأ حالًا، وكأنّ قلبها كان يقطر، ولذا وطّنتُ نفسي على ألَّا أنظر.

«لا يمكنك مغادرة هذا المكان. أتعلم ذلك؟» قالت.

لم أقل شيئًا ردًّا على ذلك. فقد كنت أفكّر بمحمَّد الآن. كما أن رؤية هؤلاء الرجال في الغابة أثارت تساؤلات جديدة في ذهني. أأَخَذَه أحدُهم؟ هل أغروه بالذهاب أم اختطفوه في الليل وهو نائم؟

مضت في حديثها: «لقد أُغلِقت الحدود كما تعلم. القادمون كثُرٌ كثُر والمغادرون قلَّة قليلة، وأنا لا أستطيع العودة. ما أنا سوى ميتة. أريد مغادرة هذا المكان. أريد أن أجد عملًا. ولكن ما من أحد يريدني».

تحت شجرة كان أحد الرجال الأكبر سنا يتحدَّث مع فتاة صغيرة. على الأرجح أنّها في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، ولكن الطريقة التي كانت تقف بها جعلتها تبدو أكبر سنًّا بكثير؛ ثمّة إيحاءات جنسية واضحة في الطريقة التي كانت تستند فيها إلى الشجرة.

«أتعرف لماذا قام أوديسيوس[1] برحلته؟»، قالت المرأة عندئذ، وهي تلكزني، فتمنّيتُ لو أنها تلتزم الهدوء. التفتُّ صوبها لثانية، وعندما عاودت النظر وجدت أنّ الرجل والفتاة اختفيا. فشعرت بالغثيان.

«ذهب من إثاكا إلى كاليپسو[2]؛ إلى مكان لا يعلم اسمه إلا الله... كل رحلته هذه، من أجل ماذا؟».

ثمة حدّة في هيئتها -حدّة في الطريقة التي مالت بها عليّ، حدّة في الطريقة التي تدفع بها ساقي إذا ما أزحت بصري عنها.

«لا أعرف» قلت لها، فقالت:

«ليجد وطنه مرّة أخرى»، ومن ثم لاذت بالصمت مدة طويلة. ربما كانت قد شعرت بأني غير راغب في الكلام فعلا، لذا جَلست هناك ويداها مشبوكتان في حضنها. كان لها حضور قاس، عيناها متّسعتان، ومتيقظتان كل التيقُّظ. وبقدر ما حاولت أن أخرجها من بالي وأتظاهر بأنها لم تكن هناك، زاد عجزي عن أن أفلح في ذلك.

«ما اسمكِ؟» قلت.

«أنجيليكي».

«هذا اسم يوناني».

---

(1) حسب الأساطير اليونانية، ملك إثاكا وقائد الإغريق في حرب طروادة، وصل وطنه بعد عشر سنوات من الترحال.

(2) اسم حورية البحر التي أخّرَت أوديسيوس أثناء رحلته مدة سبع سنوات في جزيرتها المسماّة أوغيجيا. والمرأة هنا تخلط بين اسم الحورية واسم جزيرتها لأنها لا تتذكره حسبما أردفت لاحقا.

«نعم. معناه (الملاك)».

«من أين أنتِ؟».

ومرّة أخرى بدا أن هذا السؤال أرّقها. فلملَمت لحافها، ولفّته حول كتفيها وهامت على وجهها في عتمة الليل، وهي تلتقط شيئا من الأرض على طول طريقها.

اضطجعت قرب عفراء ولكني لم أستطع إلى النوم سبيلا، فقد سمعت صرخات غريبة قادمة من أعماق الغابة، صرخات ثعالب أو قطط أو بشر. لا يزال الرجل الذي كان جالسا على قاعدة التمثال جاثما في مكانه، وفي ضوء النار الذاوية، لاحظت وجود خدوش على ذراعيه؛ جروحٍ غضّة حمراء وكأنّ حيوانا انقضّ عليه.

مع أن فكري كان متعبا، فقد أغمضت عيني بشدّة. لم أرد أن أرى أو أعرف أيّ شيء زيادة على ما رأيت وعرفت.

في الصباح صلّى القوم الفجر وبعد ذلك صارت پيديون تو آريوس مثل ميدان للعب. فقد سطعت أشعة الشمس عبر أوراق الشجر، ما شكّل سدّة من الزمرد حتى إنها ذكّرتني بأنجيليكي وهي جالسة هنا الليلة الفائتة مرتدية غطاء رأسها الأخضر. ثمّة قوم من أهل البلد بين اللاجئين، عجائز معهنّ أكياس طعام: سرن هنا وهناك يوزعنها عليهم.

لاحظت أمًّا شابّة جالسة على لحاف، وقد ألقت على رأسها بحجاب سماوي بصورة مرتخية. أمسكت بين ذراعيها طفلًا ضئيل الجسد، على الأرجح أن عمره بضعة أسابيع -يداه وساقاه كالغصينات،

وقد برزت من تحت اللحاف. بدا الأمر كما لو أنَّها تحمل طفلا ميّتا، وكأنّها تهدهد طفلا ميّتا بين ذراعَيها، وكأنّ عينَيها تعرفان ذلك ولكنّ جسدَها لا يعرف. انحنت عجوزٌ يونانية على الأرض قربهما، وهي تساعد الأم في إعطاء رضّاعة الحليب المعلّب للطفل، ولكن الطفل ما كان ليشربه. استسلمت العجوز، وعوضًا عن ذلك صبّت كأسًا كبيرة من الحليب المكثّف وملأت طبقًا ورقيًا ببسكويت الشوكولا وأعطتها للأم، مشجعة إيّاها على أن تأكل وتشرب، وهي تدفع الكأس نحو فمها كلّما تمنّعَت.

«اشربيه كلّه»، قالت العجوز باليونانية وبالإنجليزية. بدا أنّ الأم تفهم إحدى اللغتين ولذا فقد سحبَت نغبة عندئذ وأعطتها الكأس طالبة المزيد. أعطتها العجوز كأسا أخرى، ومن ثمَّ، عندما فرغت من الأمر، أمسكت العجوز يديّ الأم بيديها ونظّفتهما بمناديل أطفال ودهنتهما بالكريم. عينا الأم حزينتان، زرقاوان كالبحر وشاردتان.

«ماسة الحلوة!» قالت العجوز، وقبّلت جبين الطفلة.

ماسة. هي طفلة إذن. تابعت بناظري الطمأنينة السائدة بين المرأتين، والطريقة التي تواصلتا بها بعدد قليل جدّا من الكلمات. إحداهما تعرف الأخرى؛ وعلى الأرجح أن العجوز جاءت إلى هنا عدّة مرات من قبل.

«لا يوجد في صدرك حليب؟» قالت العجوز باليونانية، وفي ردّ عليها ضغطت الأم على ثديِها براحة يدها وهزّت رأسها وقالت باليونانية أيضًا: «لا».

لاحظتُ مرّة أخرى الرجل الجالس على قاعدة التمثال. وضع غيتاره في حضنه: آلة موسيقية جميلة، تكاد تشبه العود، ولكنها ليست بعود. نقر الأوتارَ ومن ثمّ عزف لحنا قصيرا. فنجم عن ذلك هديرٌ من الأصوات، تناغم مفاجئ مثل انهمار المطر في يوم مشمس، يتردّد صداه برقّة من حجرة الغيتار الخشبية.

اجتاح عبوس وجه الرجل بينما توقّف فجأة عن العزف وتابع دوزنة غيتاره. بعد برهة وضع الغيتار على الأرض قرب قدميه ولفّ سيجارة. نهضت ووقفت قربه في ظلّ التمثال. ثمّة إحساس دافئ يكتنف وجه هذا الرجل، إحساس جذّاب، حتى في صمته.

«صباح الخير» قال بالفارسية، بصوت خفيض ومنغّم مثل موسيقاه، وأعطاني السيجارة التي كان قد لفّها قبيل لحظات.

فقلت بالعربية: «لا، شكرا لك، أنا لا أدخّن». وفي تلك اللحظة بدأنا كلانا نضحك على غرابة أحوالنا. ها نحن نجد أنفسنا في اليونان، واحدٌ يتكلّم العربية، والآخر يتكلّم الفارسية.

«أتتحدّث الإنجليزية؟» قلت.

أشرقَت عينا الرجل وقال: «نعم! لا أتحدّثها بصورة جيّدة جدّا، جدّا، ولكن نعم! حمدًا للآلهة أننا عثرنا على اللغة ذاتها!». ثمّةَ خفة دم حقيقية تكتنف هذا الرجل، فحديثه كالغناء.

«من أين أنت؟» قلت له.

«من أفغانستان، من خارج كابول. أنت من سوريا؟».

«نعم» قلت.

أظافر أصابعه طويلة، وعلى أنه لم يكن رجلًا جسيمًا، فثمّة إيحاء بالقوة في حركاته.

«أعجبني غيتارُك» أقول له.

«هذه الآلة الموسيقية اسمها الرَّبَاب. ومعناها (بوابة الروح)».

قال لي بعدئذ إنّ اسمه نديم.

بقيت جاثما على قاعدة التمثال قربه بينما أمسك الرّباب وبدأ العزف من جديد، عزف لحنا هادئا بطيئا انساب عبر الهواء بصورة أمواج خفيضة. نظرت بإمعان إلى عفراء وهي تستيقظ وتزيح اللحاف عن جسدها، متلمّسة ما حولها بيدها لترى إن كنت في مكاني، وعندما لم تجدني، تصلبت ملامحها ونادت عليّ، فمضيت إليها من فوري ولمست يدها ونظرت إليها إذ لان وجهها. سرّ شيء ما في داخلي لرؤية هذا الخوف فيها عندما ظنّت أنها فقدتني؛ لأن ذلك يعني أنها لا تزال تحبّني، وأنّها حتى وهي متقوقعة داخل ذاتها فإنّها لا تزال بحاجة لي. نزعت أغطية السندويشات التي تُرِكَت لنا وناولتها واحدة.

قالت بعد برهة: «نوري، من الذي يعزف هذه الموسيقى؟».

«رجل اسمه نديم».

«ما أجملَها!».

مع مرور الساعات ألهبت الموسيقى مشاعرنا، وعندما توقّف نديم

عن العزف وأخذ غفوة فتح غياب الموسيقى الباب فجأة لأصوات أخرى: غصينات تقرقع متكسِّرة في الغابة وهمهمات الأطفال وهمساتهم وهم يلعبون. لَكَم وددت أن أوقظه وأطلب منه أن يعزف موسيقاه إلى الأبد، بحيث لا أسمع صوتا آخر البتة سوى لحن الرّباب المثير للمشاعر إلى يوم مماتي. وإذا كانت أنجيليكي على صواب، وصحَّ ما قالته عن أننا لن نستطيع أن نغادر هذا المكان أبدا، فعندئذ سأموت وعفراء هنا صحبة ضواري الليل وأبطال معركة لا نعرفهم.

عندما غربت الشمس أُوقدت نار المخيّم وامتلأ المكان بالدخان ورائحة الخشب المحترق. فتجمَّع الناس حول دفئها فذكَّرني المشهد بفارماكونيسي، ولكنّ الناس هنا يختلفون عن الناس الذين رأيتهم في تلك الجزيرة. هنا بدا الأمر وكأننا نعيش جميعًا في بقعة الظلّ الأكثر عتمة في غيابة كسوف شمسي.

لا بل إنَّ عفراء كانت أكثر هدوءًا من المعتاد. حسبتها كانت تصغي إلى الأصوات القادمة من الغابة، حسبتها تستشعر الخطر الذي هناك، ولكنها لم تطرح عليّ أي أسئلة. بل جلست طوال الوقت متلفلفةً بلحاف سميك.

كان نديم قد ذهب لبعض الوقت ثمَّ عاد في وقت لاحق، متخذا مكانه المعتاد تحت التمثال. ولكنه لم يمسك ربابه، مع أني انتظرت الموسيقى؛ فحاجتي لها كانت كحاجتي للماء، فذهني ممتلئ على بكرة أبيه بالتصدُّعات.

كانت الأم ذات الحجاب الأزرق تحاول إرضاع طفلتها؛ بَيدَ أنّ

ماسة الصغيرة وضعت فمَها حول الحلمة وكانت تمصّ قليلًا ولكن بدا أنّه ما من حليب، فضغطت أمها على ثديها بيدها، مُحبطَةً، وقد اجتاح وجهها غضبٌ مشوبٌ بتورّد من وجنتَيها. عندها استسلمت ماسة وعادت إلى ما كانت عليه من فتور في الهمّة. بدأت الأم تبكي وكَفْكَفَت دموعها بظاهر يدها.

آنَ رأيت دموع الأم والسهولة التي انهمرت بها، فَطِنْت إلى أنّ عفراء لم تبكِ سامي. وباستثناء ذلك اليوم في حلب عندما اختبأنا في المخبأ في الحديقة، لم تذرف حتى ولو دمعة واحدة. لم تبكِ عندما مات سامي. وعوضا عن ذلك تيبّس وجهها وصار كالحجر.

جاء نديم وجلس قربي على اللحاف وحملق برهة في عفراء. تساءلت إذا كان قد انتبه إلى أنّ عينيه كانتا مثبتتين عليها، أو أنَّه كان مجرد تائه في بحر أفكاره. أيّا تكن الحالة، فقد نظرت إليه صارفا انتباهه.

«إذن، هلَّا ذكرّتني مرّة أخرى من أيّ البلاد أنت؟».

تغيَّرت ملامح وجه نديم فجأة ودبَّت فيه الحياة وهو يقول: «من كابول!».

«أتحبّ كابول؟».

«بالطبع. فهي موطني. كابول جميلة جدّا».

«ولمَ غادَرتها؟».

«لأنّ طالبان لا يروق لها أن نعزف الموسيقى هناك. فهم لا يحبّون الموسيقى». ولكن ثمَّة أسبابًا تتعدَّى ما قاله، يمكنني أن أحدس ذلك من الطريقة التي توقَّف فيها عن الحديث بغتة، فأمسك كوز صنوبر دونما سبب وتأمّله قبل أن يرميه في الغابة.

«أذلك سبب مغادرتك؟» قلت له.

راوده بعض التردُّد وكأنّه يمعن النظر في جدوى البوح بأسباب أخرى، وكأنّه يختبرني في الوقت ذاته. بعد مدة ليست بالطويلة، وبصوت خفيض بصورة متعمّدة، قال: «كنت أعمل في وزارة الدفاع. ثم هدَّدتني طالبان. فقلت لهم إنّي لا أستطيع قتل الناس. بل لا أستطيع حتى أن أقتل نملة؛ فما بالك بأن تتوقّع منّي قتل آدمي؟».

ثمَّ لاذ بالصمت مرة أخرى، وذلك كلّ ما جرى. فقد ألقمني بشذرات صغيرة من قصّة أكبر بكثير، قصة أطول بكثير. ومن ثم صمَتَ، ولكن ثمَّة شيئًا لا يبعث على الراحة في صمت هذا الرجل، ولذا فقد سررت عندما تكلَّم مرة أخرى، بذلك الصوت الغنائيّ الذي بدا الآن وكأنه يشتِّتُ انتباه صاحبه عن التفكير بأمر آخر. قال لي:

«أتعرف اسم هذا المتنزَّه؟».

«نعم، اسمه پيديون تو آريوس...».

«پيديون تعني (الساحة). أما آريوس فهو إله الحرب. عَشِقَ القتل والدم. أتعرف هذا؟ أخبرتني بذلك العجوز التي تحضر الطعام».

«لم أكن أعرف ذلك».

«عَشِقَ القتل والدم». كرَّر نديم هذه الكلمات ببطء، مشدِّدًا على كلّ كلمة منها، ثم أردف: «وتأمّل! لقد أنشؤوا متنزَّهًا يحمل اسمَه!» مدَّ ذراعَه، وراحة يده مفتوحة، بالطريقة التي مدَّ بها نِيل ذراعه عندما قدَّم لي ولعفراء غرفتنا المؤقَّتَة في المدرسة، فالتمعت الجروح المدماة النضرة على بشرة ساعد نديم الطرية مثل شرائط حمراء في ضوء النار. هبَّت الريح وتجمَّعت الغيوم وصارت العتمة حولنا أكثر وضوحًا، مرسلةً وعيدها بخنق ضوء النار. داهمني شعورٌ غريب بأنّه عليَّ أن أكون لطيفًا مع هذا الرجل.

«متى تعلَّمْتَ عزف الرَّبَاب؟» قلتُ له.

كان لسؤالي مفعولُ خلقِ ابتسامة عريضة على وجه نديم، فما كان منه إلَّا وانحنى إلى الأمام بعينين برَّاقتين. انتابني شعورٌ غريبٌ بأني أنظر إلى شخص يشحذ سكينًا. ثم ما لبث أن قال لي:

«اسمع قصتي. كان والدي موسيقيًا في كابول. موسيقيًا جيّدا جدًّا، ومشهورًا. كان ضارب طبلة». ضرب نديم بيديه على طبول غير مرئية وأردف: «لذا جلستُ أشاهده. كل يوم شاهدته يضرب على الطبلة، كنت أنظر وأستمع». لمس أذنه عن قصد، وأتبع ذلك بلمس طرف عينه وأضاف: «وذات يوم، عندما كنت في التاسعة أو الثامنة، طلب منه عمِّي المساعدة في الخارج وجلستُ ممسكًا بالطبلة وبدأت أضرب عليها. دخل والدي بعينين دهشتين وفم فاغر. اعترته صدمة كبيرة جدًّا! ثم قال لي: «يا نديم! كيف تعلّمت الضرب على الطبلة، يا ولدي؟». كيف تعلّمْتُ ضرب الطبلة؟! لأنّي راقبْتُه وهو يعزف. كنت

أراقبه وأصغي إليه طوال هذه السنين كلها. فكيف لا أتعلم العزف؟ قل لي أنت: كيف لا يمكن لي أن أتعلم وأنا أراقبه!».

وجدتُ نفسي تائهًا في القصة، وقد أسرَنِي صوتُ نديم الغنائي، وقد استغرقتُ في صور الصبي وهو يضرب الطبلة في أحد منازل كابول، ونسيتُ وهلةً السؤالَ الذي كنت قد طرحته عليه، السؤالَ الذي بقي بلا إجابة. ولكن نديم كان يطرق بقدمَيه مُحْدِثًا إيقاعًا صامتًا، سعيدًا مع نفسه. ثمَّ لفَّ سيجارةً وأشعلها، وعلى أنه عاد بجسده إلى الوراء، فقد بدا أن جسده استراح، بقيت عيناه تنظران بحدَّة. فقد أمعَنَتا التأمل في الناس، اخترقتا الظلال، ناظرتين منتظرتين، تمامًا مثل عيون الرجال الذين رأيتهم في الغابة.

غنَّت الجداجد غناءً متناغمًا، ومن ثم غرقت في الصمت لحظة وجيزة، أخذت استراحة، وكأنها كانت جسدًا واحدًا يتنفس وتوقف فجأة، قبل أن يصدح الصوت مجدّدًا، مصدرًا ضوضاءَ طنين بصورة دقَّات عنيفة فظَّة امتدّت بعيدا بعيدا وتردّد صدَاها في أعماق الغابة، وفي أعماق المجهول.

ذَرَعَتِ المكان مرة أخرى مجموعات من الرجال جيئة وذهابًا قرب الأشجار، بعضهم جالسون على مقاعد وهم يدخنون. ثمَّة أصوات مزاح وضحك الليلة. كان نديم يمسك سيجارة متَّقدَة دون أن يدخنها، ذراعه مستندة بأريحية على ساقه، فلم أستطع ردع نفسي مرة أخرى عن النظر إلى تلك الجروح، تلك الخطوط الحمراء الغائرة

في بشرة ساعديه الطرية، مثل آثار الخرمشة العنيفة التي تتسبَّبُ بها الحيوانات الضارية. أخرج هاتفه المحمول من جيبه وبدأ يكتب رسالة. انتظرْتُه حتى فَرَغ وسألتُه إذا كان في هاتفه اتصال بالإنترنت.

«نعم» قال.

«أيمكنني بعد إذنك أن أطَّلع على بريدي الإلكتروني من هاتفك؟».

دونما تردُّد، فتح نديم رمز قفل هاتفه وأعطاني إيَّاه. ومن ثم جلس هناك بهدوء وأشعل سيجارته.

مرَّة أخرى، وَصَلَتْنِي عبر البريد الإلكتروني رسائلُ من مصطفى.

15| 3| 2016

عزيزي نوري،

لم أتلقَّ منك رسائل منذ مدّة وأتمنَّى أن تكون قد نجحتَ في الوصول سالمًا إلى أثينا.

استغرقتُ بعض الوقت حتى اشتدَّ عودي. أنا أنتظر قرار منحي اللجوء وفي أثناء ذلك تطوّعتُ في جمعية نحَّالين في البلدة التي أعيش فيها. أقمتُ بعض وشائج الصداقة مع بعض الناس هنا، ولكنِّي نحَّالٌ بلا نحل. لا أحتاج سوى خلية نحل واحدة حتى أبدأ، ولذا فقد وضعتُ إعلانًا على الفيسبوك طالبًا فيه التبرُّع بخلية نحل ممّن لديه

إمكانية ذلك. وأنا أنتظر بحماسة أيّ استجابة للإعلان.

أتمنّى أن تطمئنني عن أخبارك قريبًا. إذ لا يمرّ يوم ولا أفكّر فيه بك وبعفراء.

مصطفى

* * *

25| 3/ 2016

عزيزي نوري،

ردّت على الإعلان الذي نشرتُهُ امرأةٌ من بلدة لا تبعد كثيرًا عن هنا! ولم تتبرّع بخلية نحل واحدة وإنما بمستعمرة كاملة من النحل البريطاني الأسود، الذي كان يعتقد حتّى تاريخ قريب أنّه انقرض. إنّ ذلك مثل كنز! وأخطّط لتقسيم المستعمرة إلى سبعةِ أقسام. فهدفي يتمثّلُ في التعاون مع أرباب مهنة النِحَالة لتحسين السلالة. فعادة ما يربّي النحّالون في بريطانيا نحلَ عسلِ إيطالي مستورد من نيوزيلاندا، ولكنّ النحل البريطاني الأسود الأصلي أكثر قدرة على تحمُّل الطقس المجنون هنا. فثمّة حالات متكرّرة عن انهيار المستعمرات؛ لأنّ النحل الأوربّي لا يستطيع الصمود بصورة حسنة. وأظنّ أنّ حلّ هذه المشكلة ربّما يكمن في النحل البريطاني الأسود، وأعرف سلفًا أن هناك من يوافقني هذا الرأي. يوجد يا نوري في هذي البلاد حقولٌ من بزر السلجم وكمّيات هائلة من الخلنج والخزامى! إنّ هذا البلد مليء بالزهور لأنّ المطرَ يهطلُ بكمّيات كبيرة جدًّا. زد على ذلك أنّ

الخضرة تحيط بكَ من كلّ حدب وصوب. بلاد خضراء خضرة تفوق خيالَك. فأينما وجدتَ النحل تجد الزهور، وأينما وجدتَ الزهور تجد حياة جديدةً وأملًا جديدًا.

أوتتذكر الحقول المحيطة بالمناحل في حلب؟ حقولًا جميلة كانت، أليس كذلك يا نوري؟ أتذكَّرُ أحيانًا اليوم الذي شبَّ فيه الحريقُ ولكنِّي أحاول طرد هذه الذكريات من رأسي. فلا أريدُ أن أضيعَ في تلك العتمة.

آمل أن أسمع أخبارك قريبًا، فهناك أعمال نقوم بها معًا! أنا بانتظارك! والنحل بانتظارك أيضًا!

مصطفى

«جعلتْك الرسالةُ تبتسم» قال نديم.

كنت قد نسيت لحظات أين أنا. رفعتُ بصري لأرى الشمس الأثينية تسطع عبر الأشجار، ثم قلت:

«ابن خالتي في إنجلترا. وهو يحثُّني على اللحاق به إلى هناك».

قال نديم، مقهقهًا:

«إنّها رحلة شاقّة. إنّه محظوظ لأنّه استطاع الوصول إلى هناك».

خيَّمَ صمتٌ فيما بيننا برهةً... لم تفارق مخيّلتي صور حقول

بزر السلجم والكمّيات الهائلة من الخلنج والخزامى. أرى كلّ تلك الصور تموج في فكري صافيةً ومتألقة مثل لوحة من لوحات عفراء. ولكنّ أصوات الجداجد اقتحمت عليَّ أفكاري، فقلت:

«يبدو أنّ الغابة تمتدّ إلى اللانهاية».

«لا. ليست كذلك. فالمدينة تحيط بها من كلّ الجهات. تحيط بها الحضارة». ابتسم نديم عندئذ ابتسامة عريضة، ابتسامةَ حُبُور، فانبثق وميض مفاجئ لشخصية مختلفة، نوعٌ من الاستهزاء أو الخبث الذي يصدر عن شخص يعرف أشياءَ أكثرَ ممّا يبوح به. ثمَّ قلت له:

«أصار لك هنا مدّة طويلة؟».

«نعم». ولكن هذه الكلمة بدت جوابا نهائيا، لم أعرف حتى بعد ذلك ما الذي تعنيه عبارة (مدة طويلة). أهي أسابيع أم شهور أم سنوات أم قرون مثل القرون التي قضاها أبطال التراث هؤلاء؛ الأبطال المنحوتون في الصخر؟

آنئذ فحسب تنبَّهتُ إلى أمر غريب، فلو أنّي أشحتُ بنظري بعيدًا عمَّا رأيتُ لما تنبَّهتُ له لأنّه حصل بسرعة كبيرة جدًّا. لقد حصل أن التفتَ أحدُ الرجال الجالسين على مقعد قريب برأسه، وهو جالس وظهره باتجاهنا، ونظر إلينا نظرةً مشوبةً بالحذر، والتقت عيناه عيني نديم. تبع ذلك إقرارٌ بأن أحدهما يعرف الآخر، إيماءة سريعة، تلاها تغيُّرٌ مفاجئ اعترى حركات نديم، توترٌ، انتفاضٌ في الأصابع والبَشَرَة المحيطة بالعينين. جعلني ذلك أنتبه أكثر. انتظر نديم برهةً، طارقًا الأرض بقدميه محدثًا إيقاعه السرّي، ثم نهض في آخر المطاف وأخذ

قنينة ماء من الموضع الذي كان يجلس فيه قبلًا، صبَّ بعض الماء على يديه ومررهما عبر شعره. لم يكن هذا بأمر غير اعتياديّ بدرجة كبيرة، بيد أن ما حصل بعد ذلك بدا أشد الأمور غرابة.

إذ بينما كان لا يزال يمرِّر يديه عبر شعره الرطب، اقترب نديم من صبيين مراهقين، توأمين، وصلا إلى هنا في اليوم الفائت. كانا جالسَين على لحاف تحت شجرة، ثيابهما رثة، وبشرتهما قذرة؛ كانا جديدين هنا ومذعورين، ولكن كان هناك مرح صبياني بينهما؛ إذ ما إنْ يقول أحدهما شيئًا إلّا ويضحك الآخر ويشرع أحدهما بلكز الآخر. تابعتُ المشهد وقد جلس نديم قربهما على اللحاف، معرِّفًا بنفسه، مصافحًا إياهما.

في أثناء ذلك، كان الرجل الجالس تحت الشجرة، الرجل الذي أومأ لنديم، قد ذهب.

بعدئذ، أدخل نديم يده في جيب بنطاله الجينز وأخرج منه بعض المال. أعطى التوأمين أربعين يورو لكل واحد منهما، من خلال ما رأيت. هذا مبلغ ضخم لصبيين كانا يقتاتان على الأرجح على الطعام الذي ينبشاه من حاويات القمامة.

«نوري، ماذا تفعل؟» قالت عفراء، وهي تشدُّ انتباهي عن متابعتهما.

«أنظرُ فقط».

«تنظر إلى مَنْ؟».

«لا يروق لي هذا المكان» قلتُ لها.

«وكذلك أنا».

«شيء ما غير طبيعي».

«أعرف». هذه الكلمات فقط، وهي تنطلق من فم زوجتي وعقلها، هدَّأتْ من روعي، فأمسكتُ يدها، ضغطتُ عليها، ثم قبَّلتُها. ومع كلّ قبلة قلت لها: «أحبّك. أحبّك يا عفراء. أحبّك، أحبّك».

حكيتُ لها عن مصطفى الذي وصل إنجلترا، وعمَّا كتبه لي عن خلية نحله وعن النحل البريطاني الأسود، فاضطَجَعَتْ على ظهرها وهي تصغي إليَّ ورأيتُ للمرة الأولى ابتسامةً صغيرة ترتسم على شفتيها.

«ما أنواع الزهور الموجودة هناك؟».

«هناك حقول من الخزامى والخلنج».

عندها لاذت بالصمت برهة، ثم قالت: «أظنّ أنّ النحل يشبهنا. فالنحل كائنات مهيضة الجناح مثلنا. ولكن ثمَّة أيضًا بشرًا من طينة مصطفى. ثمَّة بشرٌ من طينته في العالم وهؤلاء يبعثون الحياة ولا يتسببون بالموت». لاذت بالصمت مرة أخرى، ممعنة التفكير، ومن ثمَّ همَسَتْ قائلة: «سنصل إلى هناك، أليس كذلك يا نوري؟».

«بالطبع سنصل إلى هناك» قلتُ، مع أنّ الشكّ ساورني لحظتئذ في مدى قدرتنا على بلوغ مرادِنا.

حاولتُ تلك الليلة أن أتخيَّل الجداجدَ وقد صارت نحلًا. فأنا أسمع صوتَها حولي من كلّ الجهات. الهواء والسماء والأشجار ملآنة بالنحل؛ نحل بلونِ الشمس. فطنتُ إلى أنني لم أُجِبْ رسائل مصطفى؛ فثمة أمرٌ ما يخصّ نديم شتَّتَ انتباهي، أمرٌ لا أستطيع توضيحه، وقد صرف انتباهي بعيدًا عمّا كنت بحاجة إلى فعله. غنَّت الجداجد، فأزحتُ صوتها بعيدًا وتخيَّلتُ النحل. خطَرَت أمّي في بالي مجدّدًا، وخطرت في بالي مروحتها الحريرية الحمراء. يوانفِن. القَدَر. قوة تشدُّ شخصين أحدهما صوب الآخر.

أمّي هي التي شدَّت من أزري عندما أردتُ أن أصيرَ نحّالًا. فخيبة أمل أبي جعلته ينقلب على عقبيه؛ وقد حدث ذلك في الأسابيع التي أعقبت إعلاني عدم رغبتي العمل في محلّ القماش، وأنّي لن أرث عنه تجارة العائلة، وقد بدا أنّه انكمش على نفسه بكثير. كنّا نجلس في المطبخ بعد تناول العشاء. كان ذلك في حزيران، والجوُّ حارّ جدًّا سلفًا، وكان يشرب العيران بالملح والنعناع. مكعبات الثلج تصلصل في الكأس. كانت أمي تُفَرِّغُ الطعام البائت في سلة المهملات. بدا وكأنه عرف بأنَّ في جَعبتي أمرًا أريد قوله ولن يروق له، لأنه استمرَّ ينظر إلى من فوق طرف الكأس، وقد ارتسم عبوسٌ على وجهه، خاتم زواجه الذهبي يلتمع في ضوء الشمس الغاربة. وهو أصلًا رجل ضئيل الجسد، ليس فيه سوى الجلد والعظم، براجم أصابعه بارزة وجوزة حلقومه بارزة وتتحرَّكُ بصورة واضحة أثناء كلامه، ولكنّ حضوره كان حضورًا طاغيًا، فغالبًا ما ملأ صمتُه وتأمُّله أرجاء المكان.

«إذن؟» قال.

«إذن؟» أجبته.

«أريدك أن تذهب إلى بائع الجملة باكرًا صباح الغد؛ فنحن بحاجة إلى المزيد من الحرير الأصفر الموشّى برسوم الجواهر».

أومأتُ برأسي موافقًا.

«ثم عليك أن تأتيَ إلى المحلّ وسأعلِّمُكَ كيفية تفصيل الستائر، يمكنك أن تشاهدَني في المرَّة الأولى».

أومأتُ برأسي موافقًا مرَّة أخرى. شرب كأس العيران برشفة واحدة ورفع الكأس حتّى تعاود أمّي مَلْئَهَا له. ولكنَّهَا كانت قد أدارتْ ظهرَها لنا في هذه اللحظة. فقلت له:

«سأفعل ما تريده منّي مدة شهر آخر».

أنزَل الكأس، التي لا تزال فارغة، على الطاولة.

«وماذا سيحدث بعد هذا الشهر؟». كان صوته مثقلًا بغضب يشوبُه الهمُّ.

«سأصيرُ نحّالًا». قلتُ ذلك وكأنّها حقيقة واقعة، واضعا يديّ فوق الطاولة.

«إذن، فأنتَ تعطيني مهلة مدّتها شهر واحد وبعدها ستترك العمل معي؟».

أومأتُ برأسي موافقًا.

«وكأنّك لست من صُلبِي».

هذه المرّة لم أومئ برأسي موافقًا.

نظر عبر النافذة، أشعة الشمس تتقد في عينيه، فجعلتهما بلون العسل.

«وماذا تعرف عن النِّحَالة؟ أين ستعمل؟ وكيف ستكسب قوت يومك؟».

«علَّمني مصطفى كيفـ...».

«ها! مصطفى. ذلك الفتى أهوج. أعرف أنه سيضلّ بك الطريق».

«لم يضل بي أيّ طريق. بل علّمني».

نخر ممتعضًا.

«سوف ننشئ خلايا النحل معًا».

نَخْرَةٌ أخرى.

«وسنبدأ تجارة العسل».

خيَّم الصمتُ هذه المرَّة... صمت مديد، وأطرق بصره، فشعرت أول مرة بخيبته الصامتة، وبالندم العميق يعتصر قلبي، ندم سيسكنني في قادمات السنين. بينما غسلت أمّي الصحون كانت تلتفت بين الفينة والأخرى لتنظر إليّ، وتومئ لي برأسها، لكي تحثّني على الكلام، ولكنّي لم أستطع أن أضيف أيّ كلمة بعد الذي قيل، ولم يتكلّم أبي

مرة أخرى إلا بعد مرور ربع ساعة حينما قال:

«إذن سيموت المحلّ بموتي».

كانت تلك الجملة آخر ما قاله على الإطلاق بخصوص تلك المسألة. بحسب رأيه، فقد اتّخَذت قراري ولم يكن ثمّة أيّ أمر إضافي لمناقشته. ولكن في الأيام والأسابيع التي تلت ذلك رأيتُه يتضاءل جسدا، ويصير أقلّ إلحاحا، وأقلّ همّة في عمله، وهو يقصّ القماش أو يخيطه أو يقيسه. وكأنّه فقد أُوارَ الحماسة التي كانت تسيِّره. وفكَّرت في تلك اللحظة، وأنا مستلق هناك ناظرا إلى السماء الأثينية، بأنّني إذا كنت قد ضحّيت بسعادة أبي في سبيل أن أصير نحّالا، فقد اضطررت للبحث عن طريقة أصل بها إلى مصطفى. فقد أوجَدَ لي كياني عبر تلك السنين التي مرت، وأخذ بيدي خارج ذلك المحلّ الكئيب إلى الحقول البرية على تخوم الصحراء، والآن عليّ أن أفي بوعدي له. سأجد سبيلًا للوصول إلى إنجلترا.

استيقظت في منتصف الليل. صارت نار المخيم مجرَّد وميض مرتعش الآن. الأطفال نائمون. ثمّة طفل يبكي؛ وكأنّ الصوت آت من أعماق الغابة، ولكنّ ذلك غير ممكن. كانت أنجيليكي متدثرة بلحاف، مستندة إلى شجرة بجانبنا. عيناها مفتوحتان في أقصى اتّساع لهما، يداها في حضنها، ثدياها ما يزالان ينزّان حليبًا. تساءلتُ ما أصلها وفصلها، وأين أسرتها، ومن تَرَكَت وراءها. أردت سؤالها مرة أخرى: أنجيليكي، لماذا غادرت موطنك؟ وما اسمك الحقيقي؟ وأين طفلتك؟

أمعنت التفكير بهذه الأسئلة هنا في الغابة التي ينيرها القمر، يحيط بي صرير الجداجد. الآن ثمّة رقّة تكتنف العتمة، مثل الليالي في قصص ألف ليلة وليلة، ذلك النوع من القصص الذي اعتادت أمي أن تحكيها لي في الأيام التي كانت تنظر فيها من النافذة إلى بلد يزخر بقبضة السلطة والفساد والقمع، وكنت أرى إحباطها، وغضبها، وأحيانًا خوفها وهي تقصُّ لي الحكاية.

ثمَّة شيء يكتنف حركة الزمن في تلك القصص التي كنت أحبّها وأخافها في الآن ذاته. فليلة إثر ليلة، خرجت الوحوش من البحر. ليلة إثر ليلة، رويت القصص لتأجيل قطع رأس. قُسِّمَت الحيوات إلى ليالٍ. وقت الليل كان مليئًا بصرخات أولئك الذين دكَّ الحزن حصونهم.

نقَّلَت أنجيليكي يديها في حضنها. الطفلة لا تزال تبكي، ولكني لم أستطع تحديد المصدر الذي كان البكاء يأتي منه. لم أرد النوم مرة أخرى لأن هذا المكان ليس آمنًا. ثمَّة خطب جلل يكتنفه. تذكَّرْت كيف كان ثديا عفراء ينزَّان حليبا عندما يبكي سامي. سماع صوت سامي، شمُّ رائحته، الجلوس في الكرسي حيث اعتادت أن ترضعه، جعل ثديي عفراء يفرزان الحليب، وكأنَّ هناك دائمًا حبلًا سريًا غيرَ مرئي بينهما. لقد تواصلا دون كلمات من الموضع الأكثر بدائية في الروح. تذكَّرتها وهي تضحك على هذا، وهي تقول إنها تشعر بأنها حيوان، وكيف أدركت بأننا كنّا أقلّ إنسانية في زمننا، زمن الحب العظيم، زمن الخوف العظيم. في أيام الأمومة الأولى تلك لم ترسم، كانت مرهقة وغارقة حتى شحمة أذنيها في شؤون سامي. وعندما عادت لاحقًا إلى الرسم على القماش مرة أخرى في الساعات التي

كان فيها سامي نائمًا، كانت تلك المناظر الطبيعية التي رسَمتها أجمل المناظر، وأكثرها حيوية، العتمة فيها ذات عمق أكبر، والضوء ذو بريق أشدّ إنارة.

عندما توقّف البكاء، أغمضت أنجيليكي عينيها إغماضة كاملة. كنت أفكِّر الآن بنديم وبالطريقة التي دسَّ بها النقود في يدي ذَانِك الصبيَّان. ثمّ تحوّلت أفكاري صوب محمّد، فقد صرت الآن أكثر خوفا عليه بكثير مما كنت قبلًا. ومن ثَمَّ، وتلك أسوأ فكرة راودتني، تذكَّرْت سامي. تذكَّرت أولًا ابتسامته. ومن ثم اللحظة التي سقط فيها الضوء من عينيه وتحولتا إلى بلُّور. لم أرغب في تذكر سامي. لم أرغب البتة في تذكره. رفعت بصري صوب السماء الفسيحة والنجوم وقد تشكَّلت على شكل صُوَر لم أستطع أن أطردها من فكري.

ليلة إثر ليلة، خرجت الذئاب البشرية من الغابة. وتوثَّقت صداقة نديم بالصبيين رويدًا رويدًا، ومع مرور الليالي اختفى الصبيان وعاودا الظهور مرة أخرى، في الموضع ذاته، في كلّ مرة يبدوان مضطربين أكثر من السابق. ولكنهما ينتعلان حذاءين جديدين، لا بل إنَّ معهما هاتفًا جديدًا، ومازح أحدهما الآخر وتقاتلا وضحكا، وتشبَّثَ أحدهما بالآخر، خصوصًا في ساعات الصباح الأولى عند عودتهما من حيث كانا. ومن ثم ناما، نومًا متأخرًا حتى الظهر، وحتى عندما نزلت أشعة الشمس عليهما، بقي جسداهما دون حراك، وعقلاهما ذاهلين.

ليلة إثر ليلة، نامت أنجيليكي مستندة إلى الشجرة بجانبنا. أحسبها أحست بالأمان قربنا. تساءلتُ إذا كانت لا تزال تذهب إلى المدرسة

العتيقة. تبدو المدرسة بعيدة جدّا الآن، من زمن موغل في القدم، مع أنه لم يمض على مجيئنا إلى هذا المكان على الأرجح أسبوع واحد فقط أو ربَّمَا أسبوعان.

كنت قد أعطيت عفراء أقلام التلوين وكرّاسة الرسم، ولكنّها ما كانت لتأخذها هذه المرّة؛ بل نحَّتْهما عنها، حتى في نومها. ذهنُها متعبٌ ومنهك. أصغَت إلى الأصوات حولها، واستجابت إلى لعب الأطفال وبكائهم بتعابير ارتسمت على وجهها. كانت خائفة عليهم. سألتني أحيانًا عمَّن كان يختبئ في الغابة، فقلت لها إنّي لا أعرف.

في بعض الأيام حزم الناس أغراضهم القليلة جدًّا وغادروا، رغم أني لا أعرف بتاتًا المكان الذي ذهبوا إليه. عندما كنَّا في ليروس، وقع الاختيار على من سيغادر بحسب بلادهم الأصلية. ثمَّة ترتيب لذلك. فاللاجئون من سوريا لهم الأولوية؛ ذلك ما قيل لنا. أما اللاجئون من أفغانستان والقارة الإفريقية فاضطروا إلى الانتظار مدة أطول أو ربما إلى الأبد. ولكن هنا في المتنزَّه بدا وكأنَّ الجميع منسيُّون. في بعض الأيام وصل أشخاص جدد، يقودهم موظف منظمة إغاثية غير حكومية حاملًا لحافات جديدة. بالغون وأطفال بعيون ذاهلة وشعر اكتسحه ماء البحر.



10

آخُذُ عفراء إلى الطبيب العام حسب موعدها المقرَّر معه. العيادة كبيرة وفيها طبيب يتكلَّم العربية. الدكتور فاروق، رجل قصير، ربلٌ، وربَّمَا يقارب عمره الخمسين. يضع نظَّارته على الطاولة أمامه بجانب لوحة برونزية كتب عليها اسمه، وقد التمعت عيناه بسبب سقوط ضوء شاشة الحاسوب عليهما. يقول إنَّه يريد أن يسجِّل بعض التفاصيل والاطِّلاع على تاريخ عفراء المرضي قبل أن يفحصها، ثمَّ يسألها عدة أسئلة عن طبيعة الألم في عينيها. هل الألم حاد أم خفيف؟ أيوجد ألم في العينين كلتيهما؟ هل تعانين من حالات صداع؟ هل ترين أضواءَ ساطعة؟ تجيب عفراء على أسئلته، ومن ثمّ يقرّب كرسيًا ويجلس بجانبها. يقيسُ ضغط دمها وينصت إلى قلبها بسمَّاعة طبية ويسلط أخيرًا ضوءًا في عينيها كلتيهما. العين اليمنى أولًا، ويتوقَّفُ هناك لحظةً، ثم اليسرى، متوقّفًا مرّة أخرى، ومن ثم يعاود تسليط الضوء على العين اليمنى. ويكرِّر هذا الإجراء بضع مرات إضافية ومن ثم يجلس هناك مراقبا إيَّاها برهة، وكأنّه في حالة تأمُّل أو اضطراب.

«هل قلت إنَّك لا تستطيعين رؤية أي شيء على الإطلاق؟».

«نعم» تقول له.

يسلِّط الضوء داخل عينيها مرَّة أخرى ويقول: «أيمكنني أن أطلب منك أن تقولي لي إذا كنت ترين شيئًا الآن؟».

«لا» تقول، وهي لا تزال جاثمة دون حراك.

«أيمكنكِ أن تلاحظي أيَّ تغيُّر؟ أيَّ ظلّ أو بعض الحركة أو الضوء؟».

«لا، لا شيء على الإطلاق».

أسمع ارتعاشةً في صوتها، تتوتَّر، وربَّما تنبَّه الطبيب إلى ذلك؛ لأنَّه يضع مصباح الفحص من يده ولا يطرح مزيدًا من الأسئلة. يجلسُ مجدَّدًا إلى مكتبه، ويحكُّ جانب وجهه، ثم يقول:

«يا سيِّدة عفراء إبراهيم، أيمكنكِ أن تشرحي لي كيف صرتِ كفيفة؟».

«بسبب قنبلة» تقول.

«أيمكنك أن توضحي لي قليلًا أكثر كيف حصل ذلك؟».

تتحرَّكُ عفراء في كرسيِّها، وهي تدوِّر البِلْيَةَ بين أصابعها وتقول:

«كان ابني سامي يلعبُ في الحديقة. تركتُه يلعب هناك تحت الشجرة، ولكنِّي كنت أراقبه من النافذة؛ فالقنابل لم تتساقط منذ يومين وحسبت أن الأمر سيكون على ما يرام. فهو طفل، وأراد اللعب في الحديقة مع أصدقائه، ولكن لم يكن قد بقي أيُّ أطفال. إذ لم يستطع البقاء محبوسًا في البيت طوال الوقت، فقد كان البيت مثل سجن له.

ارتدى قميصَه الأثيرَ على نفسه وسرواله الجينزي القصير وسألني إذا كان بإمكانه اللعب في الحديقة، وعندما نظرتُ في عينيه لم أستطع الرفض، لأنّه صبيّ، يا دكتور فاروق، صبيٌّ أراد أن يلعب». بات صوتُ عفراء قويا وثابتا.

«مفهوم. أرجوكِ تابعي حديثك».

«سمعتُ أولًا صفيرًا في السماء، فركضتُ إلى الخارج حتّى أناديَه». توقَّفُ عن الكلام وتشهق بحدَّة وكأنَّها خرجت قبيل لحظات إلى السطح من تحت الماء. ليتها تتوقَّفُ عن الكلام الآن. «وعندما وصلتُ البابَ، سمعتُ صوت انفجار هائل ثم صدَر ضوءٌ ساطعٌ في الجزء الخلفي من الحديقة، أنا متأكِّدة من ذلك، ليس قرب سامي بالضبط، ولكنّ قوَّةَ الانفجار كانت شديدة. حتى إنّ السماء انشقّت من شدّة الصوت المهولة».

أسمع صوت الكراسي وهي تتحرَّك في الغرف الأخرى، وكذا ضحكات طفل.

«وماذا حدث بعد ذلك؟».

«لا أعرف. وجدتني أحمل سامي بين ذراعيّ، وكان زوجي بجانبي لأنّي استطعت سماع صوته، ولكنّي لم أستطع رؤية أي شيء على الإطلاق».

«وما هو آخر شيء رأيته؟».

«عينا سامي. كانتا تتطلَّعان إلى السماء».

تبدأ عفراء البكاء بطريقة لم أرها تبكي فيها قطّ، إذ إنّها تنحني إلى الأمام وتنحَب، فينهض الطبيب من وراء مكتبه ويجلس قربها، فأشعرُ بالتوهان، وأنّ ثمّة صحراءً تزداد اتساعًا بيني وبينهما. أرى الطبيب يعطيها منديلًا، ومن ثم يعطيها بعض الماء، وأنا أرى جسد عفراء منكمشًا على نفسه، ولكني لا أستطيع سماعها، والطبيب يقول كلمات ما، كلمات لطيفة، كلمات مواسية، ولكن قلبي يدق بصوت مرتفع جدّا يمنعني من سماع أي صوت من الخارج وأشعر بأني بعيد جدّا عنهما. صوته أعلى الآن وأنا أحاول التركيز. يجلس إلى مكتبه واضعًا نظارته، ناظرًا مباشرة إليّ. يمكنني القول إنّه قال شيئا لم أسمعه. ومن ثمَّ ينظر إلى عفراء.

«سيِّدة عفراء، إنّ حَدَقتي عينيك تستجيبان للضوء، وهما تتوسّعان وتتضيَّقان بالضبط وفق الطريقة التي أتوقّعها لهما كما لو كنت تستطيعين الرؤية».

«ماذا يعني ذلك؟» تقول له.

«لستُ متأكدا الآن. فأنت بحاجة لإجراء تصوير بالأشعة السينية. هناك احتمال أن تكون قوة الانفجار أو الضوء الساطع قد ألحق الضرر بالشبكية بطريقة ما، ولكن من الممكن أيضا بأن العمى الذي أصبت به ما هو سوى نتيجة لصدمة شديدة؛ إذ يمكن أحيانا لأجسادنا أن تتَّخذَ ردَّ فعل معيَّن عندما نواجه أشياء يشق علينا كثيرا تحملها. لقد رأيتِ ابنك يموت يا سيِّدة عفراء، وربما اضطر عضو من أعضاء جسدك لأن يخبو. يشبه ذلك بطريقة ما حالة الإغماء التي نُصابُ بها عند الصدمة.

لا أستطيع أن أعطيك الخبر اليقين. سنحصل على الإجابة فقط بعد أن تخضعي لمزيد من الفحوصات». في تلك اللحظة الوجيزة، اللحظة التي فرغ فيها من كلامه بالضبط، ها هو يبدو أصغر حجما، يداه مشبوكتان، وعيناه تنظران بسرعة بين الفينة والأخرى إلى يسار الغرفة صوب صورة موضوعة على خزانة، صورة فتاة جميلة في العشرينيات من عمرها تعتمر قبّعة وترتدي ثوب تخرّج. تتلاقى نظراتنا فيشيح ببصره بعيدا.

ثم يكتب كتابة مخربشة على ورقة ويقول: «وكيف حالك يا سيّد نوري؟».

«كل شيء على ما يرام».

ألاحظ بطرف عيني أن عفراء تستقيم بظهرها وتقول:

«في الواقع يا دكتور فاروق، أظنّ أنّ زوجي ليس على ما يرام».

«ما المشكلة التي تحسبين أنّه يعاني منها؟» ينظر إلى عفراء ثم إليَّ، فأقول:

«لا شيء سوى أنّي أعاني بعض الشيء من قلّة النوم، إذ أجد صعوبة في الخلود إلى النوم».

ها أنا أرى عفراء تهزّ رأسها وتقول: «لا، الأمر أكثر من ذلك...».

«لا، أنا بخير!».

«أيمكنك أن توضحي لي الأمر أكثر يا سيّدة عفراء؟».

«أثمّة أحد يسمعني؟!».

تفكّر برهة، وهي تقلِّب الأمر في رأسها، ثم تقول: «لا أستطيع أن أوضح ما هي المشكلة يا دكتور فاروق، ولكني أعرف أن هناك خطبا ما. فهو ليس زوجي الذي أعرفه».

ينظر الدكتور فاروق إليّ بصورة مباشرة الآن، فأضحك قائلا: «صدقًا يا عفراء، لا أعاني سوى الحرمان من النوم، هذا كلّ ما في الأمر. إذ ينتهي بي الحال وأنا متعبٌ جدّا حتى إني أنام في شتَّى الأماكن المضحكة». لا يبدو أن لضحكتي أيَّ أثر على أيّ منهما.

«أماكن مثل ماذا، على سبيل المثال؟». فتقول عفراء:

«خزانة الملابس والحديقة».

يقطِّب الطبيب عابسا الآن وأستطيع أن أرى أنه يطيل التفكّر في الأمر.

«أهناك أيّ شيء آخر غير طبيعي؟».

كلاهما يتجاهلني. أجول ببصري من الطبيب إلى عفراء. فتشيح ببصرها عنّي سريعا.

«لقد تغيَّر في إسطنبول. فهو...». تقول عفراء متردّدة.

«ما به...؟».

«إنه يكلِّم نفسه بصوت مرتفع، بل بالأحرى يتكلّم مع شخص غير موجود».

«دكتور فاروق، سأكون بحقّ ممتنا لك إذا وصفت لي بعض الحبوب المنوّمة عساها تساعدني في أن أرتاح، وحالما أرتاح فإني لن أنام على حين غرة في خزانة الثياب مرّة أخرى». أقول ذلك مبتسما ابتسامة عريضة تتشقق معها أشداقي.

«إني قلق بخصوص ما تقوله زوجتك يا سيّد نوري».

أضحك. «ماذا؟ لا! المسألة فحسب أن رأسي محشو بالعديد من الأمور. ذكريات لا أكثر ولا أقل. جملة من الأشياء التي ينبغي لي فعلها. وما شابه ذلك. المسألة لا قيمة لها!».

«هل عانيت مؤخّرا من أيّ ارتجاعات في الذاكرة يا سيّد نوري؟».

«ماذا تعني؟».

«هل جاءتك أي صور متكرّرة أو تكدّر النفس؟».

«لا، على الإطلاق».

«هل أُصِبت برجفة أو غثيان أو تعرّق؟».

«لا».

«وكيف تركيزك؟».

«جيّد».

«أتحسّ بالخَدَر، أتحسّ وكأنّك فقدتَ قدرتك على الإحساس بالمشاعر كالألم أو الفرح؟».

«لا يا دكتور. شكرًا لاهتمامك، ولكني بخير».

الطبيب يسترخي في كرسيه الآن، تساوره الشكوك أكثر من قبل. امتقع لون وجه عفراء واسودَّت عيناها، فيداهمني شعورٌ عظيم بالحزن وأنا أنظر إلى وجهها وهي جالسة هناك وقد بدت مهمومة مغمومة.

الطبيب غير مقتنع، ومع ذلك فقد انتهى وقت المعاينة وها هو يكتب وصفة تتضمن حبوبا منوِّمة، حبوبا شديدة التأثير، ويطلب منّي أن أعود ليفحصني مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع.

في عصر ذلك اليوم لا تأتي عفراء إلى غرفة الجلوس. بل تجلس على حافّة السرير مدة طويلة.

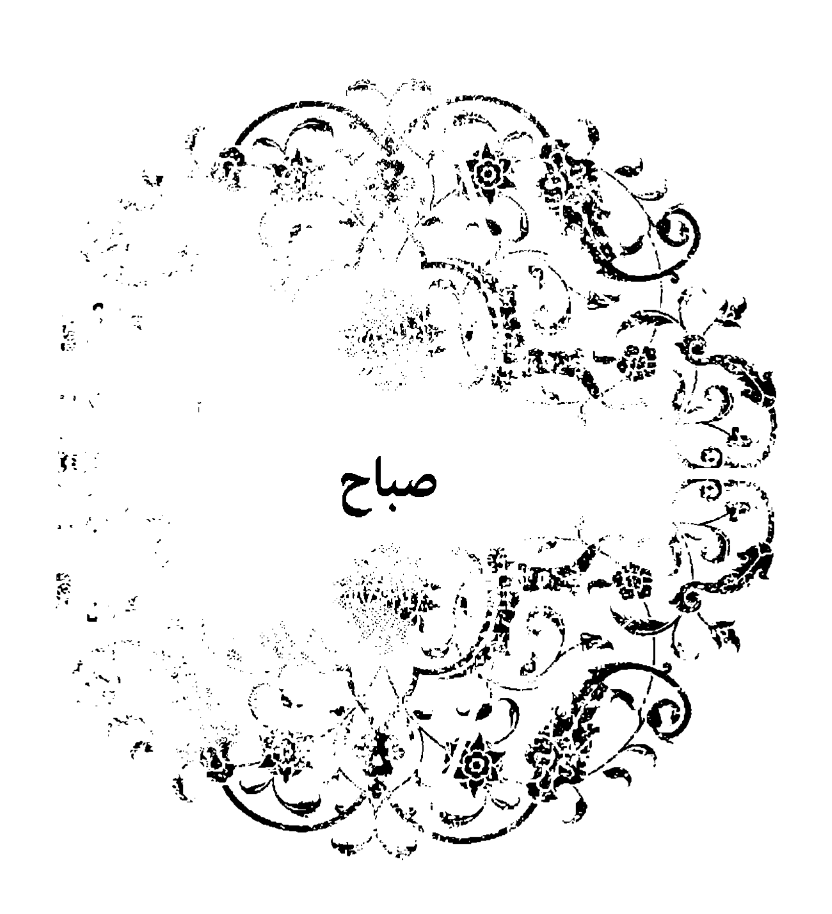
تقول هامسة: «لم تكن القنبلة السبب الذي جعلني كفيفة. بل سبب ذلك أني رأيت سامي يموت. وفي تلك اللحظة صار كلّ شيء أسود».

لا أعرف ماذا أقول لها، ولكنّي أجلس بجانبها مدة ربّما تصل إلى ساعة أو يزيد دون أن يكلّم أحدنا الآخر.

عبر النافذة أنظر إلى السماء تبدّل ألوانها، والسحب والطيور تتحرّك عبرها.

لا بل إننا حتّى لا نتحرَّك من المكان الذي نحن فيه للحصول على أيّ شيء نأكله. فعادة ما تحضر صاحبة المنزل قِدْرًا من المرق

أو الحساء من منزلها، حاملة إيَّاه بقفازات الفرن عبر مدخل السيّارات الخاصّ بالمنزل، طارقة الباب بمرفقها، ثم تضعه في منتصف مائدة الطعام حتى نأكل منه. أنا متأكدٌ أن الجميع أكلوا سلفًا، وأنّ ذلك حصل كله دون أن ألاحظ منه شيئًا. أستطيع سماع وقعَ أقدام وأصوات وهمهمات التلفاز في غرفة الجلوس، وأبوابًا تفتح وتغلق، وغليان غلاية الماء، وصوت السيفون في الحمام، وماء يجري. تصير السماء أشدُّ سوادًا وأرى القمر، أراه هلالًا خلف ضباب السحب. أحيانًا أتوقّع محمَّدًا، ولكنّه لا يأتي. أمضي إلى الكرسي ذي المسندين وأنتظر الـ



صباح

اليوم الخامس عشر، وقفت المرأة ذات الحجاب الأزرق فجأة، وماسة بين ذراعيها، وجرت إلى الموضع الذي كانت فيه السيِّدة العجوز ترعى شؤون طفلة صغيرة أخرى. أمسكَتِ العجوزَ من كتفيها. في البدء، حسبتُ أنّ أمرًا سيّئًا قد حدث، لذا وثبتُ واقفًا على قدمي متأهبًا. ولكنِّي عندئذ رأيتُ الأمَّ وقد ارتسمت على محيَّاها ابتسامة، وما إن أَرْخَتْ كتفي العجوز إلَّا وشرعت تضغط على ثدييها براحتيها. فقالت العجوز باليونانية:

«يوجد حليب! لحسن الحظّ! يوجد حليب!» ورسمت إشارة الصليب وقبَّلَت يدي الأم. ارتاحت الأمّ لحظتئذ على لحاف، وهي تشير إلى العجوز بأن تتابع النظر وهي تحمل ماسة بين ذراعيها، وأعطتها حلمة ثديها وبدأت الطفلة ترضع. وردًّا على هذا التحوُّل في مجرى الأحداث ابتسمتُ ابتسامةً خالصةً، ابتسامةً نابعةً من صميم قلبي. ما إنْ رأت العجوز ابتسامتي إلَّا ورفعت يدها تحية لي.

بعد أن رأيتُ كلّ هذا ينكشف أمامي اقتنعتُ بأنّ الأشياء يمكن أن تتغيّر، بأنَّ الغَلَبَةَ يمكن أن تكون للأمل، حتّى في أحلك الظروف. ربّما نخرُجُ من هنا قريبًا. تذكَّرْتُ المالَ الذي في حقيبة ظهري. إذ ما فتئتُ أحرسُه باذلًا في سبيله حياتي، مستخدمًا إيَّاه وسادةً في الليل حتى أكونَ على يقين أنَّه ما من يد ستمتد إليه دون أن توقظني أولًا. فقد تداول القوم علنًا مسألة انتشار اللصوص. ومع ذلك فقد التزموا الصمت فيما يخص المسائل الأخرى التي تَلَطَّتْ في الظلال المعتمة.

في تلك الليلة، عندما رأيتُ الصبيين جالسين على لحافيهما المعتادَين تحت الشجرة، خطر في بالي أن أدنو منهما، وعندما انسابت رائحة الكولونيا القوية أمامي في الجوّ، رأيتُ أنهما كانا يرشّان عطر ما بعد الحلاقة على وجهيهما.

ذهبتُ صوبهما على مهل واستأذنتهما في الجلوس. كانا متنبِّهَين، عيناهما تتجهان بسرعة صوب الغابة، ولكنَّ حداثة سنِّهمَا وطراوة عودهما ما كانتا حتى لتتيح لهما أن يرفضا السماح لي بالجلوس. صافحاني وعرَّفاني باسميهما، رياض وعلي، شقيقان توأمان، وإنْ ليسا بتوأمين متطابقين، عمرُ كلّ منهما حوالي خمسة عشر عامًا. رياض أطول من علي وأشدّ شكيمة، ولا يزال شيء من الطفولة يكتنف عليًّا؛ كانا معًا مثل جروين. طرحتُ عليهما الأسئلة وأجاباني عليها؛ حيث بادر كل منهما في الإضافة مستطردًا على ما قاله الآخر أحيانًا.

حكيا لي عن كيفية هروبهما من أفغانستان وعن قَتَلَة أبيهما. فبعد موته أصبح التوأمان بالذات مُسْتَهْدَفَيْن من طالبان فحثَّتْهُمَا أمُّهُمَا على المغادرة قبل أن يُلقى القبض عليهما. لَم تكن ترغب في أن تفقد ولديها بعد أن فقدت زوجها. ثم وَصَفَا لي كيف بكت وقبَّلَتْ وجهيهما مئة مرَّة لأنها خشيت ألَّا تراهما مرَّة أخرى أبدًا. كما حكيا لي عن رحلتهما عبر تركيا وليسبُس[1]، وكيف وصلا هذه المدينة الغريبة دون مساعدة ودون أدنى فكرة عما سيفعلانه لاحقًا. ومن ثم حدث أن نصحهما

(1) جزيرة يونانية في بحر إيجة في شرقي اليونان، غير بعيدة من ساحل الأناضول الشمالي الغربي.

رجلٌ بالتوجه إلى ساحة ڤكتوريا، وهي نقطة تجمُّع معروفة بانتشار اللاجئين فيها.

«ظنَنَّا أنَّ أحد الموجودين هناك سيمدُّ لنا يدَ العون» قال علي.

«وأننا لن ننام في الشوارع بعد الآن».

«لم يبقَ مَقْعَدٌ في الساحة إلَّا وجلس عليه لاجئ».

«وكان هناك عدد كبير من العصابات».

«كان رياض خائفًا».

«كان علي أكثر خوفًا؛ فقد كان يرتجف في الليل».

«ولذا فقد طلبوا منا أن نأتيَ إلى هنا». فقلتُ لهما:

«إذن، تعرفان نديم؟ هل مدَّ لكما يد العون؟».

«ومن يكون نديم؟» قال رياض. حَملقا فيَّ دون أن يطرف لهما جَفن، منتظرَين منّي جوابًا.

ابتسرتُ ابتسامةً وقلت: «ربَّمَا وردني اسمُه بصورة خاطئة. نديم عازف الغيتار. الرجل ذو الندوب».

رمق أحدهما الآخر بسرعة وقَتَمَتْ عيناهما وزالت عنهما البشاشة.

«أظنّك تقصدُ أحمد» قال رياض.

«أوه، هو ذاك! أعرف أنّي نسيتُ اسمَه بالخطأ. فقد قابلتُ عددًا كبيرًا جدًّا من الناس في الأسابيع القليلة الماضية وأعاني معاناة فظيعة في تذكُّر الأسماء».

لاذ الصبيّان بالصمت، ثم قلت:

«هل ساعَدَكما؟ فقد سمعتُ أنّه لطيف جدًّا».

«ساعَدَنا قليلًا في الليلة الأولى» قال علي، فلكزه رياض لكزة خفيفة، على فخذه، ولكن لم تفتني ملاحظتها.

«هكذا إذن. ومِنْ ثَمَّ؟».

تردَّد عليٌّ في الإجابة. طأطأ رأسه صوب الأرض، دون أن ينظر إليَّ أو إلى أخيه.

«هل يريد أن تردَّا له ماله؟» قلتُ.

أومأ علي برأسه بالإيجاب. وبرم رياض عينيه، ثم نظر إلى السماء.

«كم المبلغ؟».

«إننا ندفع له المبلغ بصورة أقساط، فهمت؟» قال رياض رافعًا صوته الآن، وقد بدا في موقف دفاعي.

«كيف؟ من أين تحصلا على المال لكي تدفعا له الأقساط»؟ لا بدَّ أنّي نظرت إلى الحذاء الجديد الذي ينتعله رياض لأنّه كان يجلس وقد ثنى ساقيه تحت جسمه، ولكنّ ردَّ فعل عليّ أصابني بعظيم

الاضطراب. لاحظتُ أنّه طوى جسده نحو الداخل وأحاط جسدَه بذراعيه بصورة من يحمي نفسه، وجهُه أحمرَ حمرة ناصعة. من حيث لا أدري برز ظلٌّ حَجَبَ ضوء الشمس فرأيتُ نديم واقفًا فوق رؤوسنا، يحمل في يده الرَّباب، وابتسامة ماكرة ترتسم على وجهه.

«أراكُم قد اجتمعتم كلكم» قال متخذًا مجلسه قربنا على اللحاف، وبدأ يعزف، الصوت الناعم يخترق ذهني، طاردًا الأفكار والوساوس، وانغمس اللحن الدافئ بصورة أخفض وأشد حزنًا حتى صار أكثر أخذًا بالألباب. بعد ساعة استمرّ فيها عزف الموسيقي، وضع نديم ربابَه وابتعد عنا. رأيته يتّجه صوب الغابة فقررت أن أتبعه، متجاوزًا مجموعة من الرجال اليونانيين وهم يدخنون قرب أحد المقاعد، ومررت بامرأتين تتسكعان في الظلال. تبعته إلى بقعة مقلوعة الشجر فيها شجرة تهاوت إلى الأرض، وبينما جلس على جذعها المكسور، أخرج شيئًا من حقيبة ظهره: مطواةً صغيرةً حادةً. وضع نصلها على معصمه الأيسر، توقف لحظة، ثمَّ تحرَّى المنطقة المحيطة بمكان جلوسه بدقَّة. ومن ثم ودون أيّ مزيد من التردُّد مرَّر المطواة على طول ساعده. أرى تغضُّنات الألم ترتسم على وجهه، عيناه تبرمان إلى الوراء، وهكذا وللحظة قصيرة لم يعد فيهما سوى البياض. كانت ذراعه تنزف فأخرج بعضًا من المناديل من حقيبته ووضعها فوق الجروح الناكئة. ولكنّي لا أتذكَّرُ شيئًا من المشهد أكثر من النظرة المرتسمة على وجهه؛ نظرة غضب بدت. أكان يعاقب نفسه؟

تحرَّكْتُ حركةً خفيفةً فتكسَّر غصينٌ تحت قدميَّ، فنظر نديم واستقرت عيناه عليَّ وقد تضيَّقتا. رجعت إلى الوراء، ثم تواريت في

العتمة، ودون أن أعرف أي شيء أفعله سوى ذلك بدأت الركض عبر الغابة عائدًا إلى موقع المخيَّم.

«ما الذي حَدَث؟» قالت عفراء عندما جلستُ جوارها.

«لا شيء. لماذا؟».

«لأنك تلهث مثل الكلب».

«لا، أنا لا ألهث، أنا في قمَّة الهدوء».

هزَّت رأسَها هزَّةً خفيفة، هزَّة استكانة، وآنَ تلك اللحظة ظهر نديم من بين الأشجار وجلس على قاعدة التمثال. ظهر فجأة هزيلًا مرة أخرى مثلما كان في أول يوم رأيته فيه، فقد خارت قوته ونضبت منه. انتظرتُ حتى أرى إذا ما كان سيدنو منِّي، ولكنه لم ينظر في اتجاهي حتَّى ولو نظرة خاطفة. اكتفى فحسب بلفّ سيجارة بعد أخرى ومكث هناك قرابة ساعة أو أكثر وهو يدخِّن.

كان الصبيَّان جالسين على لحافيهما، يلعبان لعبة على هاتفهما المحمول ويضحكان. تكرر قَرصُ عليّ رياضًا في ذراعه، وعندئذ ضاق به رياض ذرعًا وأخذ الهاتف منه، وجلس وظهره لعليّ بحيث لا يمكنه رؤية شاشة الهاتف.

مع أنَّ نديم بدا مرتاحًا وسارحًا في بحر أفكاره الخاصة، فقد استطعتُ أن أرى بأن تركيزه كان منصبًا فعليًّا على الصبيين، عيناه تتحرَّكان بسرعة ودونما انقطاع في اتجاههما.

اضطجعتُ بجانب عفراء وتظاهرتُ بإغماض عيني، ولكنّي راقبتُ نديم والصبيين. في الساعة العاشرة بالضبط نهض نديم ومضى داخل الغابة. بعد ثلاث دقائق تبعه الصبيَّان. نهضتُ وتبعتهما أيضًا، محاولًا الحفاظ على مسافة كافية بيننا حتى لا يرياني، وفي الوقت نفسه بقيت قريبًا بما يكفي منهما حتى لا أفقد أثرَهُمَا.

سلَكا منعطفات حادَّة لا تخطر في البال، وكأنَّهُمَا كانا يتبعان دربًا غير مرئي، ليصلا أخيرًا إلى بقعة مقلوعة الشجر في الغابة، مختلفة عن البقعة الأولى. هنا، انتشرت القمامة في كل مكان، أكوام وأكوام منها؛ إذ تحولت بركة جفف ماؤها إلى مطمر قمامة. في منتصف بئر جدرانها إسمنتية ثمة نافورة آسن ماؤها تحيط بها أنابيب تعود إلى نظام ري قديم، وخلف هذه النافورة بالضبط، ذبلت كل الشجيرات في حديقة ورد. جاب مدمنو المخدرات ومروِّجُوها في المنطقة المحيطة بالبئر، وتناثرت المحاقن على الأرض. جلس الناس على سقف مبنى تشغيل البئر، وتناثرت حوله فَرْشَاتُ نوم وصناديق؛ بقايا حياة بائدة.

وقف الصبيَّان قرب البئر واقترب منهما في الحال رجلٌ دسَّ بعض المال في يد رياض. ومن ثم افترق الصبيان. إذ سلك عليٌّ الدرب الواقع إلى يمين النافورة، فيما انتظر رياض حتى جاء رجل آخر بعد برهة قصيرة ليصطحبه معه، ثم ذهبا معًا في الاتجاه المعاكس. وقفتُ هناكَ برهة، وبدأ الناس يلاحظون وجودي. ما من أثر لنديم، ولا بدَّ أنه انسل مبتعدًا. لم أستطع البقاء هنا مدة طويلة جدًّا. وجدتُ لزامًا عليَّ مغادرة هذا المكان، وطفقت راجعًا إلى المخيَّم.

وهكذا بدأتُ أشق طريقي في الغابة، سالكًا منعطفات خاطئة ومعاودًا السير في الطريق التي سلَكْتُها أقدامي عندما جئت إلى هنا. عندما سمعت صوت الأطفال يركلون كرة عرفت أني اقتربت من مقصدي، وبعد برهة قصيرة رأيتُ ضوء نار المخيم. ألفيتُ أنجيليكي جالسةً قرب الشجرة مرة أخرى بجانب عفراء. كراسة الرسم وأقلام التلوين في حضنها، ورأسها مستند إلى لحاء الشجرة، وقد غطّت في نوم سريع. عفراء أيضًا نائمة، متكوّرة على جانبها تكوُّرَ جنين في رَحِم أمّه وقد أراحت رأسَها على يديها كلتيهما. شعرتُ بأنَّ شخصًا يراقبَني، وعندما التفتُّ رأيت نديم وقد عاد إلى قاعدة التمثال، وهو يدخن ويحملق فيّ.

رفع يده، مشيرًا إلي أن آتي إليه، فذهبتُ وجلستُ قربه على قاعدة التمثال. ثم قال لي:

«ثمّة شيء أريدُ أن أعطيه لك».

«لا أريد أيّ شيء».

«كل شخص بحاجة إلى شيء ما، وخصوصًا هنا» قال.

«إلا أنا».

«مدَّ يدَك فقط» قال.

نظرتُ إليه دون أن تطرف عيني. فقال:

«تعال! مدَّ يدك. لا تخف. ليس في الأمر أي سوء، أعدك بذلك».

أمسكَ يدي وبسَطَ راحَتَهَا.

«والآن أغمض عينيك».

لقد تجاوز هذا الأمر حدَّه كثيرًا الآن. حاولتُ أن أسحب يدي، ولكنَّ نديم أحكم قبضته عليها وقال: «هيَّا. أغمض عينيك فقط» قال ذلك بابتسامة عريضة، عيناه تلتمعان في ضوء النار. فقلت:

«مستحيل» فحاول أن يسحب يدي بالقوة، دون أن يثير الشبهات. ولكن ما حدث بعدئذ كان مفاجئًا جدًّا وغير متوقع حتى إنه أصاب فكري وجسدي بالجمود. أحسستُ بألم شديد يعبر معصمي. لقد شَرَطَني بمطواته. رفعتُ ذراعي مثل طائر جريح، والدم ينبجس منها سريعًا، متقاطرًا على بنطالي.

اندفعت هاربًا منه، وأنا أترنَّح صوب عفراء، وأتوسل إليها أن تستيقظ. فتحت عينيها، مذعورة، وأمسكتُ يدَها ووضعتها على معصمي. فاستوت جالسة بحدَّة، والدم يسيل الآن عبر أصابعها. بدأتْ تتحسَّس الجرح بيديها وضغطت عليه، محاولة، دون جدوى، أن توقف الدم. ثم أحسستُ بيدين أخريين. فقد نزعت أنجيليكي دثار رأسها الأخضر وبدأت تربطه حول معصمي.

«ما الذي حدث؟» قالت عفراء. نظرتُ ورائي صوب التمثال، ولكنَّ نديم كان قد اختفى.

زفرَت أنجيليكي وجلست تحت الشجرة، وجهها مملوء بالقلق. كان الدم ينزّ عبر القماش المبطن للدثار، وذراعي تنبض مرتجفة.

اضطجعتُ بسبب الإعياء، ولكن أنجيليكي كانت جالسةً منتصبة. كان آخرَ ما رأيتُه قبل أن تغمض عيناي عنقُهَا الطويل ووجنتاها المصقولتان الحادَّتان في ضوء الموقد الذاوي.

عندما استفقتُ، بعد ساعات، في منتصف الليل، وجدتها لا تزال جالسة على الوضعية ذاتها، عيناها تجوبان بتمعُّن في العتمة والظلال.

«أنجيليكي» همستُ، فالتفتت نحوي، مستيقظة كلَّ الاستيقاظ.

«اضطجعي هنا قرب عفراء. سأتولى الحراسة قليلًا».

«ولن تغط في النوم مرة أخرى؟» سألَتْنِي.

«لا».

اعتراها التردُّد لحظة، ولكن بعدئذ اضطَجَعَت على اللحاف قرب عفراء وأغمضت عينيها. ثم قالت فجأةً: «لقد مرَّ أوديسيوس بجزيرة الحوريات الفاتنات. أتعلّم من هنَّ الحوريات الفاتنات؟» لم يكن هذا سؤالًا متفاصحًا، بل انتظرتني حتّى أجيبها، وفتحت عينها، نصف فتحة، حتّى تتأكّد أنّي كنت أصغي إليها. ولكنّي كنت أتألم ووجدت صعوبة في التركيز على ما كانت تقول، ولذا فقد قلتُ لها:

«لا. لا أعرف».

«يحاولن إغواء الرجال بأغنيتهنّ حتّى يوقعوهم في التهلكة. فإذا سمعتَ أغنيتهنّ فإنها سينلن منك. وهكذا، بينما مرُّوا بالجزيرة، وضع الرجال الشمع في آذانهم حتّى لا يسمعوا الأغنية، ولكنّ أوديسيوس

أراد سماع أغنية الفاتنات لأنه كان قد سمع أنَّها أغنية جميلة جدًّا. ولذا، أتعرفُ ماذا فعل رجاله به؟».

«لا».

«هذا مهمٌّ جدًّا. فقد ربط الرجال أوديسيوس إلى سارية السفينة؛ ربطوه ربطًا محكمًا لا انفكاك له. وطلب منهم أن يتركوه مربوطًا إلى السارية بصرف النظر عن مقدار توسّلاته، حتّى بلغوا برّ الأمان، بعيدًا عن الحوريات الفاتنات وأغنيتهن».

لم أردَّ عليها. أمسكتُ ذراعي المربوطة، محاولًا أن أتجاهل شدة الألم، ونظرتُ إلى الغابة، إلى الأشياء غير المرئية المتوارية هناك.

تابعت أنجيليكي حديثها قائلة: «أثينا... أثينا هي المكان الذي يغوي الناس بأشياء خَطِرَة، إذ تنَادِيهم إلى تلك الأشياء ولا يستطيعون مقاومتها، ولذا يذهبون إليها».

لاحظتُ أنَّ رياض وعلي لم يكونا في موضعهما على لحافيهما. لم يرجعا حتى الآن، ولا أريد أن أشغل بالي بالمكان الذي ذهبا إليه وماذا يمكن أن يكونَا فاعِلَيْن هناك. نظرتُ إلى دثار أنجيليكي الأخضر المصبوغ بالدم الملفوف على ذراعي، نظرتُ إلى خصلات شعرها المجعَّدة المتمرِّدة، شعرها النابض بالحياة، ونظرتُ إلى شعر عفراء المتناثر على رأسها دونَ حجاب. غطَّت أنجيليكي في النوم بسرعة وها هما نائمتان الآن. تذكَّرتُ ما قالته أنجيليكي عن أوديسيوس لحظة وصولنا الأولى إلى هنا، وكيف سافر إلى كلّ تلك الأماكن، وارتحل في رحلته تلك إلى جزر بعيدة، لكي يجد طريق عودته إلى

وطنه. ولكن لا وطن لنا.

لمستُ الرسالة التي ترَكَها لي مصطفى، الرسالة التي لا تزال في جيبي، ثمَّ أخرجتُ صورةً تجمعني به ونظرت إليها في ضوء نار المخيم.

أين الوطن الآن؟ وما الوطن؟ تكوَّنت في مخيلتي صورةٌ غشَّاها الضوء الذهبي، بات الوطن فردوسًا لن أصله أبدًا. تذكَّرتُ ذات مساء، قبل زهاء سنوات عشر، كانت الأجواء أجواء عيد، واحتفاءً بانتهاء شهر رمضان نظَّمْتُ ومصطفى حفلةً لكل موظفينا في فندق دار زمريا مارتيني في حلب. وقد أقيم الحفلُ في الفناء الداخلي للفندق، حيث أشجار النخيل والفوانيس والنباتات تتدلى من الشرفات التي فوق رؤوسنا. تعلونا فسحة مربعة من سماء الليل، فسحة ترصَّعَت بالنجوم.

كان الفندق قد حضَّر وليمةً من أطباق اللحم والسمك، مع الرز والحبوب والخضار بمثابة وجبات إضافية. صلَّيْنَا معًا وأكلنا صحبة موظفينا وأصدقائنا وعائلاتنا. وتراكض الأولاد بين أهليهم. وبدت عفراء جميلة في عباية حمراء وذهبية، وهي تجول في أرجاء المكان، تمسك سامي بيده، وترحِّب بالضيوف الواصلين، ترحِّب بهم بابتسامة تحمل في طياتها كل الدفء الذي في العالم.

فراس وآية وذَهَب كانوا حاضرين، وحتى والد مصطفى جاء من حيث يقيم في الجبال؛ كان رجلًا هادئًا، متواضعًا، رجلًا لا نظير له، ولكنه كان فخورًا بإنجازات ابنه وقد طاب له الطعام واستلذ صحبة الناس، وتحدَّث معي دون تكلُّف عن مناحله. المشهد كان ساحرًا...

تلألأت أوراق الشجر، وارتفع دخان الشيشة في الليل شرائطًا من حرير، وأينعت النباتات في السلال المعلَّقة فجأة زهورًا مؤتلقة، وغمرت الفناء بشذاها الحلو. أصبح المكان يشبه مكانًا كذلك الذي نقرأ عنه في كتب الحكايات، من نمط الكتب الذي اعتادت أمي أن تقرأه لي في الغرفة ذات البلاط الأزرق.

استيقظتُ في الصباح وأدركتُ أني لم أفِ بوعدي، فقد غططتُ في النوم على جذع الشجرة، وقد غادَرَت أنجيليكي. تخضَّلَ دثارُ رأسها الأخضر بالدَّم وازدادت حدَّة الألم في ذراعي. كانت العجائز يوزِّعْنَ أكياس الطعام، ولاحظتُ بضعة موظفي إغاثة من المنظمات غير الحكومية يمشون في أرجاء المكان. رفعتُ يدي وناديتُ واحدًا منهم، وهي امرأةٌ في مطلع العشرينيات من عمرها. مددتُ ذراعي فوقَفَتْ فوق رأسي ثم تراجعت فجأة. حامَتْ هناك بضع دقائق، غير عارفة ماذا تعمل، ومن ثم طلبت مني أن أنتظر وألَّا أبارح مكاني، وإنها ستستدعي من يستطيع مساعدتي، مسوِّغةً ذلك بقولها إنَّها تعمل فقط في رعاية الأطفال ولا دراية لها بالأمور الطبية، ولكنها تستطيع أن تعثر على شخص يعرف كيف يتصرَّف في هذي الأحوال.

شكرتُها ثم غادَرَتْ، فمرَّ اليوم ولكنَّ موظفة الإغاثة الشابة لم ترجع، لذا فقد نزعتُ دثار الرأس الأخضر لأجد أنَّ الجرح غائرٌ وما يزال ينزف. نظفته مستخدمًا بعض ماء الشرب ومن ثم ربطته مرة ثانية بدثار الرأس ذاته.

لم أرَ موظفة الإغاثة حتى عصر ذلك اليوم وهي قادمة عبر الغابة

نحوي، وخلفها امرأة أكبر سنًّا تضع حقيبة على كتفيها. توقَّفَتَا قربي وتحادثتا فيما بينهما برهة بلغة لم أعرف ما هي. ربَّمَا هولندية أو سويسرية أو ألمانية، لم أستطع الجزم، ثم انحنت المرأة الكبرى سنًّا قربي وفتحت الحقيبة، وارتدت قفازات جلدية ناعمة، وفكَّت الدثار وزمَّت شفتيها إذ رأت الجرح. ثم قالت:

«كيف فعلتَ هذا؟».

«أحدُهم جرَحَني» قلت.

رمقتني بنظرة قلقة ولكنّها لم تنبس ببنت شفة. قضت وقتًا طويلًا وهي تنظِّف الجرح بمناديل معقِّمة ومن ثم أغلقته بضمادات مستطيلة متوازية، واضعةً كل ضماد برفق على الجرح باستخدام ملقط.

«أنا بحاجة لمغادرة هذا المكان» قلت.

لم تقل شيئًا.

«كيف يغادرُ الناسُ؟».

رمَقَتْنِي بنظرة مديدة، متوقِّفة عن الكلام والملقط بيدها، ولكنّها تابعت بعدئذ مهمّتها، وشفتاها مزمومتان. عندما بدأتْ تغطِّي الجرح بضِمَاد نظيف، أراحت كتفيها وشرعت تتكلّم مجددًا.

«كنت سأنصحك بالذهاب إلى سكوبيا[1]» قالت، وهي تبْعِدُ شعرها عن وجهها، ثم أردفت: «ولكن الناس يتشاجرون مع الشرطة

(1) عاصمة مقدونيا.

حتّى يعبروا إلى مقدونيا. لقد أغلَقَتْ مقدونيا الحدود وما من أحد يعبر الآن، وستَعْلَقُ هناك».

«أيوجد سبيل آخر؟».

«يمكنك أن تستقلّ الحافلةُ إلى القرى. ثمّة أولوية للناس القادمين من سوريا. وهي تأتي مرة واحدة في الأسبوع».

«وماذا يحصل بعدئذ؟».

«ابقَ هناك».

«وكم سأبقى هناك؟».

لم ترد. بل دفعت شعرها إلى الوراء، ولفَّتْه بشكل عِقْصَة ومن ثم أطْلَقَتْه. لاحظتُ أنها تضع بطاقة تعريفية مربوطة بخيط حول عنقها. اسمها إيميلي. تحت اسمها المكتوب بخط اليد ثمّة شعارٌ صغيرٌ.

بدأت تلملم أغراضها لتذهب.

«وماذا عن المرأة الإفريقية، كما يوجد صبيّان مراهقان واقعان في مأزق. أيمكنهم أن يذهبوا إلى القرى؟». فقالت:

«لا أعرف». ثم أردَفَت: «لا. لا أظنُّ ذلك. يا الله، عليكَ بالفعل ألَّا تسألني. لا أستطيع تحمُّل المسؤولية. كما أنَّ هناك مستشارين».

«وأين هم؟».

رأيتُ أنّها كانت تقاوم نفسَها كيلا تقول المزيد، عيناها تلتمعان

بالشكوى، ووجهها يطفح بالغضب.

«إذا ذهبتَ إلى ساحة ڤكتوريا...».

«لقد سمعتُ بساحة ڤكتوريا».

«إذا ذهبتَ إلى هناك، فثمَّة مركزٌ في شارع إلپيدوس اسمه مركز الأمل. وهم يساعدون الأمهات والأطفال وكذلك الصبية الذين ليس معهم مرافقون. سوف يقدّمون لك المشورة». قالت ذلك دون أن ينقطع نفسها ومن ثم ابتسرت ابتسامة.

في تلك الليلة عادت أنجيليكي. جلست قرب الشجرة ومسحت وجهها ببودرة الطَّلْق. كانت تضع غطاء رأس أسود له ترترة فضية برقت في ضوء نار المخيم. رشفت رشفات صغيرة متأنية من الماء من قنينة وتفحصت الجروح على ذراعيها. عندما شعرت عفراء بوجودها، استوت جالسة، وقد باتت أكثر تيقظًا، فزحزحت جسدها مقتربة منها ثم قالت لها:

«ماذا تفعلين؟». فردَّت أنجيليكي:

«قالوا لي أن أشرب الكثير من الماء. بسبب دمي المسموم».

هزَّت عفراء رأسها.

«إنه كذلك، هذا ما أقوله لك. لقد حكيتُ لك كل شيء عن المسألة البارحة! قلتُ لك إنَّ نَفَسِيْ انقطع ولم يعد. انقطع نفسي، فأخذوه. بعض الناس، بعض الناس يريدون أن يأخذوا نفَسَك. ومن

ثم وضعوا شيئًا في دمي. سمَّمُوه، والآن عقلي سقيم».

مع أن عفراء لم تفهم على الأرجح كل ما كانت أنجيليكي تقوله، فقد رأيت أنها تأثَّرَت بكلماتها ونبرة صوتها، وعندما توقَّفَت أنجيليكي عن الكلام، مدَّت جسدَها ووضعت يدها على ذراع أنجيليكي.

تنفَّسَت أنجيليكي بصورة أبطء عندئذ وقالت: «أنا سعيدةٌ لأنَّكِ معي هنا يا عفراء».

من أعماق الغابة جاء عزف الرَّباب، عزفًا جميلًا ومليئًا بالنور، حتَّى في العتمة. بدت الألحان وكأنَّهَا تلامس لهيب النار، متسبِّبَةً في ارتِعَاشِهَا، وحُمِلَت الموسيقى بعيدًا عبر الريح، وأوغلت في أعماق الغابة. هدَّأ صوت العزف بالي، ولكن حالما توقَّفَ نديم عن العزف تذكَّرتُ من فوري أظافره الطويلة، وتذكَّرْتُ الحافة الحادة للمطواة والحرارة التي انتشرت عبر معصمي. لم يعد التوأمان منذ الليلة الماضية وأردتُ الذهاب والبحث عنهما. فكَّرْتُ في العودة إلى البئر الفارغة لأرى إذا كانا هناك أو أسأل أحدًا عنهما، ولكن الخوف كان يمنعني من المغامرة بالذهاب إلى داخل الغابة مرة أخرى. عليَّ أن أحافظ على حياتي من أجل خاطر عفراء. انتظرتُ عوضًا عن ذلك، آملًا أن يظهر الصبيَّان من بين الظلال ويعودا إلى لحافهما تحت الشجرة.

الشخص الذي جاءني في كوابيسي تلك الليلة كان محمَّد، رأيتُه على القارب، وجهه مكتس جدية وإصرارًا بين ومضات ضوء المصباح. ومثل تلك الليلة تمامًا، كانت هناك لحظة من العتمة، وعندما أضاء ضوء المصباح مرة ثانية، كان قد ذهب.

حدث الأمر بطريقة تكاد تشبه بالضبط ما حدث تلك الليلة. كنتُ أبحث في الماء، أبحث في الأمواج السوداء، على قدر ما استطاعت عيناي أن ترى في كل اتجاه، ومن ثم وثبتُ إلى الماء، الأمواج عالية، وكنت أنادي باسمه وأستطيع سماع صوت عفراء على متن القارب. غُصْتُ تحت القارب داخلًا في الصمت الأسود ومكثتُ أطول مدة استطعتها، متلمسًا بيدي علّني أمسك بعضو من أعضاء جسده، ذراع أو ساق. وعندما نفد الهواء من رئتيَّ، عندما كان شبح الموت يلقي بثقله عليَّ، عدتُ إلى السطح، ساحبًا جرعات من الهواء داخل العتمة والريح. ولكن في منامي تفصيل واحدٌ كان مختلفًا: لم ينقذ الرجلُ محمَّدًا، إذ إنه لم يكن على متن القارب؛ فقد حلَّت مكانه، محاطة بأذرع النساء وملفوفة بأغطية الرأس، فتاة صغيرة عيناها كالليل.

استيقظتُ على صوت صياح. صياح صبي صغير كان يصرخ بعبارات بالفارسية، ثمَّة حركةٌ وضوضاءُ في العتمة، الناس يستيقظون ويركضون صوب الصبي. نهضتُ أنا أيضًا، وتحرَّكْتُ نحو مصدر الجلبة. كان الصبي يبكي ويواجه الأمرَّين حتى يتنفس وهو يشير إلى داخل الغابة. ظهرت مجموعة من الرجال يحملون مضاربَ البيسبول وكأنَّهُم كانوا ينتظرون هذه اللحظة، وبدؤوا الركض في الاتجاه الذي أشار إليه الصبي. ركضتُ معهم، وأدركتُ في الحال أنهم كانوا يطاردون شخصًا. ثمَّ انقضُّوا عليه وكأنَّهُم ينقضُّون على حيوان ضخم، وطرحوه أرضًا.

حدَثَ أنْ أعطاني أحدُهم مضربًا. فنظرتُ إلى هذا الرجل وهو يتلوَّى، وهو يحاول أن يحرِّر نفسه، وتبيَّن لي أنه لم يكن سوى نديم.

بدا مختلفًا كل الاختلاف وهو مطروح على الأرض، يعتكر الخوفُ وجهَه. أمسك الرجال به فيما تناوب الآخرون على إيساعه ضربًا. وقفتُ دونما حراك وراقبتُهم وهم يضربونه حتى برمت عيناه داخل رأسه وتهشَّم وجهه، ثم اختلجت ساقاه وذراعاه.

«لماذا تكتفي بالوقوف هناك؟» قال أحد الرجال وهو يلكزني، ثم أردف: «ألا تعلم أن هذا الرجل هو الشيطان بعينه؟» ولذا خطوت خطوة إلى الأمام حتى آخذ دوري في ضربه، وسمعتُ الهتافات المدوية الصادرة عن الرجال وبعدئذ بدا أن كل شيء وكل شخص حولي يتلاشى، وكان وجه نديم، وهو ينظر إليّ، كل ما استطعت رؤيته. للحظة صفا تركيزه، عيناه مثبتتان على عينيَّ وقال لي كلمات لم أستطع سماعها، فيما حثّني صوت قادم من الوراء على متابعة الضرب فأحسست بخفقان جرحي وتذكّرت وجهي التوأمين البريئين فتأجج فيّ مزيد من الغضب، غضب لم أتميّزه، فلم يكن مني إلا وانهلت بمضربي على رأسه.

ومن ثم همد بلا حراك. أسقطت المضرب من يدي وتراجعت إلى الوراء. رفسه أحد الرِّجال وبصق عليه آخر، ثم ركضوا جميعًا، في الاتجاهات كافة، ومضوا داخل الغابة أو عادوا إلى المخيَّم.

سحبتُ جسدَه إلى أعماق الغابة، حيث اقتربت الأشجار من بعضها، حيث كان ضجيج المدينة وضجيج المخيَّم بعيدَين جدًّا، وجلستُ قربه حتى بدأت الشمس تشرق.

في ضوء الشروق الخافت، طفقتُ راجعًا إلى المخيَّم. صادفتُ

رجلين يتناقشان نقاشًا حامي الوطيس. عرفتهما من فوري فخطوتُ بسرعة متواريًا داخل الظلال المعتمة. كان أحدُهما جالسًا فوق جذع الشجرة المتكسر حيث جلس نديم ذات مرة؛ أما الآخر فكان مضطربًا، يذرع المكان جيئة وذهابًا، وهو يمرُّ فوق مضرب بيسبول.

«ما الذي يجعلك تشعر بالذنب بحق الجحيم؟».

«لقد قتَلْنَا الرجلَ».

«ولكنه كان يأخذ هذين الصبيين. وأنت تعرف ماذا كان يفعل بهما، صحيح؟».

«أعرف. أعرف ذلك».

«ماذا لو كان أحدهما ابنك؟».

لم يرد الرجل الجالس على جذع الشجرة.

«أعني، أيمكنك أن تتخيَّل؟».

«لا رغبة لي بتخيل ذلك».

«إنه الشر بعينه. الشر في أسوأ صوره».

«ألم تسمع بما حدث لابن صادق؟».

لم يكن هذا بالفعل سؤالًا، فأطرق الرجل الجالس على الجذع عينيه، وهو يمرِّر يده فوق وجهه.

خيَّم الصمت برهةً فلم أجرؤ على التحرّك، لم أجرؤ حتى على أن

أسحب أنفاسي. زاد هبوب الريح وحفَّت الأوراق في الأشجار فوقنا وسمعتُ وقع أقدام في الغابة وأصوات الضحك والموسيقى الخافتة.

وقف الرجل الجالس على الجذع الآن ليواجه صاحبه الآخر. «ما الذي يدفع الإنسان لارتكاب مثل هذه الأشياء؟».

لم أسمع الردَّ لأن مجموعة من الصبية سارت بيني وبينهما، حوالي خمسة أو ستة صبية. أمسك أحدهم كرة قدم بيديه، فيما شغَّل آخر أغنية عربية على هاتفه وغنَّى بضعةٌ منهم الأغنية مع الكورال. استغلَّ الرجلان قدوم الصبية بمثابة فرصة سانحة وبدآ يحثَّان الخطى راجعَين إلى المخيَّم. جلستُ مكانهما فوق الجذع، وتحسَّسْتُ نتوءاته وتجاويفه بأصابعي. تخيَّلت نديم... ها أنا أراه، وكأنّه يجلس على الجذع بجانبي، المطواة في يده، وهو يشرط بشرته، وتلك النظرة في عينيه، النظرة المليئة بالحنق. ثم قلتُ بصوت عالٍ:

«ما الذي جرى لكَ يا نديم؟ ما الذي دفعك إلى إتيان مثل هذه الأفعال؟».

فأجابتني الريح، أجابتني بأنْ رفعت الأوراق المتساقطة ورمتها حولي ومن ثم طوَّحَت بها، فذوت أصوات الضحك والموسيقى عندئذ بصورة كاملة، وتوارَى الصبية في أعماق الغابة.

عدت بعدئذ إلى المخيم. كانت أنجيليكي قد ذهبت حينذاك فاضطجعتُ بجانب عفراء.

«أين ذَهَبْتَ؟» قالت هامسة.

«وقعت مشكلة».

«أيّ نوع من المشكلات؟».

«لا حاجة لك لأن تعرفي. صدِّقيني. فقد قُضِيَ الأمرُ الآن».

تذكَّرْتُ آيةً من آيات القرآن: «ارحموا تُرْحَمُوا واغفروا يغفر الله لكم[1]».

ومن ثم تذكَّرْتُ بعض كلمات من الحديث الشريف:

«لم يكن النبي يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح»[2].

ثم نظرتُ إلى يديَّ، وقلبْتُهُمَا وكأنِّي أراهما للمرة الأولى: يدٌ ملفوفة بضماد، واليد الأخرى الممسكة بالمضرب. بدأتُ أحسُّ بذلك الخوف مجددًا، ذلك النوع من الخوف الذي استهلكني في حلب، الخوف الذي جعلني متأهبًا لأي حركة وصوت، الخوف الذي يجعلني أتخيَّل الخطر في كل مكان، الخوف الذي يجعلني أتوقّع حدوث أسوأ الاحتمالات في أيّ لحظة، الخوف الذي يجعلني أحسّ أنّ الموت قريب. شعرتُ بأني معرَّض للخطر، وكأنَّ الناس يراقبونني من الغابة، وعندما هبَّت الريح جَلَبَت معها همسات تقول: أنت قاتل، نديم مات، وأنت قاتل.

---

(1) بطبيعة الحال، هذه ليست آية قرآنية، بل حديث شريف: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ صلىَّ الله عليه وسلم قَالَ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يَغْفِرْ اللَّهُ لَكُمْ».

(2) عنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْجَدَلِيِّ قال سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صلىَّ الله عليه وسلم فَقَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ ولكنْ يعفُو ويَصْفح».

وضعتُ راحة يدي على صدر عفراء، وأنا أحسّ بصدرها يعلو ويهبط، مزامنًا أنفاسي مع أنفاسها، لتصير أنفاسًا أبطأ، وأشدَّ ثباتًا. نقرَتْ في ذاكرتي سيرةُ النحل البريطاني الأسود الذي يربيه مصطفى وأبقيتُ عينيَّ مغمضتين بشدة حتى رأيتُ الحقول الأرجوانية والتلال ذات المنحدرات الطويلة، تلال الخزامى والخلنج، منسكبةً فوق حافة العالم.

* * *

عندما استيقظتُ، كان الظهر قد حلَّ. نظرتُ إلى قاعدة التمثال التي كان ينبغي لنديم أن يكون جالسًا عليها، يلف سيجارته. نظرت إلى التمثال الأبيض، رأس وأكتاف لرجل ملتح، ثم نظرت إلى الكتابة المحفورة باليونانية والتاريخ: 1788 ‏ 1825م، وتساءلتُ من يكون ذلك الرجل. وأنا على ذي الحال القلقة، تذكَّرتُ بصورة تعتريها الغشاوة القصص التي اعتادت أمي أن تحكيها لي. في تلك الحكايا لم تكن التماثيل قطعًا فنية أو تستحق التبجيل، لم تكن سوى تعاويذ لدرء الشرِّ أو حُرَّاسًا على كنز، أو كائنات بشرية أو حيوانات حوِّلت إلى أحجار. في بعض القصص دخل الأبالسة إلى التماثيل ونطقوا بألسنتها.

جلَسَتْ عفراء بجانبي فتمنَّيتُ لو أنها تستطيع الرؤية، تمنَّيتُ لو أنها تكون المرأة التي كانتها، لأن عفراء تميزت على الدوام بفهم عميق للعالم؛ إذ كانت تتميز بطريقتها في النظر إلى الأمور. فقد عَرَفَتْ دائمًا الكثير من الأشياء، وامتازت بحِمْل يتمثل في قدرتها على تعرية البشر والأماكن من أقنعتها، والقدرة على أن تجد بقايا

الماضي في الحاضر. لاحظتُ أن نديم ترك ربابه على قاعدة التمثال. مضيت إلى هناك ورفعتها. داعبتُ الأوتار وتذكرت اللحن الجميل الذي اجتاحني واخترقني مثل الماء، مخمدًا الشروخ التي سفعت فكري، راودَني شعورٌ مثل ذلك الذي يراودني آن ملامسة أول قطرة ماء للساني عندما تغرب الشمس خلال شهر رمضان. ذلك هو الشعور الذي تركته فيَّ موسيقى نديم، وهذه الفكرة وحدها كفيلة بأن تلوي ثبات عقلي وتشوِّه أفكاري. أغمضت عينيَّ وركَّزْتُ عوضًا عن ذلك على صوت الأطفال وهم يلعبون، ويضحكون، ويركلون الكرة.



11

جاء اليوم الموعود لإجراء المقابلة معنا. عفراء تجلس بجانبي في القطار، وأعرف أنها متوترة. ديوماندي واقفٌ، يمسك بالعمود المعدني في عربة القطار؛ ثمَّة مقعدٌ شاغر له ولكنَّه لا يريد الجلوس. جسده الطويل المشوَّه صار حتّى أكثر وضوحًا في هذا المكان العام، إذ يبدو مثل شخصية خارجة من حكاية خياليَّة، وممّا أثار استغرابي أنِّي الوحيد الذي أعرف سرَّه من بين كلّ الركاب الذين في عربة القطار. يقرأ ديوماندي الإرشادات المكتوبة في دفتر ملحوظاته، مُهَمْهِمًا بينه وبين نفسه. ثم يقول بالإنجليزية: «هذا ليس درس تاريخ، وليست بهم حاجة لأن يعرفوا الشيء الكثير عن الرئيس الأخير ما لم يسألوا».

حطَّ بنا القطار رحاله أخيرًا في مكان يقال له كرويدُن. تستقبلنا لوسي فيشر في المحطَّة ومن ثم تصحبنا إلى المركز، وهو مبنًى مرتفع يقع في شارع ذي مبانٍ بنية. نمرُّ داخله عبر نقاط التفتيش، والحواجز، والأمن، حيث يفتشوننا تفتيشًا دقيقًا ويتحرَّون عن أسمائنا ويتخذون الإجراءات اللازمة لكي ندخل. ومن ثم نجلس في قاعة انتظار مع أناس تبدو عليهم أمارات الذعر مثلنا. ننتظر.

يدخل ديوماندي أولًا، تليه عفراء، وبعد بضع دقائق لاحقًا

يأخذونني إلى غرفة تقع في آخر ممرّ طويل.

ثمَّة شخصان يجلسان في هذه الغرفة، رجل وامرأة. الرجل على الأرجح في مطلع الأربعينيات؛ وقد حلق شعر رأسه لأنَّ الصلع غزا قمته. لا ينظر إلى عينيّ، ولا حتى مرّة واحدة. يطلب مني الجلوس، وينطق اسمي كما لو أنّه يعرفني، ولكنّ عينيه تجولان دونما هدف محدّد. ومع ذلك فثمّة غرور يكتنفه، إذ ترتسم على شفتيه ابتسامة خفيفة متكلّفة. المرأة الجالسة بجانبه تكبره سنّا بقليل وشعرها مجعَّد. تجلس بهيئة منتصبة جدًّا وتحاول أن تبدو وكأنَّمَا عليها علامات الترحيب. كلاهما من ضباط مكتب الهجرة. يعرض عليَّ الرجل شرب الشاي أو القهوة فأرفض.

يباشر الإجراءات ويقول إن المقابلة مُسَجَّلَة. يذكِّرُني بأنه ستُجْرَى لنا مقابلةٌ ثانيةٌ. ثم يطلب مني أولًا أن أؤكد اسمي وتاريخ ميلادي ومكانه ومكان إقامتي عندما اندلعت الحرب. ومن ثم بدَأت الأسئلة تتَّخذُ منحىً غريبًا. إذ سألني:

«هل يوجد أي معالم بارزة في حلب؟».

«بالطبع».

«أيمكنكَ أن تذكُر لي بعضًا منها؟».

«حسنًا، فيها القلعة. الجامع الأموي، خان الجمرك، مدرسة الفردوس، جامع الأطروش، برج ساعة باب الفرج... أأزيدك منها؟».

«شكرًا لك، هذا يكفي. هل يقع السوق العتيق شمالي المدينة أم شرقها؟».

«بل في وسطها».

«وماذا يبيعون في السوق؟».

«ألوف الأشياء!».

«مثل ماذا؟».

«الأقمشة، والحرير، والكتان. والسجاد والفوانيس والفضة، والذهب والبرونز، والتوابل وشتَّى صنوف الشاي والأعشاب، كما اعتادت زوجتي بيع لوحاتها هناك».

«ما اسم بلدكَ؟».

«سوريا. ألا تريد أن تعرف كيف وصلتُ إلى هنا؟».

«سنصل إلى ذلك السؤال قريبًا. هذه مجرد أسئلة اعتيادية، وهي جزء من الإجراءات».

يتوقَّف لحظةً عن طرح الأسئلة ويمعن النظر في أوراقه. ومن ثمَّ يحك صلعته اللامعة.

«هل رأيتَ أحدًا من داعش؟».

«لا، ليس بصورة شخصية».

«إذن، فأنتَ لم تلتقِ شخصيًا مع أي شخص من هذه الجماعة قط؟».

«لا. بالطبع رأيتُهم في الشوارع أو بعض الأماكن الأخرى، ولكني

لم ألتقِ أيًّا منهم شخصيًا».

«هل سبق ووقعتَ أسيرًا لدى داعش؟».

«لا».

«هل عملتَ مع داعش؟».

«لا».

«هل أنتَ متزوج؟».

«نعم».

«ما اسم زوجتك؟».

«عفراء إبراهيم».

«هل لديك أولاد؟».

«نعم».

«كم عددهم؟».

«ولد واحد، صبي».

«أين وُلِدَ؟».

«في حلب».

«وأين هو الآن؟».

«مات في سوريا».

يتوقَّف لحظةً ويحملق في الطاولة. تبدو المرأة الجالسة بجانبه حزينة. يبدأ التوتر بالتسلُّل إليَّ.

«أيمكنك أن تذكر لنا شيئًا مميزًا عنه؟ شيئًا تتذكره عنه؟».

«مَنْ تقصد؟».

«ابنك. أتفهَّمُ صعوبة ذلك، يا سيِّد نوري، ولكن هلَّا حاولت، رجاءً، الإجابة على السؤال. فإجابتك مسألة مهمة».

«حسنًا. ذات يوم، عندما كان يقود درَّاجَتَه نازلًا عبر الرابية -وكنت أزجره عن القيام بذلك بسبب وجود رابية شديدة الانحدار تمتد صوب المدينة من منزلنا ذي الطابق الواحد- في ذلك اليوم، سقط عن الدرَّاجة وكسَر إصبعه ولم يعد كما كان فعليًا حيث بقيت انثناءة صغيرة فيه».

«في أي يد؟».

«في أيِّ يد!».

«في أي يد وقعت الإصابة؟ اليمنى أم اليسرى؟».

أنظر إلى يديَّ وأتذكر يدَ سامي وهي في يدي. ثم أقول:

«في يده اليسرى. أعرف هذا لأن يده اليسرى تملأ بحجمها يدي اليمنى وأستطيع أن أشعر بإصبعه الصغير المنحني».

«ما تاريخ ميلاده؟».

«الخامس من يناير عام 2009».

«أسبقَ وقتلتَ إنسانًا؟».

«لا».

«ما عنوان النشيد الوطني لبلادك؟».

«أهذه نكتة؟».

«أهذا جوابُك؟».

«لا! عنوانه (حماة الدِّيار)».

«أيمكنك أن تغنّيه دندنَة دون الكلمات؟».

أدندن بعضًا من سطورِه كازًّا على أسناني.

«هل تحبُّ القراءة؟».

«ليس ذلك الحبّ العظيم».

«ما آخرُ كتاب قرأتَه؟».

«كتابٌ عن عملية تَبلْوُرِ العَسَل».

«هل تقرأ كتبًا في السياسة؟».

«لا».

«وماذا عن زوجتك؟».

«ليس عندها اهتمام بذلك على حدِّ علمي».

«ماذا تعمل زوجتك لتكسب قوت يومها؟».

«رسَّامة. كانت رسَّامة».

«كيف تصف الوضع الحالي في بلدك؟».

«جنَّة الله في أرضه».

«يا سيِّد نوري، أتفهَّم أن هذه الأسئلة ربما تبدو بعض الشيء غير ضرورية من وجهة نظرك، ولكنها مهمة جدًّا في مسألة النظر في ملفك».

«الوضع في بلدي فوضى عارمة ودمار شامل».

«مَنْ رئيسك؟».

«بشار الأسد».

«ومتى صار رئيسًا؟».

* * *

وتعاقَبَتِ الأسئلة على هذا المنوال. هل لي أي صلات مع الرئيس؟ أين تقع سوريا؟ ما الدول التي تُجاورُها؟ أيوجد نهر في حلب؟ ما اسمه؟ وبدأ في آخر المطاف يسألني عن رحلتي إلى هنا، فأجبته بمقدار ما استطعتُ أن أتذكَّر بأسلوب متَّسق، صريح، متسلسل، مثلما نصحتني لوسي فيشَر أن أفعل تمامًا. ما خلا أن الأمر

كان أصعب مما حسبت، لأنه وأنا أحاول الإجابة عن أسئلته كان غالبًا ما يرد بسؤال لم أتوقَّعه، سؤال يقذفني ويحيلني إلى مرحلة أخرى من الرحلة. فأقول له أفضل ما أتذكره عن كيفية وصولنا إلى تركيا، وشقَّة المهرب، ومحمَّد، والرحلة إلى ليروس، وأثينا وكل تلك الليالي التي قضيناها في پيديون تو آريوس. لم أسهب. لم أحكِ له عن نديم. لا أريد له أن يعرف أنِّي ساعدتُ في قتل إنسان، وأنِّي قادر على أن أتحوَّل إلى قاتل. وأخيرًا حكيتُ له عن كيفية وصولنا إلى إنجلترا. ولكنّي لم أحكِ له ما حصل مع عفراء قبل وصولنا، فأنا حتَّى غير قادر على التلفُّظِ بتلك الكلمات بصوت عالٍ.

يُبْلِغُنِي أن المقابلة انتهت. تُوْقَفُ المسجِّلةُ وتُغْلَقُ الملفات. يسقط عبر ابتسامته شعاعُ ضوء من نافذة مستطيلة قريبة من سقف الغرفة.

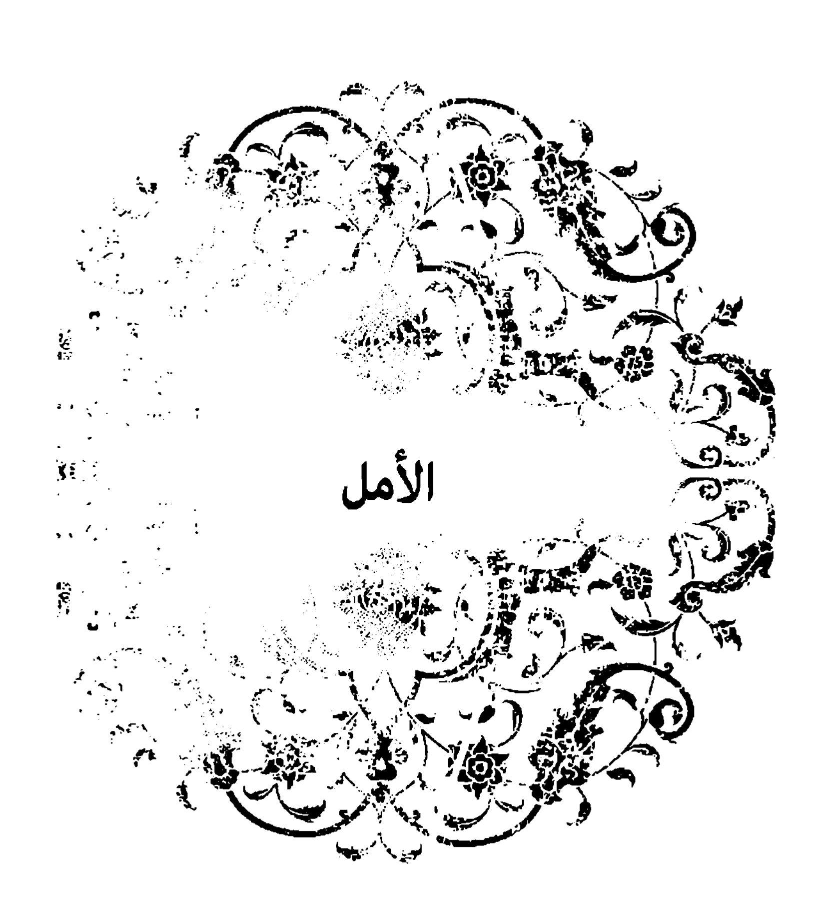
عندما أقف تَنْمَل ساقاي وأحس بأنَّ الحياة سُلِبَت منِّي نوعًا ما.

لوسي فيشر تنتظرني. لم تنتهِ عفراء وديوماندي من مقابلتيهما بعد. ما إن ترى لوسي فيشر وجهي إلَّا وتهرع صوب آلة بيع المشروبات وتعود حاملة كوبًا دافئًا من الشاي ثم تسألني:

«كيف جرت المقابلة؟».

لا أردُّ. لا أستطيع الكلام. فتقول:

«أرجوك، لا تفقد الأمل. الأمل هو لبُّ المسألة». ثمَّة نبرة استسلام في صوتها وهي تبعد خصلة من خصلات شعرها. ثم تضيف: «هذا ما أقوله للناس دائمًا، كما ترى. أبدًا، أبدًا، أبدًا، لا تفقدوا



الأمل

را

أن

وا

ح

أثي

كان يذوي، يتضاءل كما تتضاءل النار في الليل. كنت بحاجة للعثور على مخرج ممَّا أنا فيه، لذا فقد غامرت في اليوم الموالي بمغادرة المتنزَّه. سألتُ عابري السبيل عن كيفية الوصول إلى ساحة ڤيكتوريا. كانت الساحة تعجُّ على غير ترتيب بالناس والنُفايات، إذ جلس أولئك الذين لا مكان آخر لهم يذهبون إليه على المقاعد تحت الأشجار وفي محيط التماثيل. عرفتُ وجوه بضعة ممَّن كانوا في المتنزَّه، وكان بعض مروِّجي المخدِّرات يتسكَّعون قرب محطة القطار أو خارج المقاهي تحت المظلات في الساحة. انتشرت القطط الشاردة في كل مكان، تبحث عن طعامها في سلال القمامة. ثمَّة كلبٌ رابض على جنبه على الأرضية الإسمنتية ومخالبه بارزة؛ من الصعب أن أعرف إذا كان ميتًا أو حيًا. تذكَّرتُ كلاب إسطنبول الشاردة وأنا واقف في ميدان تقسيم وفي قلبي بصيص من أمل. كان الأمل يكمن حينئذ في عدم معرفة المستقبل. بدت إسطنبول مكانًا للانتظار، ولكن أثينا كانت مكانًا للاستسلام الآسن، فداعبَتْ كلماتُ أنجيليكي مخيلتي: «هنا المكانُ الذي يموت فيه الناس موتًا بطيئًا؛ يموتون من الداخل. واحدًا إثر واحد، يموتُ الناس».

كانت هذه مدينة الأحلام المتكرِّرة، الأحلام التي لا سبيل للاستيقاظ منها؛ لأنها ليست سوى سلسلة من الكوابيس.

أمسك رجل بحزمة من المسابح؛ مسابح إجلاء الهموم، وهو ينادي: «عشرون يورو، مصنوعة من حجر جميل جدًّا». كان صوته

مليئًا باليأس والشكوى، فبدا نداؤه مثل التماس، ولكن ثمَّة ابتسامة جنونية تجتاح وجهه.

«أيبدو من هيئتي أني أملك عشرين يورو؟» قلتُ، وانصرفتُ عنه.

رفعتُ بصري صوب المباني المصطفَّة حول الساحة والشوارع التي تخترقها. ثمَّة شرفات ذات مظلات، وراودَني شعورٌ بأنَّه كانت هنا حياة أفضل ذات يوم؛ فرثاثتها وجمالها الذاوي يحكيان قصة الهجران. ثمَّة كتاباتٌ ورسوماتٌ على الجدران، شعارات غاضبة لم أستطع فهمها، وثمَّة مقاهٍ، وكشكٌ لبيع الزهور وآخرَ لبيع الكتب، والقوم يحاولون بيع المناديلَ أو الأقلام أو شرائح الهواتف المحمولة. كان هؤلاء القوم مثل الذباب الذي يطن حول مدخل المترو، وهو يتبع المسافرين لحظة نزولهم عن السلالم الكهربائية.

بيَّاعُ المسابح لا يزال واقفًا بجانبي، ولا تزال ترتسم على وجهه الابتسامة ذاتها؛ الابتسامة المثيرة للغيظ. حاول إقناعي بالشراء مرَّة أخرى:

«خمسةَ عشر يورو. إنها مصنوعة من حجر جميل جدًّا». اقتَنَصَت ألوانُ المسابح الضَّوءَ. رخام وعنبر وخشب ومرجان وعرق اللؤلؤ. تذكَّرتُ المسابح في السوق في حلب. ثمَّ قرَّب الرجل المسابح من وجهي وقال:

«اثنا عشر يورو. إنها جميلة جدًّا!».

دفعْتُهَا بعنف عن وجهي بظاهر يدي، فتبيَّن لي أنَّ الذعر استبدَّ به.

فرجع إلى الوراء، وأنزَلَ مسابحه.

أظهرتُ له كلتا راحتي يديَّ وقلت له: «أنا آسف. أنا آسف». أومأ الرجل برأسه واستدار لينصرف فأوقفْتُه قائلًا:

«أيمكنك أن تدلّني على شارع إلپيدا؟».

«إلپيدا؟».

أومأتُ برأسي بالإيجاب.

«زيتاس إلپيدا؟». أطرق الرجل رأسَه وتمتم بعض الكلمات باليونانية. ومن ثمَّ قال: «أتبحثُ عن الأمل؟ فكلمة «إلپيدا» تعني الأمل. وما من أمل هنا». ارتسمَ الحزن في عينيه الآن، ولكنّه ما لبث أن ضحك بعدئذٍ ضحكةً خافتةً بينه وبين نفسه وقال ببطء: «إلـ-پيـ-دوس»، مركِّزًا على لفظي الخاطئ للاسم وقال: «شارع إلپيدوس». وأشار إلى جهة اليمين، إلى شارع يبعد عن الساحة بقليل، وتابع طريقه، ممسكًا مسابحه مثل جائزة، والابتسامة مرتسمة على وجهه.

عبَرتُ الساحة وانعطفتُ في شارع اصطفَّت الأشجار على جانبيه. كان في آخر هذا الشارع صف طويل من اللاجئين خارج مبنى له أبوابٌ زجاجية. ثمَّة عربات أطفال وكراسي ذات عجلات وأطفال، وأهل البلد يتحرَّكون يمنةً ويسرةً عبر الفوضى ومعهم كلابُهُم. فُتِحَت الأبوابُ فخرج بعض اللاجئين حاملين الحقائب، بينما دخل آخرون. عند الزاوية حشدٌ من الناس، بعضهم واقف، وبعضهم الآخر جالس على الدَّرَج خارج مجموعة أخرى من الأبواب الزجاجية. كان الناس

يسلِّم بعضُهم على بعض ويتجاذبون أطراف الحديث. حالما رأى الأطفالُ أصدقاءَهم هرعوا إلى الشارع حتى يلعبوا. كُتِبَ على اليافطة المعلقة على المدخَل: مركز الأمل. وثمَّة أمر يكتنف كل هذا جعلني أشدَّ عزمًا على المغادرة.

لاحظتُ أن النساء والأطفال كانوا يمضون إلى الداخل، بينما بقي الرجال في الخارج؛ وقد جلس بعضهم على الدَّرَج، بينما نظر آخرون عبر النوافذ، وعاد بعضهم إلى الساحة. انتظرتُ، أحومُ في مكاني، ثم جاء رجلٌ إلى الباب؛ كان يضع نظَّارةً شمسيةً عاكسة على رأسه، ما لبث أن أنزلها على أنفه وهو يخطو نحو الخارج. ذكَّرُوني بضبَّاط الشرطة في مخيَّم ليروس... وبينما كنت موشكًا على أن أستدير وأطفق راجعًا حيَّاني الرجل تحيَّة حارَّة باللغة العربية، وأوضح لي أنَّ هذا المركز مخصَّصٌ للنساء والأطفال فقط، مكانٌ يمكن لهم أن ينعموا بحمَّام ساخن وفنجان قهوة، حيث يمكن للأطفال أن يلعبوا وللأمهات اللاتي ولدن حديثًا أن يرعين أطفالهن.

عدتُ إلى المتنزَّه واصطحبتُ عفراء ومشينا معًا إلى ساحة فكتوريا. كانت هادئة، تشمشم الهواء مثل كلب، وهي تكوِّن على الأرجح صورًا في ذهنها لما تشمُّه من روائح -روائح القهوة، والقُمامة، والبول، والأشجار، والزهور.

في مركز الأمل رحَّبَ بنا الرجل ذو النظارة العاكسة، وأعطيت عفراء رقمًا بحيث يتسنَّى لها أن تأخذ مكانها في الطابور حتَّى تستحم. طُلِبَ مني أن أعود بعد بضع ساعات. نظرتُ نظرةً خاطفةً عبر النافذة،

فرأيتُ إلى اليمين، وراء إطار خشبي، الأطفالَ يلعبون. ثمَّة لوحاتٌ على الجدار، وأحجار ليغو وكرات وألعاب شطرنج ونرد وما إليها على الأرض. ثم أُخِذَ بيدِ عفراء لتجلس على كرسي، وأعطيت فنجان قهوة وصحن بسكويت. كانت تبتسم، ولذا غادرتُ المكان.

عدتُ أولًا إلى الساحة ووجدتُ مقهى إنترنت. لم أتحرَّ رسائل بريدي الإلكتروني منذ مدة وكنت آملُ أن تكون قد وصلتني أخبار من مصطفى.

12/ 4/ 2016

عزيزي نوري،

حَضَرْتُ الأسبوع الفائت عشاءً أقيم للاجئين والتقيتُ هناك رجلًا وامرأة. المرأة تعمل مع اللاجئين في مقاطعة قريبة، حيث تساعد القادمين الجدُد على التأقلم. أمّا الرجل، فنحّال من أهل البلد. قلتُ لهما إنَّ لدي فكرة تتمثَّل في تعليم النِحَالة للاجئين والباحثين عن العمل. وقد أعجبتهما الفكرة أيَّمَا إعجاب! وهما يساعدانني على تأسيس المشروع ببعض التمويل المحلّي. وآمل أنّي سأتمكّن قريبًا من إقامة الورش للمتطوِّعين.

خلايا النحل تزدهر يا نوري! فالنحل البريطاني الأسود مختلف جدًّا عن النحل السوريّ. فقد ظننتُ بأنه لن يستطيع العيش أبدًا في درجات حرارة تقل عن خمس عشرة درجة مئوية، ولكن هذا النحل

يعيش في درجات حرارة أخفض بكثير؛ لا بل إنّه يستمرّ في نشاطه أثناء المطر. إذ يجمع النحلُ الرحيقَ من الزهور المنتشرة على طول خطوط السكك الحديدية والحدائق الخاصة والمتنزّهَات.

يا عزيزي نوري، لا أعرف أين أنت. في الليل أفتحُ الخريطة وأمدُّها على الأرض وأحاول أن أتخيَّل أين صارت بك الأيام. أنا بانتظارك.

مصطفى

حتَّى في البريد الإلكتروني أستطيع سماع البهجة في صوت مصطفى مرَّة أخرى، أسمعُ تلك الصبيانية البريئة التي حمَلَتْه ونقَّلَتْه على دروب الحياة.

عزيزي مصطفى،

أنا آسفٌ لأني لم أتواصل معك، آسفٌ لأنَّ القلق استبد بك. أعدكَ بأني لن أعدم الوسيلة في الوصول إلى إنجلترا. مررنا بأوقات عصيبة. أنا وعفراء مقيمان في پيديون تو آريوس، وهو متنزَّهٌ كبير في مدينة أثينا. إني أعاني الأمرَّين في سبيل إيجاد أو حتى تخيُّل سبيل للخروج من هنا، ولكننا سنخرج من هنا ونصل إنجلترا في القريب العاجل. معظم الناس عالقون هنا. يأتي عدد كبيرٌ من اللاجئين ولا يغادر منهم سوى القليل. ولكني أملك المال وكذا جوازات السفر. أنا بحاجة لأن

أقوم بشيء ما قريبًا لأني أخشى أننا لا نستطيع البقاء هنا مدة أطول.

لم تغب عن بالي أنت وأسرتك. أفكِّر بحقول الخزامى والخلنج والنحل الأسود في إنجلترا. إن العمل الذي تقوم به مذهلٌ. عندما أصل إلى هناك سوف نعمل على هذه المشاريع سوية.

سأجد سبيلًا للوصول إليك

نوري

غادرتُ مقهى الإنترنت واتَّخَذْتُ لي مجلسًا على مقعد قرب الكلب شبه الميت، الذي رفع جفنًا متثاقلًا، بدرجة خفيفة جدًّا، ومن ثم عادَ سيرته الأولى محملقًا في أقدام المارَّة. جاء رجلٌ وجلس قربي. وضع هاتفه المحمول ودفتر ملحوظاته في حضنه. طرق بأصابعه على الدفتر ومن ثم نظر إليَّ نظرةً خاطفةً، ومن ثم جالت عيناه في أرجاء الساحة ونظر بحيطة وحَذر. لاحظتُ أنَّه كان يتصبَّبُ عرقًا، فقلت له:

«أتنتظرُ أحدًا؟».

أومأ الرجل برأسه بالإيجاب، وهو ما يزال ذاهلًا. ثم سألتُه:

«من أي البلاد أنت؟».

«من سوريا».

«من مناطق الأكراد؟».

نظر إليَّ وأومأ بالإيجاب. بادَلَ ابتسامتي بابتسامة، ولكنَّ ذهنه كان شاردًا في مكان ما. أخيرًا جاء رجلٌ وامرأة. فقال لهما:

«ظننتكما لن تأتيا. هل أحضرتما معكما كل شيء؟».

«أحضرنا كل ما طلبته منا» قال الرجل.

«فلنذهب. فهو ينتظرنا منذ مدة لا بأس بها، ولن يسرَّه تأخُّرُنا».

أردتُ أن أسأل من هو الشخص الذي سيقابلونه، ولكنَّ الرجل وضع هاتفه المحمول ودفتر ملحوظاته في حقيبته، ورمقني في عينيَّ، والثقة تملؤه الآن، ثم قال: «سررتُ بمعرفتك. أتمنَّى لكَ يومًا مفعمًا بضوء الصباح». وقبل أن أنبس ببنت شفة غادروا ثلاثتهم في اتجاه محطة المترو.

خرَجَتْ عفراء من مركز الأمل تفوح منها رائحة الصابون، ووجهُهَا ناعمٌ ومتألِّقٌ بسبب الكْريم، وقد ارتدت حجابًا جديدًا. أدركتُ فجأةً سوء الرائحة التي تفوح مني. قلتُ لها ونحن نمشي عائدين إلى المتنزَّه: «عفراء، إنَّ رائحتي مقرفة».

«نعم» قالت وهي تحاول ألَّا تبتسم.

«عليَّ أن أجد مكانًا أستحمُّ فيه».

«بالتأكيد».

«الرائحة سيّئة».

«جدًّا».

«يمكنك على الأقلّ محاولة الكذب بخصوص ذلك!».

شممتُ إبطيَّ، وهالتني المفاجأة من درجة تعوُّدي الكبيرة على الرائحة، ثم قلت: «رائحتي كرائحة الشوارع». فقالت:

«رائحتكَ كرائحة مجاري الصرف الصحيّ». ما كان منّي إلّا وانحنيتُ وحاولت أن أقبِّلَهَا فكوَّرَتْ وجهَهَا ودفعتني عنها ضاحكة، في تلك اللحظة بالذات كنَّا كلانا على حقيقتنا التي اعتدنا أن نكونها.

بينما دخَلْنَا المتنزَّه وسرنا بين ظلال الأشجار، ثقلت أطرافي، ونشف فمي من استحكام القلق بي، وأنا أتذكَّر كل حدث جرى في هذا المكان.

«هذه أكبرُ سماء رأيتُها في حياتي!» قال صبي صغير للفتاة التي بجانبه. ثم رفَعَا بصرَهما إلى السماء وكذلك فعلتُ أنا. لم يكن ثمَّة غيومٌ ذلك اليوم ولا ريح، الشمس قوية وتألقَّت المنطقة بألوان خضراء وصفراء، بمذاق أشهر الصيف الوشيكة؛ وانطلاقا من أوراق الشجر، البعيدة خلفنا، بدت السماء كبيرة وزرقاء ومشرقة، تكاد تكون في اتِّسَاعها مثل السماء فوق الصحراء، وفيها وعودُ الأمل لهذا الصبيِّ الذي قال للفتاة:

«عندما يحلُّ الليل ستمتلئ السماء بالنجوم. وسنكون قادرين على تمنِّي الكثير من الأمنيات».

ومثل صبيّ صغير، تمنَّيتُ أمنيةً من السماء الزرقاء. تمنَّيتُ أن أصلَ إلى إنجلترا. رفعتُ بصري نحو السماء وملأتُ ذهني بتلك الأمنية. تخيَّلتُ النحل الأسود وخلاياه. تذكَّرْتُ رسالة مصطفى الإلكترونية. وتذكَّرت ردِّي عليها. سأجد سبيلًا للوصول إليك.

مضينا في طريقنا إلى مكاننا على اللحاف. صرير الجداجد بات أعلى الآن. لم يعد التوأمان بعدُ؛ وبقي لحافهما حيث تركاه، المظلة لا تزال مفتوحة وجاثمة على جانبها، وتحتها حذاء رياضي جديد.

عندما جُنَّ الليل وصلت أنجيليكي، متدثِّرة بلحاف، واتَّخَذَت مجلسها قرب الشجرة بجانب عفراء. كانت تحكُّ قشور الجروح على ذراعيها؛ فقد بدأت الجروح الصغيرة تشفى. وبينما عدَّلَتْ وضعية اللحاف، وفتَحَتْه لكي تلفَّ به كتفيها بإحكام أكبر، لاحظتُ أنَّ ثدييها توقَّفَا عن نزِّ الحليب، ولم يبقَ سوى آثاره الناشفة على كنزتها البيضاء. ثم شرعتْ تحدِّثني عن أثينا، وحكَت لي قصصًا سمِعَتْهَا عن الحضارة القديمة. حكت لي كيف رأت فريقًا من طلاب الآثار الشباب ينقِّبُون بحثًا عن الكنوز قرب محطة موناستيراكي، وحكت لي عن العالَم المخفيِّ تحت الكنائس، وما لبثت أن هدأت فيما بعد. ثمَّ أخرجت بودرة الطَّلْق من حقيبتها ودهنت بها وجهها وذراعيها، ومن ثَمَّ رشفت الماء ببطء ونظَرَت إلى الأولاد وهم يلعبون؛ ويداها في حضنها.

باتت رائحة الطلق ودندنات أنجيليكي مألوفةً لي. وصارت عفراء شخصية مختلفة عندما تحضر أنجيليكي. فقد استوت في جلستها وأصغت إليها حتَّى وإنْ لم تفهم كلَّ ما كانت تقوله، ولشدَّمَا اعتادت

أنجيليكي في الغالب وضع يدها على ذراع عفراء، أو لكزها لكي تتأكد من أنها كانت تعيرها انتباهَهَا.

«أولن تقولي لي من أين أنتِ؟» قلتُ لها حالما غطَّت عفراء في النوم.

«أنا من الصومال، إذا كنتَ مصرًا على معرفة ذلك».

«لماذا لم تريدي أن تقولي لي ذلك؟».

حلَّت رباط رأسها، وعدَّلته ثم فثبَّتته مرَّة أخرى.

«لا رغبة لي في الحديث في الأمر لأنه يكسر قلبي».

لذتُ بالصمت. فربّما لم ترغب في الحديث معي لأنِّي رجل، فقد يكون رجلًا ذاك الذي تسبَّب لها بجروح غائرة. لم أشأ إجبارَها على سرد قصتها، ولكنّها ربَّمَا استشعرت قبولي وساعدها ذلك على أن ترتاح؛ لأنها قالت: «كان هناك النزر اليسير من الطعام. ألمَّتْ بنا مجاعةٌ قاسيةٌ. فاضطررت للمغادرة ولذا ذهبتُ إلى كينيا. كنت حامل، ولم أرد لطفلتي أن تولد في وطني، وأن تعاني مثلما عانيت». صمَتَتْ وبقيتُ أنا صامتًا. ثم أردَفت: «في كينيا عشت في مخيَّم كبير يدعى مخيَّم داداب ولكنهم قالوا إنَّ هذا المخيم على وشك أن يغلق. فقد ظنوا أن مقاتلي حركة الشباب الصومالية يستخدمون المخيَّم لتهريب الأسلحة. وكان هناك عددٌ كبير منا. أرادوا التخلُّص منا، أرادوا رَمْيَنَا كما تُرْمى النفايات. ولذلك غادرتُ المخيَّم وقمت برحلة طويلة إلى هنا».

توقَّفَتْ عن الكلام ورأيت أنها كانت تبحث في حقيبتها عن شيء ما. أخرَجَت منها بعد البحث محفظة صغيرة.

«لقد أخذوا مني طفلتي عندما وصلتُ أثينا. في هذه المحفظة خصلة صغيرة من شعرها. ذات ليلة عندما كنتُ نائمة في هذا المتنزَّه، أخذها أحدُهم من بين ذراعيَّ. أعرف أنهم وضعوا مخدِّرات في الماء الذي أشربه، سمَّمُوه بحيث لا أستطيع أن أستيقظ؛ لأنّي أستيقظ في العادة على أي حركة صغيرة وأي صوت خفيف تحدثه. فكيف لهم أن يأخذوها من دون علمي؟ لقد سمَّمُوني، أعرف ذلك».

تكسَّر صوتُهَا فلم أطرح عليها مزيدًا من الأسئلة، ولكنّي أستطيع الجزم بأنّها كانت تفكّر بطفلتها الآن، وأنَّ ذكريات الصومال وطفلتها معًا تشغلان فكرها وتلهبان أحاسيسها، بالطريقة التي عاودتني فيها ذكرى حرارة الصحراء السورية ورملها وأحاطت بي وأجَّجَت قلبي. نار المخيَّم ساطعة الآن ووجهها جميلٌ ومنحوت في ضوء النار، ولكن بودرة الطَّلْق منحتَها سحنة شاحبة.

«كما تعلم، أحيانًا أتذكَّرُ بأن بلادي جميلة جدًّا؛ فهي تطل على المحيط الهندي وهو يتلألأ زرقة ويبدو مثل الجنَّة. ثمَّة رمالٌ وشاطئ ذهبيان، صخور وبعض المنازل مثل قصور بيضاء. المدينة صاخبة بحركة المقاهي والمحلات. ولكن الوضع هناك سيء جدًّا». نظرَت إليَّ الآن للمرة الأولى وأردفت: «لا أستطيع العودة، لأني عندما أكون في الصومال فلا شيء ينتظرني في المستقبل، إذ لا شيء ينذر بوجود مستقبل. أما هنا، في هذا المكان، فثمَّة مستقبل».

«أثمَّة مستقبل؟ حسبتكِ قلتِ خلاف ذلك؟».

فكَّرت في الأمر مليًا بضع دقائق ثم ما لبثت أن قالت: «هذا ما ظننته».

لاذت بالصمت برهةً ثم قالت: «أريد أن أجد عملًا، ولكن لا أحد يريدني. ما من فائدة تعود بها معرفة اللغة الإنجليزية في هذي الديار. فالناس هنا لا يحبونني. فحتَّى اليونانيون لا يستطيعون إيجاد عمل. وهم يبيعون المناديل في الشارع. كم عدد المناديل التي يحتاج الناس شراءها؟ ربَّمَا تكون هذه المدينة مدينة البكاء؟» ضَحِكَتْ في تلك اللحظة، وذكَّرَتني ضحكتها فجأة بالضحكة التي كنت قد سمعتُها عبر النافذة في المدرسة.

في صباح اليوم الموالي كانت أنجيليكي قد ذهبت، وكانت عفراء ترسم وقد جلسَتْ شابكةً ساقيها على اللحاف، مستخدمة كلتا يديها حتَّى تخلق صورة. أمسكت بيمينها قلمَ الرصاص، وتبعَتْ برؤوس أصابع يسراها حزوز العلامات المكتوبة على الصفحة. ثمة لوحةٌ قيد التكوين وبدت مثل مكان من حلم، صحراء تلتقي مدينة، الخطوط والأبعاد معوَجَّة، الألوان متداخلة، ولكني رأيتُ روح عفراء في الخطوط المرسومة على الورق، رأيتُ الطريقة التي بدا فيها أنها تتحرك ممتلئة بالنور والحياة.

«هذه اللوحة لأنجيليكي» قالت، وعندما فرغت من الرسم طلبت مني أن أضعها تحت اللحاف حتى لا تطوِّحَها الريح بعيدًا.

ذهبنا إلى مركز الأمل. تركتُ عفراء هناك واتَّجهتُ صوب الساحة،

آملًا أن أرى الرجل الذي صادَفْتُه البارحة. جلستُ على المقعد ذاته منتظرًا. في لحظة ما مرَّ بيَّاع المسابح متوجهًا صوب المترو. ألقى عليَّ السلام رافعًا مسابحه. ثم صاح:

«هل وجدتَ شارع إلپيدوس؟».

«قد فَعَلْتُ، شكرًا لك».

«إلپيدا تعني الأمل» قال مرَّة أخرى، مثلما فعل في المرة الفائتة، وهو يرمي بكسرة خبز بائتة على الأرض للكلب، بيد أن الكلب لم يُحرِّك ساكنًا.

بعد مُضيّ زهاء ساعة لمحتُ الرجلَ الذي كنت أبحث عنه واقفًا قرب التمثال في الساحة مع مجموعة من الشباب والصَّبايا الآخرين. كانوا يدخنون ويضحكون وكان من بينهم موظفتا إغاثة من منظمات غير حكومية، ترتديان قمصانًا خضراء وتحملان حقائب ظهر. انتظرتُ حتى افترق معظم أفراد المجموعة وجلس الشابّ على جدار واطئ؛ وكان قد فتح دفتر ملحوظاته آنئذ وشرع يكتب. بدا أكثر ارتياحًا مما بدا عليه في اليوم السالف.

نهضتُ وجلست بجانبه. كان منهمكًا في الكتابة في دفتره مدة طويلة ولكنَّه رفع بصره ونظر نظرةً خاطفةً في آخر الأمر ليرى من كان يجلس بجانبه. فقلتُ له:

«أيمكنني أن أسألكَ سؤالًا؟».

«بالطبع» أجاب ولكنه واصل الكتابة.

«أريد العثور على مهرِّب. لا أدري إذا كنتَ تستطيع مساعدتي. لقد راودني شعورٌ بأن الرجل والمرأة اللذين رأيتُهُما البارحة إنما ذهبا للقاء مهرِّب».

أغلق الشاب دفتره عندئذ وعدَّل من جلسته على الجدار بحيث صار قبالتي. ثم ابتسم وقال: «أنتَ دقيق الملاحظة».

«أنا على صواب إذن؟ يمكنك مساعدتي؟». فقال:

«معظم المهربين الجيدين يقيمون في المدرسة. يمكنني أن أعرِّفَك بهم. إلى أين تريد الذهاب؟».

«إلى إنجلترا».

ضحك، مثلما ضحك كل من سمع رغبتي تلك. وقال: «أمجنون أنت؟ أو ربما تكون فاحش الثراء؟ فإنجلترا أكثر البلاد كلفةً، زد على ذلك أنها أصعبُ البلاد من ناحية الوصول إليها».

«ولماذا تعدُّ مكلفةً جدًّا؟».

«لأن الوصول إليها هو الأصعب من بين كل البلاد. كما أنَّ الناس يظنون بأنهم سيكونون في أمان أكبر هناك وأنَّ هناك فرصة جيدة لأن تُمدُّ لهم يد العون، طالما أنهم سيحصلون على حق اللجوء».

تنبَّهْتُ للمال الذي في حقيبتي. لو عرف أحدهم بأن معي مالًا، لقتلني في سبيل الظفر به.

«اسمي بارام» قال وهو يمد يدَه مصافحًا، ثم أردف قائلًا: «أأنتَ

جاد في مسعاك؟».

«نعم».

«أتريد مني أن أرتب لك الأمر؟».

«بالتأكيد».

أخرج هاتفًا من حقيبته وابتعد عنِّي عدَّة أمتار، وهاتَفَ أحد الأشخاص بضع دقائق قبل أن يعود.

«وكم عددكم؟».

«اثنان».

«أيمكنك أن تلتقيني غدًا في الواحدة ظهرًا في أحد المقاهي في شارع أشارنون[1]؟».

أومأتُ بالإيجاب، ولكنِّي بدأت أحسُّ بالغثيان وتبلَّلَ قميصي عَرَقًا.

أعاد بارام هاتفه إلى حقيبته وجلس مجدّدًا بجانبي وقال: «سألتقيكَ هنا في الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة غدًا وأصطحبك إلى المقهى. تأكَّد من إحضار جوازات سفركما وأرجوك ألَّا تتأخر عن الموعد، فلن يسرَّه ذلك».

«هل عليَّ أن آتي بالمال معي؟».

(1) بات هذا الشارع يسمَّى الآن بشارع المُهرِّبين.

«ليس الآن».

* * *

في تلك الليلة استولت امرأتان تحملان عديد الحقائب على لحافَي التوأمين ومظلتهما واختصَّتَاهما لنفسيهما. كنت موشكًا على ردع هاتين اللاجئتين الجديدتين من الجلوس عليهما، وأمنعهما من أن تصير الملاحف منزلهما الجديد، ولكن خَطَر في بالي أنَّ التوأمين ربما لن يعودا. فما فتئت أتوقَّع أن يعاودا الظهور، وأن يأتيا ويجلسا مرة أخرى، ضاحكين ومتشاجرين ولاهيين بهاتفيهما. هالَتْنِي الدهشة إذ لم أرَ توترًا ينتاب المرأتين من وجودهما هنا؛ بل نظرتا حولهما نظرات مشوبة ببعض الرضا، وكأنهما جاءتا من فورهما من مكان أشدّ سوءًا بكثير. خلعتا حذاءيهما قبل أن تخطوا فوق اللحاف، وبعد مرور حوالي نصف ساعة، بعد إجراء بضع مكالمات هاتفية وأكل بعض التفاح، بدأتا تغزلان شيئًا ما من خيوط ملوَّنَة. جلست إحداهما قبالة الأخرى وشرعت إحداهما تحيك فيما أمسكت الأخرى بنهاية الخيط.

في موضع آخر، ثمَّة بضعة رجال يلعبون الورق ويضحكون. ومن ثم بدؤوا غناء أغان بالأوردية، مطعَّمة ببضع كلمات عربية. هبَّت الرِّيح وجلبت معها رائحة التوابل والدفء، نار المخيم تفرقع، وثمَّة أحدهم يطبخ. صارت پيديون تو آريوس مثل وطن جديد للاجئين: فقد صُفَّت الأحذية بجانب البطانيات والخيام، وتدلَّت الثياب من الأشجار، وانتشرت ألعاب الورق والموسيقى والغناء، وعلى أنّه كان

يفترض بي أن أجد بعض الطمأنينة في هذا، إلا أنّي، وعوضًا عن ذلك، شعرتُ بالاختناق بسبب هذه البقايا المتوهجة، بقايا حياة بائدة.

سحبتُ الحقيبةَ وأدْنَوْتُهَا من صدري. فهذا المال الذي فيها سبيلنا الوحيد للخروج من هنا، وسنلتقي المهرِّب في اليوم الموالي. لم يغمض لي جَفنٌ بسبب ذلك. وعوضًا عن النوم استويتُ جالسًا طوال الليل قرب عفراء، مصغيًا إلى الأصوات القادمة من الغابة، منتظرًا الشمسَ حتى تشرقِ وتُلْبِسَ أوراقَ الشجر لونَها الذهبي.

في اليوم الموالي مضيتُ وعفراء إلى ساحة ڤكتوريا، ومع أنّنا وصلنا قبل الموعد بنصف ساعة، فقد كان بارام ينتظرنا هناك سلفًا، جالسًا على المقعد، ودفتره في حضنه، يكتب. وقف عندما رآنا وقال إنه علينا أن ننتظر هناك برهةً، بحيث لا ندخل إلى المقهى مبكّرين جدًّا؛ فحتّى المهرِّب لن يروق له ذلك أيضًا. عاود الجلوس وواصَل الكتابة. حاولتُ أن أقرأ ما كان يكتب، ولكنّ خطَّ يده كان صغيرًا جدًّا. في جلدة الدفتر صورةٌ لامرأة شابّة ترتدي بزَّة عسكرية. فقلت له:

«من تكون المرأة التي في تلك الصورة؟».

«صاحبتي. لقد ماتت. وأنا أعيد كتابة يوميَّاتي».

«تعيد كتابتها؟».

لم ينبس ببنت شفة مدة طويلة فيما تابعتُ بأنظاري الكلب شبه الميت، الكلب الذي كان يرفع بصره الآن ناظرًا إليَّ هازًّا ذيله.

«عندما وصلتُ تركيا قبض الجيشُ عليَّ» قال بارام، مطلقًا العنان

للكلمات بنَفَس واحد، ثم أردف: «كنّا جميعًا واحدًا وثلاثين شخصًا. قبضوا علينا وفتشونا جميعًا. أخذوا ثلاثةً منّا وتركوا الباقين يكملون رحلتهم».

«لماذا؟».

«لأنّنا أكراد. كنتُ أكتب يوميّاتي، ولم أنقطع عن كتابتها طوال سنتين، وقد وجدوا الدفتر في حقيبتي ورأوا كلمةً واحدةً، كلمة واحدة فقط: «كردستان». ثم اقتادوني إلى السجن وقالوا: «ما تلك الكلمة؟» فقلت: «كردستان». اضطررت لأن أقولها لأنّهم عرفوها سلفًا، لذا فقد حبسوني شهرًا وثلاثة أيام، ومن ثم أخلوا سبيلي. ولكنّهم أخذوا جواز سفري وتسعمئة يورو وأحرقوا دفتر يوميّاتي. المال وجواز السفر ليسا مهمين لي، ولكن حياتي مدوّنة في دفتر اليوميّات، وقد بكيتُ عندما أحرقوه. أخذوا بصمات أصابعي وبصمات عيوني، ودفعتُ مئتي يورو للحرّاس حتّى يتركوني، وركضتُ إلى قرية كردية. ومن هناك اتصلت بوالدي». أغلق دفتره، وأراح يده عليه. فقلتُ:

«ولماذا لا تزال هنا؟».

«أحاول جمع ما يكفي من المال للمغادرة. أخي في ألمانيا. وأريد الوصول إلى هناك قبل أن يتزوّج».

عند المدخل المؤدّي إلى المترو، اقترب بيّاع المسابح من الناس وهم ينزلون عن السلالم الكهربائية.

«أرجو أن تتمكّن من حضور عرس أخيك». قالت عفراء.

سرنا ثلاثتنا معًا إلى شارع أشارنون. عندما وصلنا المقهى، أشار بارام بحذر صوب رجل يجلس وحيدًا في أقصى الزاوية اليسرى. كان يرتدي سترة صوفية سوداء ذات ياقة مرتفعة وجاكيتًا جلديًا أسود ويشرب قهوة باردة بمصَّاصة من كأس بلاستيكية. ثمة ما يثير الضحك بصورة مباشرة في هيئة هذا الرجل، ولكن عندما عاودتُ النظر إلى بارام لأسأله فيما إذا كان هذا هو الشخص الصحيح، لم أرَ بارام، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها على الإطلاق.

أخذت بيد عفراء على مضض صوب الطاولة التي جلس إليها الرجل الذي كان يشرب الآن آخر ما بقي من قهوته محدثًا صوتًا أثناء الشرب. ألقيتُ عليه التحيَّة باللغة العربية.

رفع الرجل بصره وكأنَّه لم يكن ينتظر أحدًا. ومن ثم ودون أن يقول أي كلمة نزع الغطاء عن قهوته وأدخل أصابعه داخل الكوب البلاستيكي، محاولًا الإمساك بمكعب ثلج.

«أنا نوري وهذه عفراء. يفترض أنك تنتظرنا».

تمكَّن الرجل من الإمساك بمكعَّب الثلج ثم ألقمَه في فمه، وهو يعضُّ عليه. ثم قلت:

«ألا تعرف اللغة العربية؟».

«أُقعدا» قال بالعربية.

قعدنا... ربما كنتُ متوترًا، أو ربّما شابت شائبة صمتَ هذا الرجل، ولكنّي بدأتُ الحديث كيفما اتفق وقلتُ له: «التقينا بارام في

الساحة، وقال إنَّك تستطيع مساعدتنا، وقد اتصل بك البارحة وطلبَ منَّا أن نحضر جوازات سفرنا، وهذا ما فعلته، هذه جوازاتنا معنا هنا».

«ليس الآن» قال بصورة مباغتة، فأوقَفَتْ كلماتُه يدي وهي في مسار حركتها. ابتسم، وربّما كان انصياعي المفاجئ سبب ابتسامته، ومن ثم قَرَشَ بقوة أكبر ضاغطًا على مكعب الثلج، مقطبًا وجهه بطريقة جعلته يتخذ شكل وجه صبي عمره تسعة أعوام. كم من المذهل المقدار الكبير للقوة التي يمتلكها هذا الطفل-الرجل؛ في الحياة الطبيعية كان سيعاني الأمرين على الأرجح ليتدبر أموره المعاشية في بقالة خضار في حارَة خلفيَّة في دمشق. ثمَّة بريقٌ من كآبة ويأس يشوب عينيه، مثل الرجال الذين رأيتهم في الغابة.

«هذه زوجتك؟» قال لي.

«نعم، اسمي عفراء».

«أنت كفيفة؟».

«نعم» قالت بوضوح، وإنْ بنبرة استهزاء في صوتها لا يمكن لأحد أنْ يتلقَّفَها سواي، وكدتُ أسمعها تتبعها بعبارة: «يا لكَ من رجل ذكي!» فقال:

«هذا جيِّد. امرأة مسكينة كفيفة، هذا أقلّ إثارة للشكوك. ينبغي لكِ أن تنزعي ذلك الحجاب وتصبغي شعرك بالأشقر». ثم قال لي: «لا شيء كثير يمكننا أن نجريه لكَ لتغيير هيئتك، ولكنّك لستَ صفقة خاسرة كليَّة. أنتَ بحاجة إلى حلاقة أنيقة، وقميص نظيف. واعمل

على تعديل تعابير وجهك».

اهتزَّ على الطاولة هاتف الرجل وأومض. فنظر نظرة خاطفة إلى الشاشة فتغيَّرت ملامح وجهه، واختلجت وجنته، وعضَّ على نواجذه. قلب الهاتف على وجهه على الطاولة.

«إلى أين تريد أن تذهب إذن؟».

«إلى إنجلترا».

«ها!».

«ما من أحد إلَّا وضحك على رغبتي تلك» قلت له.

«أنتَ طموح والرحلة مكلفة!».

أطرقتُ برأسي، وأصابني المال الذي في حقيبتي بالتوتر. أحسستُ وكأني كنت أحمل حقيبة مليئةً بالبيض.

«ألفا يورو إلى الدِّنْمَارك. وثلاثة آلاف إلى ألمانيا». قال المهرِّب. صمَت ثم ما لبث أن أردف: «الأفضل لكَ أن تذهب إلى واحد من هذين البلدين».

«وكم الكلفة إلى إنجلترا؟».

«سبعة آلاف يورو كلفة إيصالكما معًا». فقالت عفراء:

«سبعة آلاف! يا لَلجنون! وكم كلفة السفر بالطائرة من هنا إلى إنجلترا؟».

ضحك الرجل مرة أخرى، فأشاحت بوجهها والتفتت عنه. فقال:

«هذه ليست رحلة سياحية إلى إنجلترا. فأنتما تدفعان لقاء خدماتنا. فإنجلترا مكان مميَّز، إذ ستنعمان بالأمان، كما أنَّ إيصالكما إلى هناك أصعبُ علينا؛ فذلك سبب الكلفة الإضافية».

بدت عفراء وكأنّها أرادت أن تبصق عليه. لكزتُها على قدمها بقدمي، وقلتُ:

«هذا هو السبب الذي يدفعنا إلى الذهاب إلى هناك. نحن متعبان، متعبان الآن حقًا. ولكن كلّ ما في الأمر أنه ليس في جعبتنا ذلك المبلغ من المال».

«وكم معكما؟».

«خمسة آلاف».

«نقدًا؟».

نظرتُ متوخيًا الحيطة والحذر.

رفع الرجل حاجبيه وقال: «وهل تتجوَّل في هذه المدينة ومعك ذلك المبلغ من المال في حقيبتك؟». فقلتُ:

«لا، معي جزء من المبلغ نقدًا أما الباقي فمودعٌ في حساب خاص. مستعد لعمل أي شيء، سأجد عملًا لجني المال. سأجمع القمامة، وأنظف السيَّارات أو النوافذ أو أي شيء».

«ها! أين تحسب نفسك؟ فحتى أهل البلد لا يستطيعون إيجاد عمل».

«يكفيني هذا النقاش» قالت عفراء، وهي تنهض لِتَهُمّ بالذهاب. أمسكت ذراعَها. ما إن رأى الرجلُ اليأسَ يسكنني إلّا وابتسم قائلًا:

«أيمكنك أن تعمل عندي؟».

«أي نوع من العمل؟».

«توصيل الطلبيات ولا شيء أكثر من ذلك».

«فقط؟».

«الآخرون ليسوا سوى أطفال، ولا يستطيعون السياقة. أريد شخصًا يستطيع السياقة. أتستطيع سياقة السيارة؟».

أومأتُ برأسي بالإيجاب.

«يمكنك أن تعمل عندي ثلاثة أسابيع. وإذا أبليتَ بلاءً حسنًا، فسأقبل عندئذ مبلغ خمسة آلاف يورو عنكما أنتما الاثنان».

«اتفقنا» قلتُ، ومددت يدي لأصافحه، ولكنه عوضًا عن ذلك ابتسم ابتسامة عريضة ثم ضحك ضحكةً خفيفةً.

لاذت عفراء بالصمت مجددًا، ولكني استشعرتُ غضَبَها.

«عليكما أن تأتيا وتقيما معي» قال الرجل.

«لماذا؟».

«حتى أضمن أنك لن تهرب بالسيَّارة والبضاعة».

كان ما بقي من مكعب الثلج في الكوب البلاستيكي قد ذاب الآن، فانحنى الرجل إلى الأمام، واضعًا المصَّاصة في فمه، وشرب كما كان يفعل من قبل مصدرًا صوتًا أثناء الشرب.

«وبتلك الطريقة أعرف بأنك لن تهرب لأني سأحتفظ بعفراء... هذا هو اسمكِ، أليس كذلك؟». وقبل أن تجيبه، رفع يده وطلب من النادل ورقةً وقلمًا ليدوِّن عليها عنوانًا.

«قابلني هنا غدًا في العاشرة مساءً. وإذا لم تأتِ، سأفترض أنك غيَّرتَ رأيكَ».

عندما عدنا إلى المتنزَّه كان الظهر في أوله. كان الأطفال يلعبون بالكرة في الفسحة المفتوحة الواقعة بين الخيام والبطانيات. فيما كان أطفال آخرون يتنازعون أمرَهم بسبب البلِيْ. بنى طفلان قرية على الأرض من الحجارة وأوراق الشجر. بعَثَتْ فكرةُ مغادرة هذا المكان فيَّ القوة، ومنحتني الأمل، ولكني وجدت نفسي فيما بعد أنظر بتمعن إلى جموع الأطفال، آملًا أن أرى محمَّدًا بينهم. بحثتُ عن تلكما العينين السوداوين، والطريقة التي امتلأتا بها بالخوف والأسئلة، أكاد أراه واقفًا أمامي. سامي هو الذي اختفى من أفكاري، ومهما بلغ بي الجهد لمحاولة بعثه من جديد، لاستحضار صورة عنه، فلم أفلح في ذلك.

كانت أنجيليكي جالسةً سلفًا تحت الشجرة، تنتظرنا. وجهها

مغطىً ببودرة الطلق مرة أخرى ويداها موضوعتان في حضنها. ثمَّة سكونٌ يكتنفها عندما تكون على هذه الحال، عزلةٌ لم أتحمَّل مشاهدتها. في مكان ما في البعيد ثمَّة طفل يبكي فرأيت أنَّ ثدييها عاودا نزَّ الحليب مرة أخرى؛ الرائحة القوية للبن الرائب تفوح منها.

طلبت مني عفراء أن أخرجَ اللوحة من تحت اللحاف ثم أعطَتْهَا لأنجيليكي.

«أنتِ رسمتها؟».

أومأت عفراء بالإيجاب وقالت: «هذه لكِ».

حملقت أنجيليكي في اللوحة ومن ثم حملقت في عفراء، حملقةً مديدةً، ورأيتُ عينيها تزدحمان بالأسئلة ولكنها لم تنبس ببنت شفة لبرهة؛ بل جلست واللوحة بين يديها، وهي تنظر إليها نظرات خاطفة من وقت إلى آخر ومن ثم رفعت بصرها مرة ثانية، إمّا صوب الأطفال اللاعبين أو صوب أمر ما في عقلها، ثم قالت:

«هنا أخفوا كل شيء لا يريدون للعالم أن يراه. ولكن هذه اللوحة، ستذكِّرُني بعالم آخر، بعالم أفضل». وربّما عرفت أننا مغادران، لأنها بدأت تبكي، لذا سهرت طوال الليل بجانب عفراء مباشرة، مستلقية قربها، وهي تريح يدها على ذراعها، ومن ثم نامتا هناك معًا طوال الليل، مثل أختين أو صديقتين صداقة ضاربة الجذور في عمق الزمن.



12

هو ذا صباح اليوم الذي تلا يوم المقابلة. ديوماندي والمغربيُّ في غرفة الجلوس يحتسيان مشروبهما المفضَّل الجديد: الشاي بالحليب. لا بدَّ أنهما سمِعَاني وأنا أنهض، لأنه يوجد كوبٌ يتصاعد منه البخار ينتظرني على مائدة الطعام. أنضمُّ إليهما؛ لأن عفراء لا تزال نائمة.

وكوب الشاي الدافئ في يدي أخطو صوب الأبواب الزجاجية لكي أنظر إلى الخارج. الفناء اليوم يتوهَّج بضوء الشمس. لقد ملأت العصافير شجرة الكرز المتوضعة في منتصف الفناء بجذورها الملتوية، لا بدَّ أنه يوجد زهاء ثلاثين عصفورًا فيها، وكلُّها تزقزق وتشقشق. حديقة صاحبة البيت في الخلف تمتد فوق السور الخشبي، بأزهارها الحمراء والأرجوانية، وقد تساقطت البَتَلاتُ على بلاطات الرصيف. أجد المفتاح خلف الستائر وأفتح الأبواب لأسمح للهواء ورائحة البحر القادمة من بعيد بالدخول.

ديوماندي يحكي للمغربيِّ عن المقابلة.

«أظنها جرَت على نحو جيِّد جدًّا» يقول، وابتسامتُه عريضة جدًّا حتى إنها ترتسم على وجهه كاملًا.

يشدُّ المغربيُّ على يدِه مشجِّعًا.

«أجبتُهما كما علَّمْتَنِي. فقد حكيتُ لهما عن أمِّي، عن أختي، عن الحياة الصعبة. ولكنهما سألاني بعض الأسئلة الغريبة جدًّا».

«مثل ماذا؟».

«ما عنوان النشيد الوطني. وطلبوا مني إنشادَه».

«وهل فعلتَ ذلك؟».

يقف ديوماندي ويضع يده على صدره ويشرع في الإنشاد، ولا تزال تلك الابتسامة العريضة ذاتها مرتسمة على وجهه:

«لكِ منَّا السَّلام، يا أرض الأمل،

يا بلاد الكرم،

جحافلُ جندِك الميامين المكتملة الصفوف

استعادَت كرامتكِ.

يا ساحل العاج الحبيبة، أبناؤك

بناةٌ فخورون بعظَمَتِكِ،

احتشدوا جميعًا يدًا بيد لإعلاء مجدك،

وسوف نبنيكِ والفرح يغمرنا.

يا مُواطِنِي ساحل العاج الفخورين، إنَّ البلاد تنادينا.

وإذا كنَّا قد ردَدْنَا لها الحرية بسلام،

فالواجب يحتم علينا أن نكون قدوة تحتذى

في الأمل الموعود للبشرية،

إذ نوطِّدُ، ونحن متَّحدونَ في إيمان جديد،

منبع الأخوة الحقَّة».

«أتستطيع إنشادَه باللغة الإنجليزية؟».

يومئ ديوماندي بالإيجاب.

«وهل أنشدَته لهما بالإنجليزية؟».

«نعم».

«لماذا؟ ما المشكلة؟» أقول.

«كلمات النشيد ترسمُ صورةً إيجابيةً جدًّا!».

يجلس ديوماندي مرّة أخرى، منكسر الخاطر ويقول: «ولكني قلتُ لهما؛ قلتُ لهما إنَّ الحياة قاسية جدًّا. حكيت لهما عن ليبيا والسجن والضرب الذي تعرَّضتُ له حتى ظننتُ أني سأموت. قلتُ لهما إنَّ حياة أختي وأمي صعبة بسبب الحرب الأهلية. قلت لهما إنِّي

بلا عمل وإنَّ أمي أرسلتني إلى البحث عن حياة أفضل. قلت لهما كل هذا. قلت لهما إنَّه يوجد أمل هنا. فهنا ربَّمَا أجدُ عملًا. يمكنني أن أنظِّف، أنْ أطبخ، أن أدرِّس، فلديَّ مهارات عديدة».

صمتت العصافير الآن وظَهرُ ديوماندي محدودبٌ جدًّا حتى إنّ النتوءين تحت قميصه بدَوا وكأنَّهما ينفتحان ثم أضاف: «حكيتُ لهم أيضًا عن مقدار الجمال هناك؛ جمالِ بلادي، ومقدارِ حبِّي العظيم لأن أكون هناك».

المغربيُّ مستغرقٌ في التفكير، وهو يحملق إلى الخارج صوب الفناء، وأحيانًا ينظر إليَّ نظرات خاطفة وسؤالٌ يتردَّدُ بين عينيه، ولكن أيًّا يكن ذلك السؤال فهو لا يطرحه عليَّ.

يقرِّر ديوماندي الذهاب إلى مدينة الملاهي إذ يقول: «أستطيع سماعَها، أستطيع سماع هذه الموسيقى المجنونة طوال الوقت ورؤية الأضواء فوق البحر. هلّا ذهبنا؟».

يبتهج المغربيُّ متوقِّعًا أن يحظى برفيق فيقول: «جيزير، هيا بنا! عندما نرى الأضواء والبحر ونسمع الموسيقى، فإنَّ كلّ مشاكلنا وهمومنا ستصير مثل حبَّة رمل صغيرة».

يصرًّا على أن أذهب معهما. ها هما يجرَّانني جرًّا، كل واحد يمسكني من يد، إلى الدَّرَج حتى أصعد إلى الطابق العلوي وأتهيَّأ للذهاب.

عندما أذهب إلى غرفتنا أجد أنَّ عفراء ارتدت ثيابها سلفًا وهي

جالسةٌ مرَّة أخرى على طرف السرير، ولكنَّها كانت تبكي هذه المرَّة. أنحني أمامها. الدموع تنهمرُ من عينيها مثل أنهار قاتمة، فأقول لها: «ماذا هناك يا عفراء؟».

تمسحُ وجهَهَا بظاهر يدها ولكن الدموع لا تكفُّ عن الانهمار.

«منذ أن حكيتُ للطبيب عن القنبلة، وتلك القصة هي كل ما يشغل بالي. أرى وجه سامي. أرى عينيه تتطلَّعان إلى السماء. أيُّ إحساس راوَدَه يا ترى؟ أكان يتألَّم؟ ماذا أحسَّ عندما رفَعَ بصرَه إلى السماء؟ أَعَرَفَ أنِّي كنتُ هناك؟».

أضع يدَها بيدي ولا أستطيع الإمساك بها مدة طويلة جدًّا، لأني أحسُّ بالحرارة ترتفع عبر عمودي الفقري ومن ثم تمتد إلى عنقي وتَلجُ داخل رأسي. أطلق يدها من يدي وأقف بعيدًا عنها.

«أنا ذاهب لأتمشَّى مع المغربي».

«لكن... أنا...».

«أنا ذاهب لأتمشَّى معه ومع ديوماندي».

«حسنًا، وقتًا ماتعًا»، تقول بهدوء. لا أزال أستطيع سماع كلماتها -فثمَّة حزن عظيم جدًّا في صوتها- وحتى ونحن نمشي عبر الرصيف الخشبي وندخل مدينة الملاهي، وتكتسح أذنيَّ عاصفةٌ من أصوات الزحلوقات والقلَّابَات وسيَّارات الألعاب الكهربائية. يتردَّد صدى عبارة عفراء «وقتًا ماتعًا» في رأسي، حتَّى عندما يتحدَّث ديوماندي عن ساحل العاج قائلًا:

«البحر هناك مثل الكريستال، ولا يشبه هذا البحر. هذا البحر يبدو مقرفًا. لا يشبهه! البحر هناك يشبه السماء. صافٍ جدًّا! يمكنك أن ترى كلّ الأسماك الصغيرة سابحة فيه. إنه كالبلّوْر. وعندما تغيب الشمس يصير كل شيء أحمر... السماء والبحر. ينبغي لك أن ترى هذا المنظر! كلّ شيء أحمر». يلوِّح بيده عبر السماء فأتذكَّر لوحات عفراء. نمشي قرب الكاسر البحري، بحيث نصير قريبين من الماء.

نجلسُ في مقهىً في رواق تطلُّ عليه المحلات. تفوح منه رائحة كرائحة الخل وعصير الفاكهة المثلَّج. مع المغربي بعض العملات المعدنية في جيبه، لذا يبتاع لنا نحن الاثنان شرابًا أحمرَ لامعًا نشربه ونحن نتفكّر في السماء ونحكي عن ساحل العاج. مذاق الشراب كمذاق البلاستيك المنكَّه بالكرز وقد أُضيفَ إليه الثلج المجروش.

«أنتَ صامتٌ جدًّا»، يقول لي ديوماندي، عيناه السوداوان تلتمعان في ضوء الشمس وقد اكتستا لونًا بنيًا دافئًا الآن.

«كيف شكل البحر في سوريا؟» يسألني المغربيُّ، فأجيبه:

«أنا أعيش قرب الصحراء. الصحراء خطرةٌ كالبحر وجميلةٌ مثله».

ثم نجلس ثلاثتنا هناك صامتين مدة طويلة، محملقين عبر البحر، ونحن نتخيَّلُ أوطاننا، على ما أظن، نتذكَّر ما فقدناه، نتذكَّر ما تركناه وراءنا.

في موعد عودتنا، تغرب الشمس، وتهبُّ ريح قوية عبر الرصيف البحري حتى أحدثت في أساساته صريرًا وجلجلةً.

في منزل الإقامة المؤقت، لا أجد عفراء في غرفة الجلوس ولا في المطبخ، بل أجدُهَا في غرفة النوم، مستلقية في السرير هذه المرة وجهُها لا يزال مبللًا بالدموع. تُمْسكُ البِلْيَةَ بين أصابعها وتدوِّرُها. وأحيانًا تدوِّرُهَا فوق شفتيها، أو على معصمها.

لا تقولُ لي أيَّ كلمة عندما أدخل الغرفة، ولكن عندما أضطجع إلى جانبها تقول لي: «نوري، هل وصَلَتْكَ أيُّ أخبار من مصطفى؟».

«ألن تَكُفِّي عن سؤالي عن ذلك؟» أقول لها.

«لا. فهو سبب وجودنا هنا!».

ألتزم الصمت. ثم تقول:

«أنتَ تائهٌ في العتمة يا نوري. إنَّها الحقيقة. لقد تُهْتَ كليًّا في مكان ما في العتمة».

أنظر إلى عينيها، وقد فاضَتَا خوفًا وأسئلةً وتوقًا، وكنت قد حسبت أنّها هي من كانت تائهة، كنت أحسب أن عفراء هي من علق داخل الأماكن المعتمة التي في ذهنها. ولكنّي أستطيع ملاحظة سرعة خاطرها الكبيرة، ومقدار الجهد الذي تحاوله حتى تصلَ إليَّ. أمكث هناك حتى أتيقَّن أنها نامت ومن ثم أنزل إلى الطابق الأرضي.

غرفة الجلوس هادئة الليلة، والمغربيُّ في المطبخ يتحدَّث عبر الهاتف المحمول، وهو يذرع المكان جيئةً وذهابًا، رافعًا صوته بين الفينة والأخرى. استحمَّ ديوماندي بعد زيارة مدينة الملاهي وبقي في غرفته. ثمَّة نزيلان أو ثلاثة متحلِّقين حول مائدة الطعام يلعبون الورق.

أجلس إلى الحاسوب. ضوء التلفاز يتوهَّجُ في الغرفة.

أدخل إلى حسابي البريدي بسرعة قبل أن تلوح فرصةٌ في أن أغيِّر رأيي. وجدتُ رسالة واردة من مصطفى.

11/ 5/ 2016

عزيزي نوري،

أسَائِلُ نفسي إذا نجَحْتَ في الخروج من أثينا. إذ يشق علي أن أجلس هنا غير عارف إذا كنتَ وعفراء في مكان آمن. وأتمنَّى أن تكونا في طريقكما إلينا. هطل المطر اليوم، طوال النهار، وأنا أشتاق إلى الصحراء وسطوع الشمس. ولكنّ ثمَّة أمورًا جيّدة هنا أيضًا يا نوري، وأتمنَّى لو أنك هنا حتى ترى ذلك. إنه مكان مليء بالألوان، يفيض بالزهور الآن في الربيع. لقد أقَمْتُ قبل مدة قصيرة الورشة الثالثة في جدول ورشي الأسبوعية المخصَّصة للمتطوّعين. إحدى الحاضرات امرأة سورية وصلت إلى هنا صحبة أمها وابنها، وثمَّة لاجئة كونغولية في جعبتها ذكريات عن جني العسل في الأدغال، وطالبةٌ أفغانيةٌ تسأل سلفًا كيف يمكنها أن تربيِّ أول ملكة نحل!

عندي حاليًا ستّ خلايا نحل لتدريب المتطوعين على تربية النحل والمشروع ينمو أسبوعًا إثر أسبوع. هذا النحل لطيف، وليس كالنحل السوري. أستطيع حتى أن أجمع العسل دون ملابس واقية، وأعرف بأن النحل موشك على أن يتخذ موقفًا عدائيًا لأنَّ نغمة طنينه تتغيَّر.

إنها لتجربة مذهلة أن أقف بين النحل مكشوفًا على ذي الحال، وباتت معرفتي به كبيرة. طنينه جميل، فعندما تسمع غناءه ستملأ العذوبة قلبك حتى الثمالة.

ولكن أحيانًا يذكّرني هذا الصوت بكل ما خسرناه وأفكر دائمًا بك وبعفراء. أتمنّى أن تصلني رسالة منك قريبًا.

مصطفى

أكتب ردًّا وأرسله له:

عزيزي مصطفى،

لقد نجحتُ وعفراء في الوصول إلى المملكة المتحدة. وقد مرَّ الآن على وصولنا إلى هنا أكثر من أسبوعين. أعتذر عن عدم التواصل معك فور وصولنا. فقد كانت رحلة شاقة جدًّا. نحن نقيم في منزل إيواء مؤقت في أقصى جنوب إنجلترا بجانب البحر. ينبغي لي البقاء هنا حتى أنهي مقابلاتي وحتى يتبيَّن لي إذا ما مُنِحْنَا حق اللجوء. أنا قلقٌ يا مصطفى. أنا قلقٌ إزاء احتمالية إجبارنا على مغادرة إنجلترا. سرّني كثيرًا جدًّا أن سمعت عن مشروعك. أتمنَّى لو أني أستطيع أن أكون معك هناك.

نوري

أفكِّر بالنبرة الباردة التي كتبتُ بها رسالتي، أفكِّر بمسألة المدة الطويلة جدًّا التي قضيتها هنا ولم أتواصل مع ابن خالتي. فأنا هنا بسببه، وقد هربت من أثينا مدفوعًا بالأمل والإرادة اللتين بثَّهُمَا فِيَّ، ولكن الكآبة التي بداخلي أطبقت عليَّ الخناق نوعًا ما.

ولذا أرسلُ له رسالةً أخرى:

يا مصطفى، لا أظن أنني بخير. فقد انهارَ عقلي مذ وصلت إلى هنا. وأظنني تائهًا وسط العتمة.

وأنا موشكٌ على الخروج من حسابي البريدي الإلكتروني تصلني رسالة بريدية إلكترونية:

نوري!

أنا في غاية السرور أنْ بلغني نبأ وصولك إلى المملكة المتحدة أخيرًا. إنَّ هذا لخبر رائع! أرجو أن ترسل لي عنوان المكان الذي أنتَ فيه.

أجدُ العنوان مكتوبًا على رسالة في غرفة النوم وأطفق راجعًا إلى الحاسوب، حيث أنسخُه وأرسله إليه. لا أزيد على ما كتبته لمصطفى ولا يأتيني ردٌّ بعد هذا.

أخرُّ نائمًا في الكرسي ذي المساند، وعندما أستيقظ أجد العتمة وغرفة الجلوس الفارغة. ولكني أستطيع سماع صوتَ البِلْيَة وهي تتدحرج على الأرضية الخشبية. أول الأمر، لا أستطيع رؤيَة محمَّد ولكني بعد ذلك أُدرِكُ أنَّه جالسٌ تحت الطاولة مرتديًا القميص

الأحمر والسروال القصير الأزرق اللَّذَين كان يرتديهما آخر مرة رأيته فيها.

أجثو حتى تحاذي عينيَّ عينيه. «ما الذي تفعله تحت الطاولة يا محمَّد؟». فيقول:

«هذا منزلي. منزل خشبي، مثل المنزل الذي في قصة الخنازير الصغيرة الثلاثة... أتذكُرُ عندما حكيتَ لي تلك القصة؟».

«هل حكيتُ لك تلك القصة؟ فأنا لم أحكِ لكَ سوى قصة واحدة من قبل، قصة مدينة النحاس. الشخص الوحيد الذي قرأتُ له تلك القصة كان سامي، بعد أن وجدتُ الكتاب في أحد الأيام في كشك في السوق». لا يصغي إليَّ؛ فهو مشغول بدفع البِلْيَة على مسار شقوق الخشب، ومن ثمَّ يدسُّها تحت السجَّادة.

«أتحب منزلي؟ فهذا المنزل لا ينهار مثل المنازل التي في الوطن. أليس منزلًا جميلًا يا عمِّي نوري؟».

ثمَّة ألم حاد في رأسي، ألم مفاجئ وشديد جدًّا يُلْجِئُنِي إلى الوقوف وإغماض عيني والضغط بأصابعي بقوة على جبيني.

يشدُّ محمَّد سترتي ويقول: «عمِّي نوري، هلَّا أتيتَ معي».

«إلى أين؟».

يدسُّ يده في يدي ويأخذني إلى الباب الأمامي. حالما أفتحُه ألاحظ وجود شيء غير طبيعي؛ في الأمام، خلف المباني، تومضُ

السماءُ بألوان بيضاء وحمراء؛ ومن موضع ليس ببعيد جدًّا يصدرُ صريرٌ حاد؛ اصطدام معدن فوق معدن، مثل مخلوق يُجرجر إلى الموت، وعندما تهبُّ الريح تجلب معها رائحة النار وأشياء تحترق ورماد. أسيرُ عبر الشارع، ويد محمد في يدي. المنازل دمَّرَتها القنابل وتبدو مثل جِيَف ووراءها ضوءُ السماء المومضة. نتابع مسيرنا على الطريق. محمد يجرجر قدميه في التراب. التراب سميك جدًّا، وكأننا نسير عبر الثلج. ثمَّة سيارات محترقة، حبال غسيل متدلية من شرفات مهجورة، أسلاك كهربائية تتدلى خفيضةً فوق الشارع، أكوام من القمامة على الأرصفة. تفوح منها كلِّها رائحة الموت والإطارات المحروقة. في البعيد يرتفع الدخان في حلقات داخل الأفق. يسحبني محمد من يدي ونسير على الطريق عبر الرابية، حتى نصل إلى نهر قويق. ثمَّة أمواج في النهر وهو أشد قتامة من المعتاد. فيقول محمَّد:

«هذا هو المكان الذي كان فيه الصبية، ولكني كنت أرتدي الأسود ولذا لم يروني، لم يُغْرِقُوني في النهر. لقد تولَّى الله حمايتي». يقول محمَّد ثم ينظر إليَّ بتلكَ العينين السوداوين الواسعتين. فأقول له:

«نعم. لا بدَّ أن الله حماك». ثم يقول:

«هذا هو المكان الذي فيه كل الأطفال، كل أولئك الذين ماتوا. إنهم في النهر ولا يستطيعون الخروج».

عندما أنظر من كثب أكثر ألاحظ وجودَ أطراف بشرية في النهر، ووجوه. لا أستطيع رؤية شيء سوى خطوط عامة مشوشة في العتمة، ولكنِّي أعرف ما هي. أتراجع خطوةً إلى الوراء. فيقول محمَّد:

«لا، لا تخف. عليكَ أن تنزل إلى الماء».

«لماذا؟».

«لأنّها الطريقة الوحيدة حتّى تعثر علينا».

أتقدَّمُ خطوةً إلى الأمام. الماء شبه معتم ومع ذلك أستطيع رؤية تلك الظلال المنزلقة تحت سطحه.

«لا يا محمَّد، لن أنزل إلى هناك».

«لماذا؟ أأنتَ خائف؟».

«طبعًا خائف!».

يضحك ثم يقول: «في العادة أنا من يخشى الماء! فكيف تبادَلْنَا الأدوار؟».

يخلع حذاءه بقوة ويشرع في النزول.

«يا محمَّد، لا تنزل!» يتجاهَلُنِي، وهو ينزل أكثر، الماء يرتفع فوق ركبتيه ووركيه ومن ثَمَّ يغمر صدره.

«محمَّد! إذا لم ترجع الآن فإني سأغضبُ شديد الغضب!» ولكنّه يواصل السير. أتقدَّمُ خطوة إلى الأمام، ومن ثَمَّ خطوة ثانية وثالثة حتى يصل الماء إلى مستوى فخذيَّ. شيءٌ ما ينسل قربي مثل سمكة أو أفعى. أمامي بمسافة قصيرة يلمَعُ شيءٌ صغيرٌ على سطح الماء القاتم، أغرفُه من الماء داخل يديَّ، فإذا به



مِفْتَاحُ

وُضِعَ على راحة يدي المفتوحة، وقال المهرِّب: «البيت بيتكم» وابتسم ابتسامة عريضة حتى بانت في الجزء الخلفي من فمه سنًّا فضّية. شقَّتُه بعيدةٌ قليلًا عن وسط مدينة أثينا، في موقع ليس ببعيد جدًّا عن البحر. صعدنا ثلاث طبقات من الأدراج لأنّ المصعد كان معطّلًا. كانت شقّة صغيرة تفوح منها رائحة التوابل البائتة.

في آخر ممرّ ضيق ثمَّة مساحةٌ غريبة الشكل يعوزها التناسقُ مخصّصة للجلوس تتفرَّع منها ثلاث غرف. كلّ نافذة تواجهُ الجدران القرميدية وأنظمة التهوية الخاصّة بالمباني المحيطة. عرَّفنا المهرِّب بنفسه بأسلوب لَبِق باسم قسطنطينوس فوتاكيس. هَالَتْنِي المفاجأة من أنَّ اسمه يوناني بينما كان يتكلَّم العربية مثل واحد من أبنائها، ولكن وبينما تفرَّسْتُ ملامحه ولون بشرته، شقّ عليَّ أن أعرف من أيِّ البلاد هو.

المفتاح الذي أعطانيه كان مفتاح غرفة النوم. في الغرفة فَرْشَةٌ لشخصين على الأرض وسجّادة فراء عتيقة تُستَخْدَم بمثابة لحاف. فاحت رائحة عفنة، وانتشر العفن الأخضر على الجدران. بإمكاننا أن نسمع طنين فتحات التهوية وهديرها. كان جدار المبنى المقابل يبعد مقدار ذراع وتجمَّعت الحرارة والبخار الصاعد من الشقق الأخرى في الفراغ بين المباني واستقرَّت في الغرفة.

لم تكن الشقّة مكانًا مريحًا للنوم، ولكنَّها أفضل من المتنزَّه. لم أكن متأكّدًا إذا ما كانت أكثر أمانًا مع ذلك؛ فثمَّة خطبٌ ما يكتنف السيِّد

فوتاكيس، خطٌّ قضَّ مضجعي؛ وربَّمَا سبب ذلك ضحكته الخفيضة الجشَّاء، وخاتمه الذهبي المميَّز الموضوع في خنصره. لا بل إنه كان حتى أكثر ثقة الآن مما كان عليه حاله في المقهى. ولكنه كان أيضًا ودودًا؛ إذ رحَّب بنا في شقته وكأننا أفراد من أسرته، بل أصرَّ على حمل حقائبنا وإدخالها إلى غرفة النوم. أرانا مكان الحمَّام، وعلَّمَنَا كيفية استعمال الحنفيات لأن الماء الساخن يصير باردًا أحيانًا، ثم استعرض محتويات البرَّاد وطلب منا أن ننل بغيتنا مما فيه كما نشاء. تلقَّيْنَا معاملة كضيوف مميَّزين. على طاولة قهوة صغيرة خضراء وبرونزية انتشرت أعقاب مطفأة لسجائر الحشيش وعملات ورقية مطوية من فئة العشرين جنيهًا استرلينيًا، ما أكدَّ لي نوع البضاعة التي سأقوم بتسليمها.

لاحقًا في تلك الليلة زار السيِّدَ فوتاكيس صديقاه. انسلَّا معًا داخل الأريكة ثم تشاحنا على الإمساك بجهاز التحكُّم، وكأنَّهُمَا طفلان. بدا في مظنتي أنَّهُمَا شقيقان، أحدهما ربلٌ قليلًا، والآخر أطول قامة بكثير، ولكنَّ ملامحهما متشابهة، لكليهما جبين مقطب عميق وأنف طويل وعينان قريبتان جدًّا من بعضهما بحيث بدوا دائمًا وكأنَّهما مذعوران قليلًا.

في حوالي العاشرة ليلًا زوَّدني السيِّد فوتاكيس بالتعليمات الخاصة بأول عملية تسليم بضاعة أقوم بها. ثمَّة خمسة صناديق بيضاء يجب أخذها جميعها إلى بقاع مختلفة في أثينا. أعطاني العناوين، والترتيب الذي ينبغي وفقه تسليم الصناديق وأسماء الأشخاص الذين سيستلمون الطرود أو ألقابهم. كما أعطاني أيضًا هاتف آي فون جديد، عليَّ استعماله في العمل فقط؛ وإذا اتَّصلت منه بأي رقم آخر فإنه سيعرف ذلك. أعطاني شاحن هاتف خاص بالشاحنة المغلقة وتأكَّد

من أن خدمة البيانات مفعَّلَة بحيث يمكنني استخدام خرائط غوغل.

«والآن، سُقْ بحذر، وإيَّاك أن تتسبَّب في مقتل أحد» قالَ وابتسامة متكلفة ترتسم على وجهه، ثم أردف: «فليس معك تأمين ولا رخصة سياقة».

بينما كنت أستعد للذهاب، كانت عفراء مضطجعة على السرير ممسكة بمفتاح الغرفة في يَدَيْهَا، قرب صدرها. عندما هممتُ بتقبيلها على جبينها والدعوة لها أن تبقى بأمان، أعطتني المفتاح، فقلت:

«لماذا تعطيني هذا؟».

«أريدكَ أن تقفل الباب عليَّ».

«ولماذا لا تقفليه من الداخل؟ في تلك الحالة يمكنك الخروج إذا أردتِ».

ولكن عفراء هزَّت رأسها وهي تقول: «لا، أريدك أن تقفل عليَّ الباب من الخارج».

«أعرف أن هؤلاء الرجال ليسوا أهلًا للثقة، ولكنِّي لا أحسبهم سيقْدِمُونَ على أي شيء».

«أرجوك. لا أريد المفتاح. أريدك أن تبقيه معك. أريد أن أعرف أنه معك».

«أأنتِ متأكدة أنك تريدينه أن يبقى معي؟».

«نعم، متأكدة». لم أفهم مرادها بحق، ولكني وافقتُ، فوضعتُ المفتاح في جيبي الخلفي ولم أكفَّ طوال الليل عن التحقُّق من أنه لا يزال في مكانه. جعلني المفتاح دائم التفكير بعفراء، وهو يذكِّرني بأنَّهَا تنتظرني وحيدةً في تلك الغرفة الرطبة. ذكَّرني المفتاح أيضًا بالجدران القرميدية وفتحات التهوية والرَّجُلين الجالسين في غرفة الجلوس. كما منحني المفتاح الإصرارَ على الصمود، خصوصًا في تلك الساعات الطوال في الصباح الباكر، قبل أن تبدأ الشمس حتّى بالطلوع، عندما كنتُ أسوق السيّارة أميال على طرق لا أعرفها، متجاوزًا ظلال القرى والبلدات البعيدة. أتساءل الآن إن كانت قد أعطتني ذلك المفتاح حتّى تتيقَّن من أنّي أتذكّرها، حتّى تضمنَ أنّي لن أبتعدَ عنها وأتركها هناك إلى الأبد.

كانت ليلة صافية، والسماء مزنّرة بالنجوم. أول عملية تسليم للبضاعة كانت قرب ميناء پيرايوس، غير بعيد جدًّا عن المكان الذي أنزَلَتْنا فيه العبّارة عندما جئنا من ليروس. حرَفَتْنِي خرائط غوغل عن الطريق الرئيس صوب شارع فرعي في منطقة سكنية، حيث الشقق أنيقة ولها كلها مظلات. كان هناك رجل ينتظرني سلفًا، تحت شجرة زيتون، وهو يدخِّنُ سيجارة. ترجَّلتُ من الشاحنة المغلقة البيضاء، وفتحت أبوابها وأعطيته الصندوق. طلب منّي أن أنتظر هناك. ثم دخل إحدى المجمَّعات السكنية، ومكث هناك حوالي عشر دقائق وخرج مرَّة أخرى، وهو يحمل هذه المرة كيسًا أبيض في داخله طرد آخر. طلب منِّي ألا ألمس أو أفتح أي شيء، لأن السيِّد فوتاكيس سيعرف إذا فقِد أيّ شيء من الأغراض.

صارت الساعة الخامسة فجرًا عندما انطلقتُ راجعًا إلى وسط مدينة أثينا وكانت الشمس تشرق فوق البحر، والجبال في الجُزُرِ رمادية مزرقَّة في البعيد. فتحتُ نافذة السيارة حتى يتسنى لي الإصغاء إلى همسات الريح والماء، ولكني سرعان ما انعطفت عن الشريط الساحلي المؤتلق واتَّجهت مباشرة صوب المدينة، المدينة ذات الجدران المليئة بالرسومات والكتابات ومجمَّعات الشقق السكنية وظل الجبال الأسود في البرّ اليوناني.

عندما عدت إلى شقة المهرِّب كان كل من فيها نائما. سمعت الشخير يخرج من غرفة النوم الرئيسة، وألفيتُ الشقيقين نائمين على الأريكة، ذراعا أحدهما ممتدتان فوق الآخر. فتحتُ الباب بالمفتاح ودخلت غرفة النوم. كانت عفراء جالسة في سريرها تنتظرني.

«ألم تنامي على الإطلاق؟».

«لا» قالت وهي تضم ذراعيها إلى ركبتيها.

جلست قربها على السرير وقلت: «ها قد عدتُ الآن، لماذا لا تنامين؟». استلقَت إلى الخلف فرأيت أنها كانت ترتجف مع أنّ الجوّ دافئ ورطب في تلك الغرفة. لم أكترث بنزع ثيابي. فتمدَّدت قربها ويدي تستقر على صدرها، وما لبثت أن غططت في النوم وأنا أصغي إلى دقَّات قلبها.

نمنا كلانا حتى مطلع الظهر. استيقظت بضع مرّات على أصوات الأطباق ومعدّات المائدة في المطبخ، ولكني أجبرت نفسي على الرجوع إلى النوم. لم تكن بي رغبة لأن أكون مستيقظًا في هذا العالم؛

فأحلامي أفضل من الواقع، وأحسب أن عفراء راودها الإحساس ذاته، لأنها لم تتحرَّك لكي تنهض حتى فعلت أنا ذلك.

الليلة الموالية تكاد تشبه سابقتها، باستثناء أن أحد الطرود سلّم إلى رجل في قارب، ثم انطلق في البحر المعتم صوب إحدى الجزر.

توالت الأيام على هذا المنوال، نائما جوار عفراء أثناء النهار، ليس أمامي سوى منظر الجدران القرميدية عبر النافذة وأصوات أجهزة التهوية، ومن ثم أنطلق في أرجاء أثينا وضواحيها في الليل لأسلِّم الطرود إلى أشخاص غرباء.

مرَّت ثلاثة أسابيع أخرى. عشنا على ذي الحال شهرا. استغرق انتظارنا مدة أطول بكثير ممّا وعدنا به السيد فوتاكيس. قال إنه يحاول أن يرتب أمور جوازات سفرنا وسفرنا بالطائرة. ثمَّة أحايين لم أكن أصدِّقُه فيها، عندما جال في فكري بأنّه ذات يوم سيرمينا خارج الشقّة وينتهي بنا الحال عالقَين إلى الأبد في أثينا، كما كان حالنا في پيديون تو آريوس، التي كانت في نظري معادلة للجحيم ذاته.

وذات يوم، طرق باب غرفة النوم. حصل ذلك أول الظهيرة وكنت غافيًا بجانب عفراء. عندما نهضت ودخلت إلى غرفة الجلوس، وجدته يحمل لي كيسا بلاستيكا. في الكيس موادّ صبغة شَعر لعفراء وبعض المقصّات والملاقط ورغوة حلاقة من نوعية جيّدة لي. ثم قال: «أريد منكما أن ترتّبا هيئتكما استعدادا لصور جوازات السفر».

في غرفة النوم، نزعت حجاب عفراء، وحللت عقصة شعرها الأسود واتبعت التعليمات المكتوبة على علبة الصبغة، حيث قسَّمتُ

شعرها إلى خصلات وصبغتها بالخليط الكريه الرائحة. تركنا الصبغة على شعرها ثلاثة أرباع الساعة قبل أن نعود إلى الحمام ونغسله من الصبغة فوق المغسلة. أعطيتُها منشفةً وانتظرتها في غرفة الجلوس. كان السيِّد فوتاكيس قد أعدَّ لنا جميعًا شايًا منعشًا بالنَّعناع -فقد كان يحتفظ ببعض أصص الأعشاب على عتبة النافذة ويبدو أنها نَمَتْ في الجوّ الرطب- وجلسنا كلانا هناك نحتسي الشاي من كؤوس صغيرة.

عندما خرَجَتْ عفراء من الحمَّام بدَت امرأة مختلفة. فقد جعلها الشعر الأشقر نوعًا ما تبدو أطول، وبدت وجنتاها أكثر استدارة، وعلى أن الشعر الفاتح جدًا ينبغي له أن يجعل بشرتها تبدو أشدَّ سمرة، فقد أكسبَها نوعًا ما سحنةً أشد شحوبًا، سحنة بيضاء جدًا، حتَّى أنَّه ذكَّرَني بلون الرَّماد والثلج. أما اللون الرمادي في عينيها فقد ازداد عمقًا وثمَّة بريقٌ فيهما وهي تجلس قربنا.

«أشم رائحةَ نعناع» قالت، فوضع السيد فوتاكيس كأسًا في يدِها. لم يستطع أن يزيح بصره عنها، ثم قال لها ضاحكًا:

«تبدين مختلفة جدًا! مذهلٌ كيف يمكن لشيء معيَّن أن يغيِّر إنسانًا كل هذا التغيير!». ولكن ثمَّة نبرة مغايرة في صوته، النبرة ذاتها التي أصابتني بالاضطراب منذ اليوم الأول الذي قدمنا فيه إلى هنا. لم تكن سوى نبرة الشهوة والطمع التي خشخشت في بلغمه وهو يتحدَّث، ومع أنها نبرة شبه خفية، ولكنَّها لا تخفى على اللبيب.

قصصتُ شعري وحلقتُ حلاقة أنيقة ومن ثم ارتديت قميصًا أبيض مكوي من قمصان السيِّد فوتاكيس. ثم جاء أحدُ الشقيقين، وهو

أطولهما، ليلتقط الصور. وضَعَنَا في بقعة الضوء النازل عبر النافذة وبدأ التصوير حتى حصل على الصور المناسبة.

في الليل واصلتُ عملي في تسليم الطرود. ثمَّة طرودٌ كثيرة جدًا، ومع مرور الأيام صرت في الغالب ألتقي الأشخاص ذاتهم مرة أخرى؛ صاروا يعرفونني ووثقوا بي، وكانوا أحيانًا يضيّفونني السجائر. كنت مستيقظًا فقط في الليل، ولم أعد أرى الشمس بعد الآن. بات وجودي ووجود عفراء مقتصرًا على العتمة.

استلمنا جوازات السفر بعد أسبوع. أسماؤنا الجديدة صارت غلوريا وبرونو باريسي.

«أنتما إيطاليان الآن» قال السيِّد فوتاكيس.

«وماذا إذا سألونا أيَّ أسئلة؟ فنحن لا نعرف أيَّ كلمة إيطالية».

«آمل أن ذلك لن يحصل. ستذهبان من هنا إلى مدريد، بعدها من مدريد إلى المملكة المتحدة. ما من أحد سيعرف أنكما لا تتحدَّثان الإيطالية. وإيَّاكما أن تتحدَّثا بالعربية! التزما الصمتَ قدرَ ما تستطيعان!».

وهكذا حُدِّدَ تاريخُ السفر وحُجزَت التذاكرُ. ابتاع السيِّد فوتاكيس لعفراء فستانًا أحمر مخيطًا من قماش ناعم جدًا ووشاح رمادي حِيْكَ حياكة يدوية وعليه زهور حمراء صغيرة لها لون الفستان ذاته. كان جميلًا ولكنه غيرُ رسميٍّ. كما أعطاها جاكيت جينز، وحقيبةَ يد وحذاءً جديدًا. وأعطاني بنطال جينز، وحزامًا جلديًا، وقميصًا أبيضَ جديدًا

وكنزة بنّية. أراد لنا أن نرتديَ الثيابَ حتّى يتيقّن بأننا سنبدو إيطاليين أصليين. ثم قال باسمًا:

«أنتما ثنائي جميل. تبدوان وكأنكما صورة منزوعة من مجلة».

«كيف تبدو هيئتي؟» قالت لي عفراء لاحقًا وأنا أتهيّأ للانطلاق لتسليم البضاعة.

«لا تبدين كما أنتِ».

«هل أبدو فظيعة؟» قالت.

«لا. لا بالطبع. أنتِ جميلة دائمًا».

«نوري، الآن يستطيع الناس كلهم رؤية شَعْري».

«لن يستطيعوا فعليًا، لأنه ذو لون مختلف».

«ويمكنهم أن يشاهدوا ساقيَّ».

«ولكنهما ساقا غلوريا باريسي، وليس ساقيك».

ابتسمت شفتاها، ولكن عينيها لم تفعلا.

كان من المقرَّر أن نغادر في اليوم الموالي، وفي تلك الليلة حصل أن سلَّمتُ طرودًا أكثر من المعتاد. أقفلتُ الباب على عفراء في الغرفة ووضعتُ المفتاح على طاولة القهوة للحظة حتى أعد الصناديق وأدوِّن عدَدَها في القائمة. في تلك اللحظة دخل السيد فوتاكيس ليبلغني بترتيبات السفر إلى المطار. ومن ثم أعانني في حمل الصناديق إلى الأسفل

ووضعها في الشاحنة المغلقة. لم أنتبه إلى أني نسيت المفتاح إلَّا بعد أن بلغت منتصف الطريق في شوارع أثينا. لم أستطع العودة لإحضاره، فثمَّة عشرة أشخاص ينتظرون استلام البضاعة ولكل واحد منهم موعد محدد؛ وإذا ما تأخَّرتُ عن واحد منهم، فإني سأتأخر عن البقية كلهم. لذا واصلت طريقي وحاولت ألا أفكر بعفراء؛ وقد تذكرتها مرة أخرى فقط عندما كنتُ راجعًا داخلًا المدينة في ساعات الصباح الأولى.

ما إن وصلتُ الشقَّة إلَّا وهرَعْتُ عبر الدَّرَج الملتوي ودخلتُ غرفة الجلوس، ولكني لم أجد المفتاح على طاولة القهوة حيث تركته وكان الباب مغلقًا. قرعتُ الباب ولكن ما من جواب. فهمستُ:

«عفراء، هل أنتِ نائمة؟ هلَّا فتحتِ لي الباب؟» انتظرتُ على تلك الحال وأذني منصتة على الباب، ولكني لم أستطع سماع أي صوت، لا جواب ولا حركة، لذا فقد أسلمتُ نفسي لاقتناص نوم بضع سويعات على الأريكة. كنتُ نائمًا على الأريكة عندما سمعتُ صوت المفتاح في القفل وفُتِحَ الباب. وقفت عفراء هناك. نظرتُ إلى وجهها، وجه زوجتي، وأدركتُ من فوري أن خطبًا جللًا قد وقع. فقد عكَسَ ضوءُ الصَّباح الذي ارتدَّ ارتدادًا باردًا عن جدران المباني الأخرى خدشًا في وجهها، خدشًا أحمر وحديثًا، يمتدُّ من عينها اليسرى إلى خدِّها. شعرها الأشقر متناثر بصورة فوضوية على وجهها. في هذه اللحظة، لم تكن زوجتي. لم أستطع التعرُّف عليها. لم أستطع أن أجدها. قبل أن أقول أي كلمة، أشاحَت بوجهها ومضت راجعة إلى غرفة النوم. وثبتُ واقفًا وتبعتها مسرعًا، وأغلقت ورائي الباب بإحكام.

«عفراء، ماذا حدث؟» سألتُها. جلَسَتْ متكوِّرةً على السرير وقد أدارت لي ظهرَها.

«ألن تقولي لي ماذا حدث؟» وضعتُ يدي على ظهرها فجفلت، فاضطجعتُ قربها دون أن ألمسها أو أسألها مزيدًا من الأسئلة. ولم تتكلَّم مرَّة أخرى حتى مطلع الظهيرة. ولم يغمض لي جفن على الإطلاق. قالت:

«أتريد حقًا أن تعرف ماذا حدث؟».

«طبعًا».

«لأني لستُ متأكدة أنك تريد حقًا أن تعرف ماذا حدث».

«طبعًا أريد أن أعرف».

خيَّم صمتٌ مديدٌ، ثم قالت: «لقد دخل إلى هنا... دخل السيد فوتاكيس إلى هنا. حسبْتُ أنَّ الداخل هو أنت لأنك كنت قد أقفلتَ الباب. لم أكن أعرف أن المفتاح معه. دخل إلى هنا واضطجع بجانبي، في الموضع ذاته الذي تضطجع فيه الآن. فعرفتُ أنه لم يكن أنتَ بسبب رائحة بشرته عندما اقترب مني، وعندما صرختُ وضَع يده على فمي وخدَش خاتمه جانب وجهي، ثم طلب منِّي أن أكفَّ عن الصراخ وإلَّا فإنَّكَ ستعود وتجدني جثةً هامدة».

لم يكن بها حاجةٌ لأن تزيد على ما قالته.



13

السَّماء كبيرة وزرقاء ومليئة بالنوارس. النوارس التي تمخر عبابها وتغطس داخل البحر، ومن ثم تحلِّق صعودًا مرة أخرى، أعلى ثمَّ أعلى ثمَّ أعلى، صوب السماوات. ثمَّة عنقود من النُفَّاخَات المتعددة الألوان فوقي، ترتفع وتصير أصغر حتى تتوارى في البعيد. ثمَّة أصوات حولي، ومن ثم يُمْسِكُ أحدُهم معصمي بيده. هو ذا يفحص دقَّات قلبي.

«دقَّات قلبه قوية» يقول الرجل.

«ما الذي يفعله هنا؟» تسأل امرأةٌ واقفة في ضوء الشمس.

«ربما يكون مشرَّدًا».

«ولكن لماذا هو في الماء؟».

لا أحد منهما يسألني، ولكني لا أحسب أني قادر على الكلام على أي حال. يُفْلِتُ الرجل معصمي ويجرُّني من ذراعَيَّ حتى يبلغ بي الرمل الناشف، ومن ثمَّ يتَّجهُ إلى مكان ما. لا تزال المرأة واقفةً هناك، ناظرةً إليَّ وكأنَّهَا تنظر إلى فقمة. تنزع معطفها وتدثرني به وتلفُّه حول

ذقني. أحاول التبسُّم في وجهها بيد أني أعجز عن تحريك وجهي.

«لا بأس» تقول لي. ثمَّة غصَّةٌ في صوتها، وبريقٌ في عينيها، وكأنها تنظر إليَّ رأسًا على عقب، وأحسب أنها ربما كانت تبكي.

يعود الرجل بعد مدة قصيرة ومعه بعض الملاحف. ينزع كنزتي المبللة ويلف الملاحف الناشفة حول جسدي. بعد برهة قصيرة أرى أضواء زرقاء مومضة وأشخاصًا يرفعونني على نقَّالة، ومن ثم أصير داخل سيارة وأحس بالدفء ونحن نسير بسرعة عبر الشوارع وصفَّارة السيَّارة تصدح بأعلى صوتها. أغمضُ عينيَّ بينما يبدأ المسعفُ الذي بجانبي قياس ضغط دمي.

عندما أستيقظ أجد نفسي على سرير مستشفى، وقد عُلِّقَت الأسلاكُ بين جسدي وجهاز فحص القلب. السرير الذي بجانبي فارغ. تأتي طبيبة لتطلع على حالتي لأنها تريد أن تعرف من أكون وماذا كنت أفعل وأنا نائم على الشاطئ وجسدي في الماء. تقول لي إني كنت أعاني من انخفاض في الحرارة عندما أسعَفُوني إلى هنا. فأقول لها:

«اسمي نوري إبراهيم. كم من الوقت صار لي هنا؟».

«ثلاثة أيام».

«ثلاثة أيام!» أنهض جالسًا بقوة. «ستقلق عفراء عليَّ قلقًا يتاخم الموت!».

«مَنْ تكون عفراء؟».

«زوجتي». أحاول أن أبحث في جيوبي ولكنِّي لم أعد أرتدي بنطالي.

«أرجوكِ، أيمكنك أن تخبريني أين أستطيع العثور على هاتفي المحمول؟».

«لم نجد معكَ أيَّ هاتف».

«أريد أن أتصل بزوجتي».

«أستطيع أن أتصل بها بالنيابة عنك إذا أعطيتني عنوانها».

أعطيها عنوان منزل الإقامة المؤقت واسم صاحبة المنزل، ولكني لا أعرف الرقم. تنهال عليَّ الطبيبة بوابل من الأسئلة: هل تراودك الأفكار في قتل نفسك يا سيِّد نوري؟ كيف حال ذاكرتك؟ أتجد نفسك تنسى أحداثًا مهمة؟ هل تنسى تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة؟ هل تحس بالتوتر أو التيه؟ أحاول أن أجيب عن أسئلتها بأقصى ما أستطيع: لا. فذاكرتي سليمة. لا. لا. لا.

أخضع لتصوير للدماغ. ثم يحضرون لي بعض الغداء، بازلاء وبطاطا مهروسة وقليل من لحم دجاج مشوي ناشف. ألتهمه على بكرة أبيه لأني أكاد أموت جوعًا في هذه اللحظة، ومن ثم أجلس مستويًا في السرير وأدندن أغنية اعتادت أمي أن تغنيها لي. لا أستطيع طرد الأغنية من رأسي. لا أتذكر الكلمات ولكن اللحن لحن تهويدة. ينظر إليَّ بعض المَرضَى الآخرين وهم يمرون بسريري. ثمَّة سيِّدةٌ عجوز تسير باستخدام مشَّاية طبية لا تكف عن الصعود والنزول.

أظنُّها بدأت تدندن الأغنية أيضًا. أنام، وعندما أستيقظ أجد امرأة في السرير المجاور؛ امرأة حامل وتريح يدها على بطنها المنتفخ. إنها تغني الأغنية أيضًا وهي تعرف الكلمات. أقول لها:

«كيف تعرفين الكلمات؟».

تلتفت وتنظر إليَّ؛ الجو معتم وصافٍ وساطع تحت الأضواء الهالوجينية.

«أعرفها مذ كنتُ طفلة» تقول.

«من أيّ البلاد أنتِ؟» أسألها.

لا تجيب. إنّها مستلقية على ظهرها وتحرِّك يدها بحركات دائرية فوق بطنها، مغنّية الأغنية بصورة هامسة إلى طفلها الذي لم يأتِ إلى هذا العالم بعد.

ثم لا تلبث أن تقول: «لقد طلبتُ اللجوء، ولكنَّهم رفضوا منحي إيّاه. وأنا في حالة استئناف ضدَّ قرارهم. مضى على وجودي في هذي البلاد سبع سنوات».

«من أيِّ البلادِ أنتِ؟» أقول مرَّة ثانية، بيد أنّ ذهني يتشوَّش ولا أسمع سوى نبرة صوتها الخافت وأرى اللمعان الناعم للضوء فوقي وقد تلاشى متحوّلًا إلى سواد.

يخيِّم الصمت صباح اليوم الموالي على جناح المَرضى، وما من أحد في السرير المجاور الذي بات فارغًا. ثم تقترب مني ممرضة

وتقول لي إن زائرًا قدم لرؤيتي، فأرى المغربيَّ ماشيًا صوبي.

يجلس في كرسي قرب سريري ويضع يده على ذراعي ويقول: «يا جيزير، لقد انتابنا القلق عليك».

«أين عفراء؟».

«في منزل الإقامة المؤقَّت».

«أهي بخير؟».

«ما رأيك أن تنعم ببعض الراحة وكفاك ذلك؟ سنتحدَّث في الأمر لاحقًا».

«أريد أن أعرف أحوالها».

«وكيف تحسب أحوالها؟ فقد حسبتك ميتًا».

لم ينبس أيٌّ منّا ببنت شفة مدة طويلة. ولا يغادر المغربيُّ من فوره، بل يمكث قربي ويده على ذراعي. لا يسألني إلى أين ذهبتُ أو السبب الذي دعاني لأنام على الشاطئ، ولا أقول له بأنّي مشيت إلى داخل البحر في الليل. لا يسألني أيّ سؤال، ولكنّه لا يغادر أيضًا، وهذا ما يقلقني في البَدء لأن جلَّ ما أريد فعله أن أدندن التهويدة، ولكن بعد برهة يهدِّئ وجودُه من روعي. ثمَّة شيءٌ ما يكتنف صلابَتَه وصمته، شيء يدخل بعض الطمأنينة إلى بالي.

يُخْرِجُ كتابًا من جيبه ويشرع في القراءة، ويضحك ضحكة خفيفة بينه وبين نفسه بين الفينة والأخرى. يبقى قربي حتى يغادر آخر الزوّار

ومن ثم يعود مرة ثانية في صباح اليوم الموالي ليصحبني في خروجي من المستشفى. يأتي ومعه كيس من الثياب. أخلع رداء المستشفى وأرتدي الثياب التي جاءني بها. ثم يقول:

«هذه بيجاما. يسمّيها ديوماندي بذلة الرياضة. وهو يقول إنك سترتاح وأنت ترتديها. لا أفهم الأمر ولكنَّك مضطرٌّ لأنْ تمشي في الشوارع الآن مرتديًا ملابس النوم».

قبيل أن نغادر المستشفى بلحظات تأتي الطبيبة لتطَّلع على حالتي مرَّة أخرى. أنا جاثمٌ على طرف السرير فيما تجلس هي قبالتي في الكرسي المخصَّص للزوّار وبيديها مدوَّنة بيانات المرضى. المغربيُّ واقف قرب النافذة، ينظر إلى مَرْأَبِ السيَّارات.

تقول الطبيبة، متردِّدة، وهي تدسّ شعرَها البني وراء أذنها: «يا سيِّد نوري، إنَّ الخبر السارَّ هو أن التصوير الدماغي أثمر عن نتيجة سليمة، ولكن ممَّا حدث لك وانطلاقا من المعلومات التي زوَّدْتَنِي بها، فإنّي أعتقد أنك تعاني من اضطراب التوتّر الذي يعقب الصدمة. وإنّي لأنصحك شديد النصيحة بأن تسعى لاستشارة طبيبك العام». تقول كلّ ذلك ببطء ووضوح، وهي تنظر إليَّ مباشرة في عيني، ومن ثم تنظر نظرة خاطفة إلى مدونتها، فأسمع تنهيدة خفيفة قبل أن تنظر في ساعتها وتقول: «أيمكنك أن تطمئنني بأنك ستفعل ذلك؟».

«نعم» أقول لها.

«لأنّي لا أريد لك أن تضع نفسك في موقف خَطِر مرَّة أخرى». ثمَّة قلقٌ حقيقي في عينيها الآن.

«نعم، يا دكتورة، أعدك بأنّي سأعمل بنصيحتكِ».

* * *

نستقلُّ الحافلة عائِدَين إلى منزل الإقامة المؤقَّت. نصل هناك مع الضُّحى فنجدُ صاحبةَ المنزل تنفض الغبار عن غرفة الجلوس. ها هي تمشي متثاقلة الخطى على ألواح الأرضية الخشبية منتعلة حذاءها العالي الكعبين حتى تحيينا، وترتدي في يدها قفازًا مطاطيًا أصفر فاقعًا.

«أترغب في شرب كوب شهي من الشاي يا سيِّد نوري؟» تكاد تنطق بالكلمات مغنَّاةً، بيد أني لا أردُّ عليها لأنَّ أمرًا ما في الفناء يشتِّت انتباهي، فعفراء والمرأة الأفغانية تجلسان في الكراسي القابلة للطيّ تحت شجرة الكرز، قرب النحلة. ما إن تراني فريدة حتّى تقول شيئًا ما لعفراء، ومن ثم تقف حتى يتسنَّى لي القعود مكانها.

تلوذُ عفراء بالصمت مدة طويلة جدًّا. كانت قد أمالت وجهها باتجاه الشمس حينما قالت: «أستطيع رؤية الظلال والضوء... عندما يكون هناك الكثير من الضوء فإنّي أستطيع رؤية ظلّ الشجرة. انظر! ناولني يدكَ!».

أضع يدي في يدِها فتجلسُ مادَّة جسدَها إلى الأمام صوبَ الضوء وترفع يدي لتصيرِ أمام عينيها. ثم تطلبُ مني تحريكها من اليسار إلى اليمين، بحيث يتكَّوَنُ ظلٌّ يمر بسرعة قبالة وجهها.

«الآن أرى الضوء» تقول باسمةً، ثم تردف: «والآن أرى العتمة».

أريد أن أبيِّن لها أنَّ ما تقوله يجعلني سعيدًا، ولكني لا أقدر. ثم تقول:

«وأستطيع أن أرى بعض اللون! هناك!» وتشير إلى سطل أحمر في زاوية الحديقة، ثم تسألني: «ما ذاك الشيء؟ أهو شجيرة ورود؟».

«بل سطل» أقول لها.

تُفْلِتُ يَدِيْ وتنقلبُ سحنة وجهها خيبةً. أرى بأنّها تدحرج تلك البِلْيَة بين أصابعها، تمرِّرُها على راحتها ومعصمها. العِرْقُ الأحمر في منتصف البِلْيَة يعكس الضوء فيَشِفُّ. ثمَّةَ طنينٌ ناعم آتٍ من بعيد ما يلبث أن يعلَو تدريجيًّا، وكأنَّ سربًا من النحل يشقّ طريقه إلى هذا الفناء الإسمنتي.

«اشتقتُ إليكَ» أسمعها تقول، «كنتُ خائفة جدًّا». تهبُّ الريح وتهزُّ الزهور وترسلها لتدور حواليها. «أنا في قمَّة السرور لأنّك هنا». صوتُها مليءٌ بالحزن وأنا أتابع البِلْيَةَ بأنظاري.

«لقد نسيتَ مصطفى» تقول.

«لا، لم أنسَ».

«هل نسيتَ النحل والزهور؟ أحسبكَ نسيتَ كلّ ذلك. فمصطفى ينتظرنا ولم تأتِ حتَّى على ذكر اسمه. أنتَ تائهٌ في عالم مختلف. لستَ هنا على الإطلاق. لم أعد أعرفكَ بعد الآن».

لا أنبس ببنت شفة.

«أغمض عينيكَ» تقول لي.

وهكذا أغمض عينيَّ.

«أيمكنكَ أن ترى النحل يا نوري؟ حاول أن تتخيَّله في عقلك. مئات بل آلاف منه في ضوء الشمس، على الزهور، في الخلايا وقرص العسل. أيمكنك أن تراه؟».

في عقلي أتخيَّل أولًا الحقول في حلب والنحل الأصفر الذهبيّ في المناحل، ومن ثمَّ أرى حقول الخلنج والخزامى، فأرى النحلَ الأسود الذي وصفه لي مصطفى.

«أيمكنك أن تراه؟» تقول.

لا أردّ.

«وتظنّ أنّني أنا مَنْ لا يستطيع أن يرى!» تقول.

نجلس صامِتَين مدة طويلة. ثم ما تلبث أن تقول:

«ألن تقول لي؟ ألن تحكي لي ما الذي يؤرّقُك؟».

«لماذا تحتفظين ببِلْيَةِ محمد؟» أقول لها.

تصبح يداها ساكنتين فجأة.

«بِلْيَةُ محمَّد؟» تقول.

«نعم. الصبيّ الصغير الذي قابلناه في إسطنبول».

تنحني إلى الأمام وكأنّها تتلوى ألمًا وتزفر ثم تقول:

«هذه البِلية كانت لسامي».

«لسامي؟»

«نعم».

«ولكنّ محمَّدًا كان يلعب بها!».

لا أنظر إليها الآن ولكنِّي أسمع صوت زفرتها مرَّة أخرى. ثم تقول:

«لا أعرف من يكون محمَّد». ثم تعطيني البِلْيَة.

«الصبيّ الذي سقط عن القارب. ألا تتذكرين؟».

«لم يسقط صبي عن القارب. بل كان هناك فتاة لم تكفّ عن البكاء وعندما غرق أبوها داخل الماء قفزت بعده واضطروا لأن يسحبوها ويخرجوها ويدثروها بأوشحة النساء. أتذكّر ذلك كلّ التذكّر. فقد حكت لي أمُّها كل ما جرى لاحقًا عندما كنّا في الجزيرة قرب نار المخيَّم». تدفع البِلْيَةَ صوبي، وتحثُّني على أن آخذها منها.

آخذ البِلْيَة على مضض. ثم أقول:

«الصبيّ الذي جاء معنا من إسطنبول إلى اليونان. محمَّد، الصبيّ الذي سقط عن القارب!».

تتجاهل ما أقوله، وتكتفي بأن ترمقني بتلك النظرة. فقد أجابت سلفًا عن هذه الأسئلة. ثم أقول لها:

«لماذا لم تخبريني من قبل؟». فتقول:

«لأنّني حسبتك تحتاجه. أمّا هذه البِلْيَة، فقد أَخَذْتُهَا من على

الأرض في منزلنا قبل يوم من مغادرتنا، اليوم الذي حطَّم فيه الرجال كلّ شيء ورموا كلّ ألعابه على الأرض. هل تتذكّر ذلك؟».

أتذكَّر كلماتها الأخيرة وأنا أمشي عبر غرفة الجلوس المعتمة وأصعد الدَّرَج، عابرًا الممرَّ صوب غرفتنا. أتذكّر كلماتها وأنا أنظر إليها من النافذة، وهي جالسةٌ هناك تحت زهور الشَّجرة وضوء الشمس على وجهها.

«هل تتذكَّر ذلك؟».

لا أعرف ما الذي أتذكّره بعد الآن. أسدل الستائر. أضطجع على السرير. أغمض عينيَّ وأسمع صوت النحل خفيضًا في السماء.

عندما أفتح عينيَّ وأجلس مستويًا في السرير، أجد مفتاحًا ذهبيًّا على السجَّادة. أمسكه وأتّجه صوب الباب في آخر الممرّ، أضع المفتاح في القفل وأفتحه. ها أنا ذا في أعلى الرابية مرَّة أخرى. بات الضجيج أعلى الآن؛ الضجيج يملأ ذهني كلية. أنا في أعلى الرابية ومنزلي ورائي، وها هي حلب تمتدّ شاسعة واسعة في الأسفل. السور المحيط بالمدينة مبني من اليَشَب الذهبيّ بينما المدينة مبنية من البلور الخالص، والخطّ المحيطيّ للمباني يلتمع، كلّ مبنى منها يلمع، الجوامع، الأسواق، سطوح المباني، القلعة في البعيد. إنّها شبح مدينة في ضوء الشمس الغاربة. ثمَّةَ وميضٌ إلى اليسار؛ ثمَّة طفلٌ يجري على الرابية صوب ضفة النهر. أستطيع أن أراه على الدرب مرتديًا سرواله القصير الأزرق وقميصه الأحمر. أناديه:

«محمَّد! كفَّ عن الهرب منّي!».

أتبعه على طول الطريق المؤدّي إلى النهر، وأواصل السير وراءه وهو ينعطف عبر انثناءات الدروب، عند المنعطفات وعبر القناطر وتحت شجيرات الكرمة. ثمَّ أفقد أثرَه برهة، ولكنّي أواصل السير حتّى أراه جالسًا تحت شجرة نارنج قرب الماء. الشجرة ممتلئة بالحياة ومثقلة بالثمار. ظهره باتجاهي. أقتربُ منه وأجلس بجانبه على ضفّة النهر.

أضع يدي على كتفه فيلتفت وقتئذ ليصير قبالتي وتبدأ عيناه، هاتيك العينان السوداوان، بالتغيُّر، وتصيران أفْتَح، ثم رماديتين، ومن ثم شفافتين، بحيث تنبعث فيهما الروحُ الآن، وتلين ملامحه وتتكوَّن بصورةِ سرب من النحل، ومن ثم تستقرّ، إلى أن أقدر على رؤية تعابيره ووجهه وعينيه بوضوح أكثر. فالصبيّ الجالس بجانبي، ناظرًا إليَّ بخوف، ليس محمَّدًا. أقول له:

«سامي».

أريد أن أمسك به، ولكنّي أعرف أنَّه سيختفي، مثلما تذوب الألوان في الماء، ولذا أجلس ساكنًا قدر ما أستطيع. ألاحظ الآن أن تلك الثياب ليست سوى الثياب التي كان يرتديها يوم مماته؛ قميصه الأحمر وسرواله الأزرق القصير. يمسك البلْيَة بيده وها هو يلتفت الآن ليصير قبالة مدينة البلُّور. يُخْرِجُ شيئًا من جيبه ويعطيني إيَّاه: يخرج مفتاحًا. فأقول له:

«ما هذا؟».

«إنَّه المفتاح الذي أعطيتني إيَّاه. قلتَ لي إنه يفتح منزلًا سريًّا لا ينهار».

أرى أحجار الليغو موضوعة أمامه فأقول له:

«ما الذي تفعله؟». فيقول:

«أبني منزلًا. عندما نذهب إلى إنجلترا سنعيش في هذا المنزل. فهذا المنزل لن ينهار مثلما تنهار تلك المنازل».

أتذكَّره الآن. أتذكّره مضطجعًا في السرير، خائفًا من القنابل، أتذكّر كيف أعطيتُه مفتاحًا برونزيًا عتيقًا كان يفتح ذات يوم مَخْزَنًا في حقل المناحل. كنت قد دسسته تحت وسادته بحيث يمكن له أن يشعر بأنه ثمَّةَ مكانٌ في كل ذلك الخراب يمكنه أن ينال فيه الأمان.

أمامي، تأتلق المدينة البلُّورية في ضوء الشمس. تبدو مثل مدينة في لوحة رسمها طفل، رسمًا أوليًّا، خطوط عامة بقلم الرصاص للجوامع والشقق. ثم يضع يده في النهر، ويغرف منه حجرًا ويقول:

«هل سنسقط في النهر؟» ثم يتطلَّع إليَّ بعينين دَهِشَتَيْن... ما انفك يسألني هذا السؤال لشهور قبل أن يموت.

«لا».

«لن نسقط فيه مثل مَن سقطوا؟».

«لا».

«ولكنَّ صديقي قال إنّ علينا عبورَ أنهار وبحار أخرى إذا ما أردنا مغادرة هذا المكان، وإذا ما عبرنا تلك الأنهار والبحار فربّما نسقط في الماء كما سقط بقيّة الناس. فأنا أعرف قصصًا عنهم. هل ستطيح الريح

بالقارب؟ هل سينقلب القارب في الماء؟».

«لا. ولكن إن حصل وانقلب فمعنا سترات نجاة. سنكون على خير ما يرام».

«والله -رحماك يا الله!- هل سيمدّ لنا يد العون؟».

«نعم. الله سوف يمدُّ لنا يدَ العون».

تلك كانت كلمات سامي. سامي ابني. ها هو ذا ينظر إليَّ مجدّدًا، عيناه أشدُّ اتساعًا، وقد امتلأتا ذعرًا. «ولكن لماذا لم يساعد الصبية عندما قَطَعُوا رؤوسهم؟».

«مَنْ الذي قطع رؤوسهم؟».

«عندما اصطفّوا وانتظروا. لم يكونوا يرتدون الأسود. هذا هو السرّ. أنتَ قلتَ إنَّ ذلك حصل لأنّهم لم يكونوا يرتدون الأسود. كنتُ أرتدي الأسود. ألا تتذكّر؟». فأقول:

«أتقصد اليوم الذي ذهبنا فيه نتمشّى؟ اليوم الذي رأينا فيه الصِّبْيَة قرب النهر؟».

«نعم، حسبتكَ لا تتذكّر. ولكنّك قلتَ لي إنّه إذا أمسكتُ المفتاحَ وارتديتُ الأسود فإنّي سأصير غير مرئي، وإذا ما صرتُ غير مرئي فيمكنني أن أجد المنزل السرِّي».

تراوِدُني صورتي آنَ تمشَّيتُ معه بجانب النهر وكيف رأينا الصِّبْيَة يصطفّونَ على ضفّته. فأقول له:

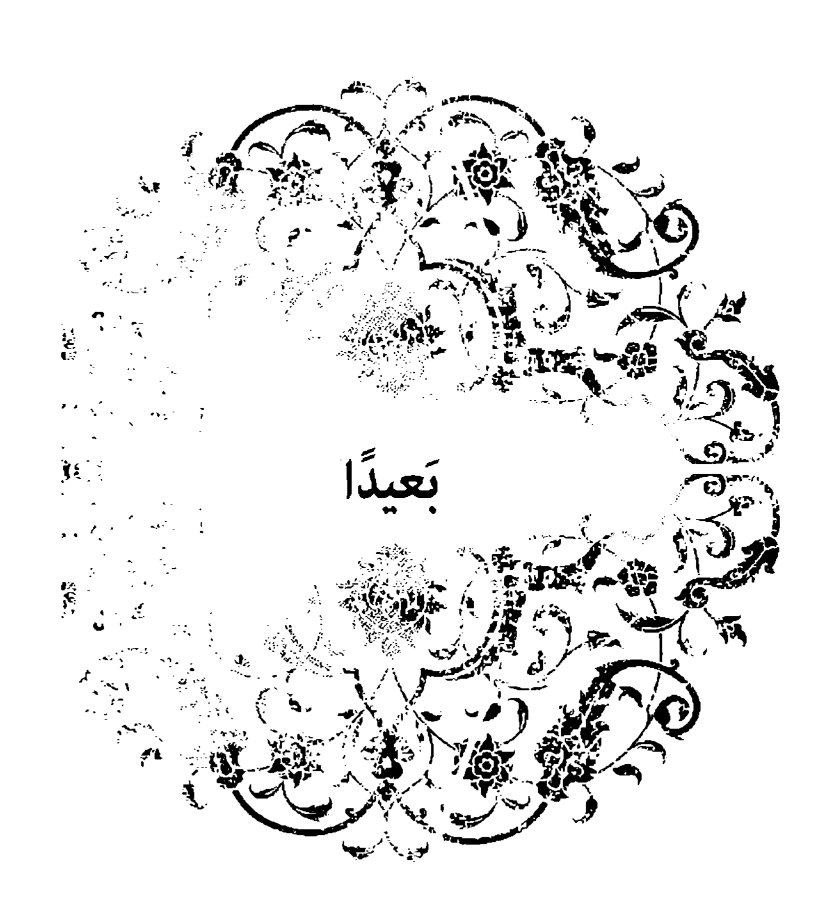
«أتذكَّر ذلك».

هو ذا يلوذ بالصمت الآن. وجهه حزين، وكأنّه موشك على البكاء. فأقول له:

«بماذا تفكِّر؟».

«كم أودُّ أن ألعب مع أصدقائي في الحديقة مرَّة أخيرة قبل أن نغادر. ما رأيك؟».

«نعم، بالطبع، لا بأس في ذلك». ومن ثم يذهبُ



بَعيدًا

صوتَ القمر، بعيدًا صوتَ مكان آخر، زمان آخر، عالَم آخر، صوتَ أيّ مكان باستثناء هذا المكان. ولكنَّنا لا سبيلَ أمامنا للهروب من هذا العالم، فنحن مِنْهُ وهو منَّا، حتّى أثناء الموت. وَقَفَتْ عفراء ساكنةً بجانب النافذة وأنا ألبسُهَا ثيابَهَا. كانت مثل دمية. لقد فَقَدَ وجهُهَا كلَّ تعابيره الآن. لا شيء فيها يتحرَّك سوى أصابعها التي ارتعشت بدرجة خفيفة لم أعهدها فيها قطّ، ورأيتُ رموشَها وهي ترفُّ. لكنّها لم تنبس ببنت شفة وأنا ألبسها فستانها الأحمر؛ وأربطُ حجابها حول رقبتها وألبسها حذاءها، ومن ثم وَقَفَتْ هناك كامرأة مختلفة.

لو قدِّر لي أن أراها في الشارع لرُبَّمَا مررتُ بها دون أن أعرف من هي. فداخل الشخص الذي تعرف ثمَّة شخصٌ لا تعرفه. ولكن عفراء تغيَّرت كلية، تغيَّرت من الداخل ومن الخارج. تجنَّبْتُ ملامسة بشرتها، وحالما فرغتُ من إلباسها ابتعدتُ عنها، فرشَّتْ معصميها وعنقها بعطر الورد الذي أصابني التآلف المديد معه بالغثيان. هذه المرَّة كنّا ذاهِبَين فعلًا إلى مكان ما، كنَّا ذاهبين بعيدًا. بعيدًا عن الحرب، بعيدًا عن اليونان وبعيدًا بعيدًا عن سامي.

كان السيِّد فوتاكيس قد رتَّب مع أحدِهم أمرَ اصطحابنا إلى المطار. ولم يكن هذا الرجل سائقًا وحسب؛ بل سيرافقنا إلى داخل المطار ويعرِّفنا بالشخص الذي سيعطينا التذاكر وجوازات السفر. وبينما انتظرنا قدومه، حضَّر لنا السيِّد فوتاكيس قهوةً يونانية في أكواب صغيرة، وكأنَّ شيئًا لم يحدث. تابعتُه ببصري وهو يسخِّن القهوة على

المطبخة، وصارعتُ نفسي شديد الصراع حتى أردعَها عن فتح أدراج المطبخ وإخراج سكين منها. أردتُ قتله قتلًا بطيئًا جدًّا. أردته أن يشعرَ بكلّ إنش من السكين وهو ينغرز في لحمه. ولكن، إذا أدْرَكْتُ ثأري منه الآن فلن أكونَ قادرًا وعفراء على مغادرة هذه البلاد أبدًا. فإذا ما تركته حيًا، فما تزال أمامنا هذه الفرصة بالنجاة من هنا، مع أن أثرًا منّي سيبقى متروكًا ورائي دائمًا، محبوسًا ضمن الجدران الشديدة الرطوبة في هذه الشقة. لقد شاركتُ في قتل إنسان من قبل، وأعرف أنّي قادر على إتيان هذا الفعل مرة أخرى. حملقتُ في الدُّرْجِ، تخيَّلتُنِي أفتحه وأخرج منه سكينًا. سيكون ذلك أمرًا سهلًا.

«إذن، فقد انتهى بك المطاف وقد صرتَ شخصًا مجتهدًا. شخصًا مطيعًا جدًّا».

تحرَّكت عيناي صوب يده وراقبْتُهَا وهو يحرِّك بها القهوة. ابتسم وهو يسكبها في أكواب ثلاثة وأضاف قائلًا:

«وأحسب أنَّ لديك حُلمًا الآن. كم أثر مذهل يتركه فينا الإصرار والإرادة القوية!». ناوَلَنِي كوبًا وأخذ الكوبين الباقيين إلى غرفة الجلوس، ثم وضعهما على الطاولة الصغيرة. استقرَّت عيناه على عفراء. كانت تجلس على الأريكة... تمنَّيْتُ لو أنها تُقدِمُ على فعل ما؛ أنْ تحكَّ ذراعيها، أو تمسك بالكوب، أو حتَّى أن تبكي، ولكنها جلَسَت هناك فحسب وكأنَّ روحها ماتت من الداخل ولم يبقَ فيها حيٌّ سوى جسدها. فقد شعرتُ بأنَّ روحها غادَرَتْهَا.

سمعنا جلبةً قرب الباب، فساعَدَنا السيد فوتاكيس في حمل

حقائب اليد إلى الطابق الأرضي، ومن ثمَّ وضع الحقائب في الصندوق الخلفي لسيَّارة مرسيدس فضّية. عرَّفنا السائق بنفسه، واسمه ماركوس، يوناني ضخم البنية طويل القامة في الأربعينيات من عمره. كان يستند إلى غطاء محرِّك السيارة وهو يدخِّن سيجارة.

كان يومًا جميلًا، الشمس المشرقة تنير المباني. وفي الخلف الظل الضبابي لجبال الجزر اليونانية، وفوقها هالة رقيقة من الغمام. ثمَّة برودةٌ خفيفة في الجوّ، ولكنَّ الزهور كانت تتفتَّحُ في أفنية الكتل السكنية.

«سأشتاقُ لوجودِكما هنا» قال السيِّد فوتاكيس وهو يضحك ضحكةً خافتةً.

سنغادر نحن ويعيش هو.

صعدنا إلى المقعد الخلفي في السيَّارة وانطلقنا، تابعتُ ببصري السيِّد فوتاكيس من النافذة الخلفية في السيَّارة، واقفًا هناك يتتبعنا بنظراته ونحن نغادر. التفتُّ إلى الأمام، وحاولتُ أن أوصِد بابًا على صورة وجهه وأطرده من بالي. سارت بنا السيَّارة في شوارع أثينا وكان من الغريب مشاهدة المدينة في ضوء الشمس، فعلى مدى أسابيع لم أشاهدها سوى ليل في معظم الأحيان، أو في ساعات الصباح الباكر عندما كانت الشمس بالضبط قد بدأت بإذابة العتمة. فالآن أستطيع أن أرى بعضًا من حالتها الطبيعية، كالسيَّارات، وحركة المرور، والناس الساعين إلى أشغالهم اليومية. كان ماركوس يستمع إلى الموسيقى اليونانية الصادرة عن المذياع؛ وعندما بدأتْ نشرة الأخبار في الساعة

التاسعة صباحًا رفَعَ صوت المذياع وهزَّ رأسَه أو أومأ به وهو يستمع إلى النشرة. كان قد فتح النافذة التي بجانبه، ومرفقه خارجها، أصابعه تلامس المقود. كنت دهشًا من درجة الارتياح التي بدا عليها، ولكن ما إن انتهت الأخبار إلَّا ونظر إليَّ نظرة خاطفة في مرآة السيَّارة بعينين قلقتين، وقال:

«عندما نصل المطار سأفتح لكَ صندوق السيارة الخلفي لتنزلَ حقائبك. ثم أريد منك أن تتبعني، ولكن تأكَّد من أن تبقى بعيدًا عنِّي مسافة عشرة أمتار في كلِّ الأحوال. لا تقترب منِّي كثيرًا ولا تضيِّعني. هذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا. سأدلُّك على حمَّامات الرجال. عفراء ستنتظرُ في الخارج. ثمَّة شخصٌ آخر ينتظركَ هناك. أريدكَ أن تنتظر في الحمَّامات، وعندما تخلو من مرتاديها، فقط عندئذ، اطرق على أحد الأبواب ثلاث مرَّات».

أومأتُ برأسي بالإيجاب. لم يرني إذ فعلتُ ذلك لأنَّه كان ينظر في المرآة حتّى ينتقل إلى مسار آخر في الطريق.

«مفهوم؟ أم أنَّك تريدني أن أشرح لكَ ذلك مرَّة أخرى؟».

«مفهوم» قلتُ له.

«جيِّد. والآن إذا نجحتُمَا في الوصول إلى مطار هيثرو، فارمِ جوازات سفركما وبطاقة الصعود إلى الطائرة في أقرب سلة مهملاتٍ تجدُها. انتظرا ثلاث ساعات، ومن ثم سلِّما نفسيكما إلى السلطات. مفهوم؟».

«نعم» قلتُ.

«عليكَ ألَّا تنسى التخلُّص منها... وعليكَ الانتظار ثلاث ساعات، ورُبّما أكثر، ولكن ليس أقلّ من ذلك، ولا تخبروهم في أيّ رحلة سافرتما».

أخرج علبة علكة من دُرج السيّارة وقدَّم لي علكة ولكنّي رفضت أخذها.

«أترغب زوجتُك في علكة؟» قال. ولكن عفراء كانت تجلس في هدوء تام، ويداها في حضنها، وهي تشبه في ذلك أنجيليكي بدرجة خفيفة، شفتاها مزمومتان، وإذا لم يكنْ الناظر إليها يعرف أنّها كفيفة لحسبَها كانت تنظر إلى الشوارع عبر النافذة. ثم قال:

«أنتَ محظوظٌ لأنَّك غنيّ». عيناه في المرآة تبتسمان الآن وهو يضيف: «إذْ يضطر معظم الناس لقطع رحلة رهيبة عبر أرجاء أوربّا بأكملها للوصول إلى إنجلترا. لكنَّ المال يوصلك إلى كلّ بقاع الأرض. هذا ما أقوله دائمًا. فدونَ مال ستعيش حياتك برمّتها مرتحلًا، محاولًا أن تصل إلى مكان تظنّ أنّك بحاجة للذهاب إليه».

كنت على وشك إخباره بأنّي لا أتفق معه في ذلك، وأنّنا قطعنا سلفًا رحلة رهيبة، رحلة أسوأ بكثير مما يمكن له أن يتخيَّل حتّى، وأن رحلتنا سرقت من عفراء روحها، ولكنّه كان على صواب نوعًا ما. فدون ذلك المال كنّا سنقطع طريقًا أطول بكثير حتى نبلغ مقصدنا.

«أنتَ على صواب يا ماركوس» قلتُ له، فَطَرَقَ بأصابعه على

المقود وتنشَّق الهواء ونحن نتقدَّم ببطء متجاوزين البحر.

في المطار فعلنا مثلما قال لنا ماركوس. سرنا عبر جموع الناس؛ ولم أُزِح عينيَّ طوال تلك المدة عن بذلةِ ماركوس الرمادية. رأيته بعدئذ مَن مسافة بعيدة، واقفًا خارج حمَّامات الرجال. وبقي هناك حتى تيقَّنَ أني رأيته، ومن ثم مضى في سبيله. دخلتُ الحمَّامات. ثمَّة رجل يتبوَّل، ورأيت أنَّ واحدًا من الحمَّامات كان فيه شخص ما. انتظرتُ الرجل حتى فرغ، فقد أخذ وقته في غسل يديه، وتأمَّل وجهه في المرآة. ثم دخل رجلٌ آخر ومعه ابنه الصغير. استغرقا مدة لا بأس بها، وحسبتُ للحظة بأنه سيكون هناك سيل دائم من الناس يدخلون ويخرجون وأني سأبقى عالقًا في الحمَّامات ساعات. ولكن سرعان ما فرغ الحمَّام من الناس. دقَقْتُ البابَ ثلاث مرَّات، كما قيل لي، فخرج رجلٌ من كبينة الحمَّام. وبالكاد سنحت لي الفرصة لرؤيته. ثمَّ ما لبث أن قال:

«نوري إبراهيم؟».

«نعم» أكَّدتُ له بالإيجاب.

ومن ثم أعطاني بطَاقَتِي الصعود إلى الطائرة وجَوَازَيْ السفر ولم يفعل أكثر من ذلك، فقد ذَهَبَ وبقينا وحدنا نتدبَّر أمرَنا بعد ذلك.

لم يكلّم أحدُنا الآخر على الإطلاق ونحن نسير في المطار، أولًا لمباشرة إجراءات السفر، ومن ثمَّ إلى قسم الأمن. مررنا عبر بوّابة التحرِّي عن الأجسام المعدنية ووضَعْنَا أمتعتنا على الحزام السيَّار استكمالًا لإجراءات التفتيش. دبَّ الذعر في أوصالي في هذه اللحظة

وأصابني الارتباك، وأدركتُ بدرجة كبيرة التعابير المرتسمة على وجهي. لم أرغب في أن أبدوَ خائفًا، لم أرغب في أن أنظر إلى أيّ حارس من حرَّاس الأمن، حتى لا ينتبهوا إلى أيّ أمر مريب، ولكنّي أحسب أن ذلك جعلني أبدو شاعرًا بتأنيب الضمير. دسَّتْ عفراء يدها في يدي، ولكن القلق انتابني من الإحساس بلمسة بشرتها، ومعرفة أنها واقفة قريبة جدًّا منّي، لذا خطوتُ خطوةً مبتعدًا عنها.

سرعان ما استلمنا حقائبنا ومضينا صوب السوق الحرّة في المطار، حيث انتظرنا هناك ساعةً وزادت المدة نصف ساعة أخرى بسبب التأخير. ابتعتُ لكلينا قهوةً وتجوَّلنا في أرجاء المكان بصورة نبدو فيها طبيعيين قدر ما استطعنا، ونحن نتظاهر بأننا نستعرض البضاعة المعروضة بغية شرائها حتى نُوْدِيَ علينا بالذهاب إلى البوَّابَة رقم 27.

عند البوابة اتَّخَذْنَا لنا مقعدًا قرب زوجين صحبة أطفالهما الذين كانوا يلعبون الألعاب على هواتفهم المحمولة. لحظة أرَحْتُ كتفيَّ وحسبتُ أنَّ كلَّ شيء سيكون على ما يرام، تتبَّعْتُ ببصري الصبيَّ الصغير وهو منهمكٌ في لعبته؛ كان أصغر بقليل من سامي، يضع حقيبةً ملوَّنةً على ظهره؛ حقيبة لم ينزلها عن ظهره مع أنه كان جالسًا.

كانت عفراء في قمّة السكون والهدوء حتّى إنّي كدت أنسى أنّها هناك. تمنَّيتُ في سرِّي لو أنّها تختفي فحسب؛ تمنَّيتُ لو أنّ المقعد الذي بجانبي كان فارغًا. فرغ الصبي من لعبته ورفع ذراعيه عاليًا في الهواء، وآنئذ لاحظتُ فوضى عمَّت قرب مدخل البوَّابة. ثمَّة خمسة

ضبّاط شرطة يتحدَّثون إلى مضيفة طيران وقد بدت عليها علامات التوتّر الذي ازدادت حدّته. رأيتُ أنّ أحد الضباط كان يجول ببصره في أرجاء المكان. أطرقت ببصري أرضًا، وهمست لعفراء حتّى تتصرَّف على سجيّتها. ثم رفعت بصري ملقيًا نظرة خاطفة، بصورة لا إرادية، ولثانية التقت عينا الضابط عينيَّ فحسبتُ أنَّ أمرنا انتهى. حسبتُ أن أمرنا انكشف. سوف يعيدوننا من حيث أتينا. ولكن يعيدوننا إلى أين؟ يعيدوننا إلى ماذا؟

دخل الضبّاط عبر المدخل إلى قاعة الانتظار، فحبستُ أنفاسي ودعوتُ في سرِّي وهم يسيرون صوبنا ومن ثم وهم يتجاوزوننا، إلى المقاعد الأخيرة الواقعة قرب النوافذ، حيث وقفت فجأة مجموعة تضمّ أربعة شباب وشابّات، وقفوا مذعورين، خائفين، قابضين على حقائبهم، ويبدو عليهم وكأنَّهُم يهمُّون بالهرب، ولكن أين المفر؟ حاولتُ وعفراء ألَّا نختلس النظر بينما كان الأربعة يُقَادُونَ مخفورين، ولاحظتُ وهم يمرُّون بي بأن شابًّا منهم كان يبكي، وهو يمسح وجهَه بظاهر يديه، وقد انهمرت عيناه بسيل من الدموع حتّى إنّه بالكاد رأى إلى أين كانوا يأخذونهم. تعثَّر بحقيبتي وتوقَّف لينظر إليَّ. فما كان من ضابط الشرطة إلا وسحبَه. لن أنسى ما حييت نظرة الألم والخوف في عينيه.

أظْهَرْتُ وعفراء بِطَاقَتَيْ صعود الطائرة وجَوَازَيْ سفرنا للموظفة المسؤولة عند مخرجِ البوّابة، فتفحَّصتها، وألقت نظرة خاطفة علينا بالتناوب وتمنَّت لنا رحلةً آمنة وسعيدة.

وهكذا صعدنا الطائرة واتَّخَذْنَا مقعدينا، فجلستُ هناك وعيناي مغمضتان، وأنا أسمع الضجيج وأحاديث الناس حولي، مصغيًا إلى إرشادات السلامة ومنتظرًا سماع صوت دوران المحرِّك. أمسكَتْ عفراء يَدِي وشدَّت عليها بإحكام.

«إننا ذاهبان. يا نوري، إننا ذاهبان إلى مصطفى وسننعم بالأمان» سمعتُها تهمس. وبصورة مفاجئة سريعة أقلَعَتِ الطائرة، وارتفعت في عباب السماء الزرقاء الواسعة. ها نحن أخيرًا ذاهبان. ذاهبان بعيدًا.



14

ما إن أستيقظ إلَّا وأجدُ الليل قد حلَّ وأجد نفسي وقد نمتُ في خزانة الأدوات المنزلية، رأسي مضغوط على المكنسة الكهربائية، المعاطف فوقي، والأحذية، والأحذية الطويلة الرقبة تنخر في ظهري. أقفُ ثم أمشي عبر الممرّ. أستطيع سماع أصوات النزلاء الآخرين وهم نيام. المغربيُّ يشخر شخيرًا عاليًا، وبينما أمرُّ بغرفته أرى بأن ساعة الجيب البرونزية تتدلَّى من مقبض الباب. ألقي نظرةً من كثب على رسومات الزهور على إطار الساعة وعلى واجهتها اللؤلؤية، وأرى الأحرف الأولى من الكلمات المنقوشة على وجهها السفلي وقد كتب فيها حرفان: (AL). توقَّف الوقت فيها مشيرًا إلى الساعة الرابعة. باب ديوماندي مفتوح على مصراعيه. أراه نائمًا على جنبه، والملاءات مرمية فوقه بصورة مرتخية. فأسير بهدوء داخل عتمة غرفته وأضع يدي على ظهره، وأنا أتوقّع أن ألمس النتوءين، تلكما الكرتان المشدودتان بإحكام، النازلتان من بشرته الداكنة. ولكني عوضًا عن ذلك أحس بنتوءات البشرة المتسلّخة، أحسّ بندوب ضخمة بارزة تمتدّ على فراشات كتفيه مثل آثار الحروق. تغرورق عيناي بالدموع حتّى إنَّها تدخل فمي. أفكِّر فيه، إنسانًا مفعمًا بالأحلام.

يتنهَّدُ ويلتفتُ متكئًا على جَنْبِهِ ويقول شبه مغمض عينيه: «ماما».
فأهمس قائلًا:

«بل نوري. رأيتُ باب غرفتك مفتوحًا وقد سقطت الملاءات عنك. فخشيتُ عليكَ من البرد».

أسحب الملاءات فوقه، وأدثِّرُه بها وكأنّه طفل. يتمتم بكلمات ما ومن ثَمَّ يعاود النومَ مرَّة أخرى.

أتّجه إلى الطابق الأرضي وأفتح قفل الباب الزُّجاجي وأقف في الخارج في الفناء الذي يكتنفه نور القمر. يصدح صوتُ المستشعر ويومض ضوؤه. النحلة نائمة على إحدى الهندباءات البرية. أداعبُ جسدها الناعم الملمس مداعبةً لطيفة جدًّا حتّى لا أزعجها. أنا دهش أنها بقيت حيَّة في هذه الحديقة الصغيرة التي اتَّخَذَتْها موطنًا لها. أنظر إليها وهي تكنُّ بين الزهور وصحن الماء المحلَّى بجانبها؛ لقد تعلَّمت كيف تعيش دون أجنحتها.

بتُّ أعرفُ الآن أنَّ محمَّدًا لن يعود؛ بتُّ أدركُ أنَّه شخصيةٌ اخترعتها أنا، ولكنّ الريح تهبُّ وأوراق الشجر تَحِفُّ وثمَّة بردٌ قارسٌ في الجو يتسلّلُ تحت جلدي، فأتخيَّلُ هيئة جسده الصغير في ظلال الحديقة. تستمرُّ ذكراه في النقر على ذاكرتي، وكأنّه نوعًا ما، في ركن معتم في قلبي، يعيش حياةً خاصة به. عندما أصل إلى هذا الإدراك يستحوذُ سامي على ملكات عقلي. أتذكّر أيامَ كنت أضعه في السرير وأغطيه، في الغرفة ذات البلاط الأزرق، أتذكَّرُنِيْ جالسًا بجانبه أقرأ له من كتاب الأطفال الذي وجدْتُه في السوق. عيناه مشرقتان، مليئتان

بالترقُّب المكتسي تفاؤلًا. كنتُ أترجم له وأنا أقرأ من الإنجليزية إلى العربية.

«من ذا الذي يُقْدِمُ على بناء منزل من القشّ؟» كان قد قال ضاحكًا. «لو كان الأمر بيدي لبنيته من المعدن، من أقسى معدن في العالم، كذلك الذي يُسْتَخْدَمُ في صناعة سفن الفضاء!».

لشدَّ ما أحبَّ أن يتطلَّعَ إلى النجوم ويحيكُ القصص. ينطفئ ضوء المستشعر وأجلس برهةً في العتمة وأنظر إلى السماء المعتمة. ليس في جَعبتي الآن سوى الذكريات. تهبُّ الريح وأتنسَّم فيها رائحة البحر. تتحرَّكُ الأوراق على الأشجار وأستطيع أن أراه مرَّة أخرى، أراه في عقلي؛ أرى سامي، أراه يلعب تحت الشجرة في الحديقة في حلب، في منزلنا على الرابية، وهو يضع الدِّيدَان في الصندوق الخلفي لشاحنته الصغيرة حتى يتسنَّى له أن يأخذها في مشوار فيها.

«ماذا تفعل؟ إلى أين تأخذها؟» كنت أقول له.

«ليس للدِّيدان أرجل ولذا فأنا أساعدها. سأسوق بها الشاحنة إلى القمر!».

كان هناك بدرٌ في سماء زرقاءَ في هاتيك الليلة.

أذهبُ إلى غرفتنا. عفراء نائمة ويداها موضوعتان تحت خدِّها. على الطاولة المجاورة للسرير ثمَّة لوحةٌ أخرى. أرفعها وأعجز عن التنفس لحظةً. فقد رسمت شجرة الكرز التي في الحديقة الإسمنتية، بأغصانها الملتوية وبتلات زهورها الوردية الطرية. هذه المرة الألوان

التي استخدمتها صحيحة، والخطوط والظلال أقلُّ اعوجاجًا. والسماء مشرقة وزرقاء وفيها خصل من الغمام وطيور بيضاء. ولكن تحت الشجرة، ثمَّة رسمٌ رمادي، يكاد يكون غير مرئي: رسمٌ لخطوط تحدِّد معالم صبي، بضربات قلم ناعمة وسريعة، ما جَعَلَه يبدو وكأنَّه قد رُسِمَ أثناء حركته. هو جزء من هذا العالم ومع ذلك فهو ليس منه تمامًا. ثمَّة بريقٌ خفيف من حمرة على قميصه حيث كانت عفراء قد بدأت في تلوينه ومن ثم أحجمت عن ذلك. مع أنه شبه طيف، إلّا أنه واضح بما يكفي لي لكي أرى أنَّ وجهَه مائلٌ صوبَ السماء.

أضطجع على السرير بجانبها وأنظر إلى الانثناء الناعم لجسدها فأتذكَّر الخطوط البرَّاقة للمباني.

أمدُّ يدي وألمسها للمرة الأولى، وأمرِّر يدي على طول ذراعها، ومن ثم أنزل بها صوب وركيها. ألمسها لمسًا وكأنها مسبوكة من أرقِّ طبقات البلُّور؛ ألمسها وكأنها قد تنكسر بسهولة تحت لمسات أصابعي، ولكنّها تتنهَّد وتقترب منّي ببطء، مع أنها نائمة. أدرك كم كنت خائفًا من أن ألمسها.

تشرق الشمسُ فيبدو وجهها جميلًا في ضوء الفجر، تلك التجاعيد الناعمة حول عينيها، انثناءة ذقنها، الشعيرات السود على جانبي وجهها، انحدار عنقها، مرورًا بالبشرة الناعمة وصولًا إلى نهدَيها. ولكنّي بعدئذ أتخيَّلُهُ فوقَهَا، مرغمًا إيَّاها، وتلك النظرة في عينيها، نظرة الخوف، والصرخة المحبوسة داخلها، واليد التي تكمِّمُ فمها. أتذكَّر المفتاح الذي نسيتُه على طاولة القهوة في شقَّة المهرِّب،

أتذكَّر كيف تابعتُ مسيري في السيَّارة عبر شوارع أثينا ولم أرجع. أنا أرتجف الآن. إني أحارب تلك الفكرة، أدفعها عني. أدرك أنِّي نسيتُ أن أحبَّها. هو ذا جسدها، هي ذي الخطوط على وجهها، هو ذا الإحساس ببشرتها، هو ذا الجرح ممتدًّا عبر وجنتها يقودُ إليها، مثل درب، يقودني كل تلك المسافة إلى قلبها. فتلك هي الدروب التي نسلك.

«عفراء» أقول لها.

تتنهَّدُ وتفتح عينيها بدرجة خفيفة جدًا.

«أنا آسف».

«على ماذا تتأسَّف؟».

«آسفٌ لأنّي نسيتُ المفتاح».

لا تنبس ببنت شفة ولكنّها تكتفي بإحاطتي بذراعيها بحيث يمكنني أنْ أشمَّ الورودَ، ومن ثمّ أشعرُ بها وهي تبكي على صدري.

أتحرَّكُ إلى الخلف بحيث يتسنّى لي أن أنظر إليها؛ فأرى الحزن والذكريات، والحبَّ والخسارة، تنبثق من عينيها. أقبِّلُ دموعَهَا، وأتذوّق طعمها، ثم أبتلعها. أدرك كلَّ ما تستطيع أن تراه.

«لقد نسيتَنا» تقول.

«أعرف».

ومن ثم أقبّلُ وجهَها وجسدَها وأتحسَّسُ بشفتيَّ كلّ شبر منه، كلّ خطّ، كلّ ندبة، كلّ شيء رأتْه وحمَلَتْه داخلها وشعرتْ به. ومن ثم أريح رأسي على بطنها، فتضع يدها على رأسي وتداعب شعري. ثم أقول لها:

«ربّما يمكننا أن ننجب طفلًا آخرَ في يوم ما. لن يكون سامي، ولكنّنا سنحكي له كلَّ شيء عنه».

«ألن تنساه؟» تقول لي.

تلوذُ بالصَّمتِ برهةً وأستطيع أن أشعرَ بدقّات قلبها في صدرها ثم أقول لها:

«ألا تتذكَّرين كيف كنّا نعشق اللعب في الحديقة؟».

«بالطبع أتذكَّر ذلك».

«وكيف كان يدفع تلك الدودة في أنحاء الحديقة في شاحنته الصغيرة وكأنّه كان فعلًا يأخذها إلى مكان ما؟».

تضحك وأضحك أنا أيضًا. أستطيع أن أحسّ بضحكتها تتموَّجُ بخفَّة عبر جسدها مثل عملات معدنية نازلة صوب الأرض، ثم أقول:

«وعندما أحضرتُ له خريطة العالم. وعندما كوَّنَ أُسرَةً باستخدام الحجارة وأرسلَها إلى خارج سوريا. كان قد راقبني وراقب مصطفى ونحن نخطّط لرحلتنا المزمعة في أرجاء المعمورة».

«ولم يعرف كيف يمكِّنُ أفراد الأسرة المصنوعين من الحجارة

من المرور عبر الماء! يا لَشدّة خوفه الدائم من الماء!» تقول عفراء.

«لا بل إنّي اضطررت حتّى أن أغسل شعره في المغسلة!».

«وكيف لي أن أنسى الطريقة التي اعتاد أن ينتظركَ بها دائمًا قرب النافذة عندما يحين موعد عودتكَ إلى البيت». ومع كلماتها الأخيرة تلك، أطلقت تنهيدة وخرَّت نائمة وراقَ عالمُهَا الداخلي وصار مثل الماء.

باكرًا في الصباح يُقْرَعُ جرس الباب. وعندما لا يفتح أحدٌ الباب، فإنه يُقْرَعُ مرَّة ثانية وثالثة. بعد برهة أسمع وقع أقدام تعبر بَسْطَة الدَّرَج؛ وقع أقدام المغربي. يتوقّف في أعلى الدَّرَج ثم ينزل، ألواح الأرضية تَصِرُّ مع كل خطوة يخطوها. يُفْتَحُ البابُ وأسمع صوت محادثة خافتة. يبدو أنه رجلٌ ذو صوت خفيض. أذهب إلى أعلى الدَّرَج وأسمع اسمي، اسمي وكنيتي، بصوت عالٍ وواضح.

«نوري إبراهيم. جئتُ لرؤية نوري إبراهيم».

مرتديًا البيجاما وحافيَ القدمين أنزل الـدَّرَجَ فأجدُ مصطفى واقفًا هناك، والضوء العميم لشمس الصباح يأتلق خلفه. يَقْدَحُ زناد الذكريات أمام عينيَّ: فأتذكّر منزل أبيه في الجبال، وجدّه يدهن العسل على رغيف خبز ساخن، والدروب التي تفضي بنا إلى داخل الغابة حيث يجد النحلُ الأزهار، وضريح أمّه وتلك الابتسامة المؤتلقة، والطريقة التي اعتدنا أن نقف بها مكشوفين في المناحل والنحل يحيط

بنا من كلّ حدَب وصوب، ووجه أبي الحزين وجسده الذاوي، وأمّي ومروحتها الحمراء: يوانْفِن -القوة الغامضة التي تقيِّضُ لحياتين عبور الدروب- ومناحلنا، والحقل الواسع المملوء بالضوء، وألوف من النحل، والعمَّال ينفثون الدخان في الخلايا، وتناول وجبات الطعام تحت المظلّات... كلّ تلك الذكريات انفلتت من عقالها وأومضت أمام ناظريَّ وكأنّي موشك على أن أتنفَّسَ آخرَ نفس في حياتي.

«نوري» يقول لي دون زيادة، وصوته يرتجف. آنئذ كانت اللحظة التي بدأتُ أنتحبُ فيها، وبدأ جسمي يرتجف، وأحسب نفسي لن أكفَّ عن النحيب والارتجاف أبدًا، وأشعر بمصطفى وهو يتقدَّم، يأتي صوبي، واضعًا يدَه على كتفي، يمسكه بقبضته القوية، ومن ثمَّ يعانقني وهو يحمل روائح مكان مجهول ويقول:

«كنتُ أعرف أنك ستأتي. كنتُ أعرف أنك ستصل إلى هنا».

ثم يرجع خطوة إلى الوراء حتَّى ينظر إلي، وبعينيَّ اللتين داهمتهما الغشاوة أرى عينيه تفيضان بالدموع، ووجهه وقد صار أشد شحوبًا من قبل وأكبر سنًا، التجاعيد المحيطة بعينيه وفمه أكثر غورًا، وشعره أكثر شيبًا. هنا نقف كلانا، وقد صفعتنا صروف الحياة، هنا وقفنا، رجلان، أَخَوَانِ، يلتئم شملهما أخيرًا في عالم ما هو بوطننا. يقفُ المغربي بجانبنا متابعًا هذا المشهد. أتنبَّه له الآن، أتنبَّه إلى النظرة الحزينة في عينيه، أتنبَّه إلى الطريقة التي يدوِّر فيها أصابعه واحدًا حول الآخر وكأنَّه لا يعرف ما يفعل سوى ذلك. ثم يقول بلهجته المغربية التي تميِّزه:

«شنو بان ليك فشي كاس ديال أتاي؟ منين نتا؟ باين قطعتي شي طريق طويلة[1]».

فيقول مصطفى: «لقد جئتُ من يوركشير في شمال إنجلترا؛ استقلَّيْتُ الحافلة الليلية. ولكنّي سافرتُ أبعد من هذه المسافة بكثير».

أرحِّبُ بمصطفى ليدخل إلى غرفة الضيوف ونجلس صامتين برهة؛ مصطفى على حافّة الكرسي ذي المساند، يفرك يديه، وأجلس أنا على الأريكة. أراه ينظر إلى الحديقة ومن ثم إليَّ. يفتح فاه ليتكلَّم ولكنّه لا يلبث أن يلوذ بالصمت، حتّى نباشر كلانا الكلام في الوقت ذاته. يسألني:

«كيف الأحوال يا نوري؟».

«ستأتي معي، أليس كذلك؟» يقول والقلق بادٍ على محيَّاه.

«بالطبع».

«لأنّي لا أستطيع القيام بذلك وحدي، فالأمر مختلف هنا». فأقول له:

«إذا كنتُ قد قطعتُ كل هذه المسافة الطويلة فلن يشقَّ عليَّ الذهاب إلى يوركشير».

«ومتى تعرفُ نتيجة المقابلة؟ فقد قلتَ في رسالتك لي إنك لستَ على ما يرام؟».

---

(1) «ما رأيك بكوبٍ من الشاي؟ من أين أتيتَ؟ لا بدَّ أنك قطعتَ مسافة طويلةً».

في تلك اللحظة بالذات أسمع وقع خطوات في ممرّ الصالة إذ تظهر عفراء، واقفةً بلا حراك في مدخل الباب. فتأتلق عينا مصطفى، ومن ثم ينهض، ويمسك يدها بيده أولًا ومن ثمَّ يحيطها بذراعيه ويضمُّها مدة طويلة. أسمع صوت أنفاسها، وكأنَّ حضورَ مصطفى أزاحَ عبئًا ثقيلًا جثم في قلبها.

الطقس دافئ اليوم ولذا فإنّنا نخرج إلى الفناء. تقول عفراء بعينين باسمتين:

«أستطيع رؤية خضرة الشجرة، وهناك في الأعلى...» تشير إلى شجيرة الخلنج قرب السور: «هناك في الأعلى أستطيع رؤية لون وردي ناعم. ثمَّة أوقاتٌ تكون فيها الأشياء أشدَّ وضوحًا».

مصطفى سعيدٌ من أجلها. وتمثَّلَتْ ردَّات فعله بكلّ الطرق التي لم أستطع أن أبديَها. يأتي المغربيُّ بالشاي إلى الخارج ويحكي لنا مصطفى عن خلايا نحله ثم يقول:

«ستحبّين المكان الذي نقيم فيه يا عفراء. إن ذَهَب وآية بانتظارك، وهناك عدد كبير من الزهور، حقول من الخزامى والخلنج، كما أنّ النحل أيضًا يجمع الرحيق من الحدائق الخاصّة والأراضي وعلى طول مسارات السكك الحديدية. ستكونين قادرة على رؤية الألوان... سأصطحبك بنفسي؛ سنتمشّى عندما يكون الجوُّ دافئًا وسآخذك إلى الأماكن التي يقصدها النحل. كما اكتشفنا وجود متجر يبيع الحلوى والبقلاوة!». ها هو يتحدَّثُ بحماسة طفل مرَّة أخرى، ولكنّي أستطيع أن أستشفَّ نَبْرًا متواريًا من اليأس؛ فأنا أعرفه عزَّ المعرفة، وما يقوله

فعليًّا هو ما يلي: هذه هي النهاية التي ينبغي للقصَّة أن تصلها؛ فقلوبنا ما بها سعة لتحمل مزيد من الخسارات.

ومن ثم يشعل سيجارةً، ويدخِّنُها وهو يحكي لنا عن مجموعات المتدرِّبين والورش وطلابه وعن جمعية النحَّالين.

«عندما تأتي يا نوري، ستساعدني في تدريب مجموعات المتدربين، وسوف نفصل الخلايا وننشئ خلايا جديدة». يرمقني بنظرة خاطفة أثناء حديثه، وهو يخلق صورًا بيديه وكلماته. إنه يرغب في منحي شيئًا ما يبثُ فيَّ الأمل، ولن يختلف في ذلك اثنان. إذ دائمًا ما كان مصطفى يبث فيَّ الأمل من خلال شيء ما.

أنا واقفٌ بعيدًا عنهما قليلًا قرب الأبواب الزجاجية، ناظرًا إليهما، وأنا أفكّر بالصبي الصغير الذي لم يكن موجودًا قطّ وكيف كان قد ملأ الفراغ المعتم الذي تركه سامي. أحيانًا ما نخلق مثل هذه الأوهام الشديدة الأثر، حتى لا نضيع في غياهب العتمة.

يقول مصطفى: «يومًا ما، يومًا ما سنرجع إلى حلب ونعيد إنشاء المناحل ونبعث الحياة في النحل».

ولكن وجه عفراء هو من يبعث فيَّ الحياة، وهي تقف هنا في هذه الحديقة الصغيرة مثلَمَا اعتادت أن تقف في فناء منزل مصطفى في حلب، عيناها تفيضان بالحزن والأمل، تفيضان بالعتمة والضوء.

ها هي تنظر صوب شيء ما. بين زهور شجرة الكرز، ثمَّة ثلاثة هداهد جاثمة على غصن، تتحرَّى المنطقة المحيطة بها؛ هداهد ذات

تاج فخم من الريش ومناقير معقوفة وأجنحة مخطَّطة. هي ذي الهداهد هنا، مهاجرةً من الشرق، في هذي البلدة الصغيرة الواقعة قرب البحر.

«أترونها؟ لقد جاءت حتّى تجدنا!» أسمعها تقول.

نظر كلّنا الآن، ننظر كلّنا في الوقت ذاته، فتفرد الهداهد أجنحتها السوداء والبيضاء وتنطلق معًا صوب السماءِ غير المنكسرة.

عزيزي القارئ،

في صيف عام 2016، وكذا في صيف عام 2017، لم أجد نفسي إلَّا وقد صرتُ في أثينا، حيث عملتُ بصفة متطوِّعة في مركز لإيواء اللاجئين. في كل يوم، كان يتدفّق إلى اليونان أناسٌ جدد، عائلات من اللاجئين، وقد دهمهم التيه وألجَمَهُم الخوف، ومعظمهم من سوريا وأفغانستان. إنَّ تجربة المكوث هناك لمساعدة هؤلاء الناس، وهم يعيشون أحلك أيام حياتهم، فتحت عينيَّ على أمر مهم.

فقد بدأتُ أدرك أنهم أرادوا أن يسردوا ما جرى معهم من أحداث، ولكنّ حاجز اللغة حال دون ذلك، ولكنّهم أرادوا أن يحكوا ما يعتمل بداخلهم، أرادوا أن يستمع إليهم الآخرون، أرادوا لهم أن يشهدوا ماذا حلَّ بهم. أمّا الأطفال فقد عبَّروا عن ذلك برسم اللوحات. رسموا نفَّاخَات وشَجَر، وفي ظلها خيمة وجثَّة. قضَّت تلك اللوحات مضجعي وهزَّتني القصص التي سردوها. ولكن ذلك لم يكن سوى واقعهم الذي عاشوه؛ لم يكن سوى ما مرَّ على رؤوسهم من أهوال.

ما لبثتُ أن عدتُ إلى لندن، وكان الأمل يحدوني في أن يتلاشى رعب ما رأيتُه وما سمعتُه، بيد أنَّ ذلك لم يحصل. لم أستطع نسيان ولو نُتْفَة ممَّا حصل. ولذلك قررتُ أن أكتبَ روايةً لتكون بمثابة وسيلة أروي بها قصص هؤلاء الأطفال وتلك الأسَر.

وما انفكَّ سؤالٌ يدور في خلدي ويأبى أن يبارحني: ماذا يعني أن يرى الإنسان أهوالًا كهذه بعينيه؟ وهكذا ولدت شخصية عفراء، امرأةٌ

رأَتْ ابنها يموت بين يديها، امرأة فقدت نور عينيها بسبب الانفجار الذي أودى بحياته. ثم حدث أن التقيتُ رجلًا كان يعمل في الأيام الخوالي نحّالًا في سوريا. وقد بلغ به المقام المملكة المتحدة وصار ينشئ فيها خلايا النحل ويعلِّم اللاجئينَ النِحَالة. فالنحل رمز للهشاشة والحياة والأمل. كان نوري، بطل روايتي، ذات يوم أبًا ونحّالًا يملؤه الفخر والكبرياء. أمّا الآن، فهو يحاول التواصل مع زوجته التي مزَّقَتْهَا صروف الحياة، زوجته عفراء، باحثًا عنها في أنفاق حزنها المعتمة، ولكنّها ما كانت لتغادر حلب، بل باتت ذاهلة وسط حزنها وأساها. يعرف نوري أنه يجب عليهما الرحيل حتّى تُكتبَ لهما النجاة. ولا يبدآن رحلتهما صوب البقاء والتجدد إلّا بعد أن يسمح كلّ واحد منهما لنفسه بأن يرى ويحسّ بوجود الآخر وبحبه.

إنّ رواية «نحّال حلب» ما هي إلَّا عمل أدبي خيالي. ولكنّ نوري وعفراء لم يتكوَّنَا في قلبي وعقلي سوى نتيجة لكل خطوة خطوتُها بجانب الأطفال والأَسَر التي نجحت في الوصول إلى اليونان. لقد كتبتُ هذه الرواية بمثابة وسيلة لإنارة الدرب ولأقول بأننا مع الناس، الناس الذين يشكِّلُون مبلغ همّنا واهتمامنا أكثر من أيّ شيء في العالم عندما عانينا من هذه الخسارة الفادحة العظيمة. فالرواية تتمحور حول الفقد العميق، ولكنّها أيضًا رواية تُعلِي شأن الحبّ وإيجاد النور. ففي هذه الرواية أبثُّكم ما رأيته وسمعته وأحسسته في شوارع أثينا ومخيَّماتها.

كريستي لَفْتِيرِي



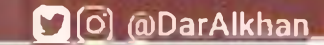
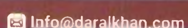
كريستي لفتيري

إنّ رواية «نحّال حلب» ما هي إلّا عمل أدبي خيالي. ولكنّ نوري وعفراء لم يتكوّنَا في قلبي وعقلي سوى نتيجة لكل خطوة خطوتُها بجانب الأطفال والأسَر التي نجحت في الوصول إلى اليونان. لقد كتبتُ هذه الرواية بمثابة وسيلة لإنارة الدرب ولأقول بأننا مع الناس، الناس الذين يشكِّلُون مبلغ همّنا واهتمامنا أكثر من أيّ شيء في العالم عندما عانينا من هذه الخسارة الفادحة العظيمة. فالرواية تتمحور حول الفقد العميق، ولكنّها أيضًا رواية تُعلِيْ شأن الحبّ وإيجاد النور. ففي هذه الرواية أبثُّكم ما رأيته وسمعته وأحسسته في شوارع أثينا ومخيّماتها.

- المؤلفة


9 789921 712315





@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com